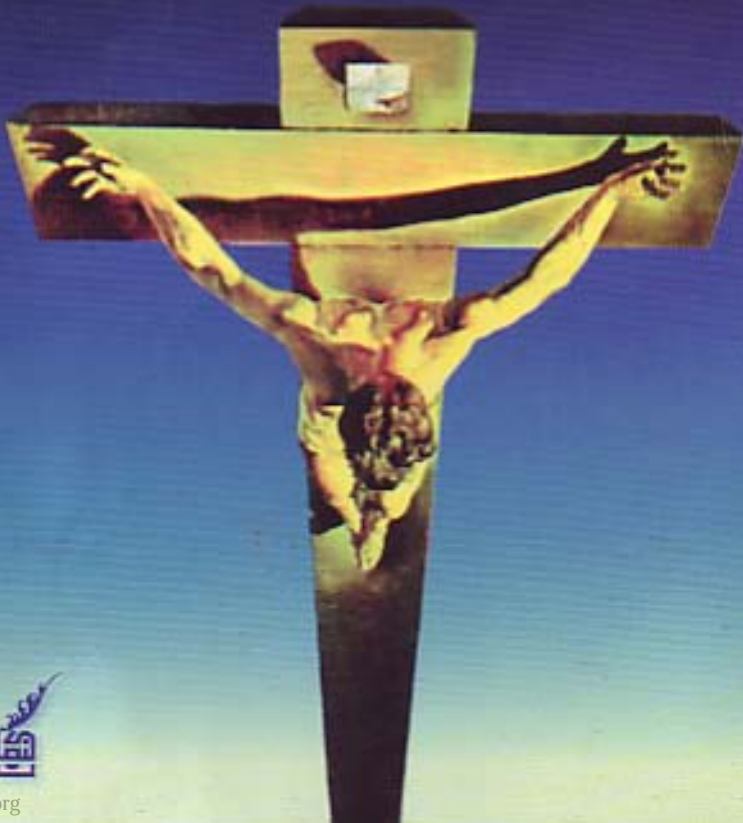


ألبير بايه

# أخلاق الإنجيل

دراسة سوسيولوجية

ترجمة: الدكتور عادل العوا



## المؤلف

أستاذ علم الاجتماع في جامعة باريز (السوربون)

ولد (البير بايه) Bayet.A في مدينة (ليون) سنة ١٨٨٠ ،  
والتحق بمعهد المعلمين العالي سنة ١٨٩٨ واعتنق مبادئ المدرسة  
الاجتماعية الفرنسية، وانكبّ بوجه خاص، على دراسة الأخلاق  
من الناحية العلمية، وبدأ تدريسه الجامعي في (السوربون)، وكان  
تعليمه ناجحاً جذاباً. ولم يتوان عن نصره أفكاره بالعمل  
السياسي. وتولى رئاسة «عصبة حقوق الإنسان» و«عصبة  
التعليم» و«الاتحاد العقلي» و«اتحاد المفكرين المناوئين للفاشية».  
وانضم في أثناء احتلال الألمان لفرنسة إلى حركة المقاومة، وأصبح  
رئيس «اتحاد الصحافة السريّة». ولما وضعت الحرب أوزارها عُيّن  
سنة ١٩٤٥ عضواً في «الجمعية الاستشارية» مندوباً عن حركة  
المقاومة. ولما أسندت إليه رئاسة «الاتحاد الوطني للصحافة  
الفرنسية» لم يشأ أن يتقدم إلى الانتخابات العامة ليتسنى له  
التفرغ للتدريس في «السوربون» وإلى متابعة بحوثه في الأخلاق  
وعلم الاجتماع.

## تصدير (\*)

لعل الظاهرة الدينية، بالمعنى الدقيق، هي الظاهرة الفذة في الثقافة الإنسانية التي ما برحت تحظى باهتمام الباحثين كافة، في الأزمنة كلها، سواء لدى من يؤيد أسسها وتعاليمها، أو يرتاب في هذه الأسس والتعاليم، أو ينكرها ويتنكر لأربابها فيكافحهم ويكافحها. وكثيراً ما نشاهد مسعى الإستعاضة عن الديانة بالمعنى التقليدي بديانة من طراز عقائدي (ايدولوجي) أو فكري أو علمي أو عاطفي، كالدين الطبيعي المؤله أو غير المؤله، أو الدين الوضعي ومثلاً عبادة الإنسانية متمثلة في امرأة ممجدة، كما رأى العالم الاجتماعي الفرنسي (أوغست كونت)، أو عبادة المجتمع على نحو ما حسب تلميذه (اميل دوركهايم)...

وهذا الاهتمام بالبحث في الظاهرة الدينية يؤدي إلى تنوع وجهات النظر، ويجري، أعمق أعمق ما يجري، في مساق أحد منزعين: أولهما المنزع الاعتقادي، وهو بحث المؤمنين بديانة في شؤون ديانتهم؛ والآخر المنزع العلمي الوضعي، وهو يسعى إلى الإحاطة بالظاهرة الدينية معتقداً الاهتمام بالجانب

---

(\*) تنويه: جميع الهوامش المرفقة أرقامها بحرف (م) تعود للمترجم وهي بمثابة معجم يتضمن شروحات وتعريفات عن معظم الأسماء والتيارات الواردة في الكتاب وقد أفرد لها باب مستقل في آخر الكتاب تحت اسم (هوامش للمترجم). وأما بقية الهوامش الأخرى التي لا يوجد إلى جانبها حرف (م) فهي للمؤلف ونحيل إلى المراجع والمصادر، في حين ان هوامش المؤلف الأخرى التي تتضمن شروحات فقد نُبِتت في نفس الصفحة التي وردت فيها وأشير إليها بـ (\*). (الناشر)

النفسي أو الجانب التاريخي أو الجانب الاقتصادي أو المعرفي. وقد أنتج هذا المسعى الأخير الموصول على حداته، مايسمى تاريخ الأديان المقارن وعلم الأديان، كما أنتج في الوقت ذاته بحوث علماء النفس والتحليل النفسي وعلماء الاجتماع والتحليل الموضوعي والفنومولوجي والفلسفي.

وفي منحنى الدراسة السوسولوجية للظاهرة الدينية المتمثلة في الديانة المسيحية المبجلة وضع الأستاذ (ألبير بايه)، أستاذ علم الاجتماع والأخلاق في جامعة باريز (السوربون)، كتابه عن «أخلاق الإنجيل»، وفيه يعرض من وجهة نظر علم الاجتماع التاريخي رأيه في أصول «العهد الجديد» ودقائق أفكاره وتعاليمه الأخلاقية، وهي بوجه الإجمال تتوخى السمو بإنسانية الإنسان، وتلتقي بذلك مع سائر الجهود التي تمخضت عنها ديانات أخرى وشتى مراحل تطور الفكر البشري على صعيد إبراز القيم الأخلاقية «المخالدة» وإنضاجها. وقد سبق للمترجم أن نقل إلى اللغة العربية محاضرات عن «بنية الفكر الديني في الإسلام»<sup>(\*)</sup>، وألمح إلى بعض الجهود التي يبذلها العلماء المعاصرون لتحليل الظاهرة الدينية تحليلاً علمياً موضوعياً لا يمس بحال من الأحوال حق أي مؤمن في المثابرة على إجلال موضوع إيمانه وتعاليم عقيدته. وفي هذا الإطار وحده يرجو مترجم «أخلاق الإنجيل» أن ينظر القراء جميعاً إلى جهده الرامي حصراً إلى إتاحة الفرصة لمن شاء منهم أن يلتم بلبنة صغيرة أخرى من صرح المعرفة العالمية الراهنة الواسع<sup>(\*\*)</sup>.

---

(\*) - مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩ - انظر أيضاً: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي (بيروت - ١٩٧٧).

(\*\*) للمؤلف بحوث ودراسات كثيرة منها: تاريخ الأخلاق في فرنسا - الأخلاق العلمية - فكرة الخير - الانتحار والأخلاق - علم الحوادث الأخلاقية - الأخلاق العلمانية وخصوصها - أخلاق الفضيلة - الفتوى المسيحية المعاصرة - دفاع عن العلم (الترجمة العربية بقلم د. عثمان أمين) - تاريخ إعلان حقوق الإنسان (الترجمة العربية بقلم د. محمد مندور) - تاريخ الفكر الحر (الترجمة العربية بقلم بهيج عثمان).

## الفصل الأول

### هل توجد أخلاق إنجيلية

المشكلة: ١ - يعلن المؤلفون كافة وجود أخلاق إنجيلية، ولكنهم لا يستطيعون الاتفاق على مضمونها. ٢ - حل ممكن: إن الإنجيل لا ينطوي على مذهب أخلاقي واحد، بل على مذاهب أخلاقية عدة.

هل توجد أخلاق إنجيلية؟

إننا نتردد في طرح السؤال. أليس الأمر مبرماً سلفاً وذاكرة الناشئين تحفل كلها بما يوحي به اسم (الإنجيل) وحده من أئمن ما يذخر به فكرهم؟ وأي حجاج يعدل ذاك السحر؟ هاهي ذي الآيات الرنّانة التي تدين النفاق والثورة والقسوة. وهذه هي كلمات المحبة والغفران، كلمات بسيطة، وبالرغم من ذلك فإن جمالها يبرز كل ما يمكن أن تزهو به الفلسفة في أجمل حلّ لها. إليكم هذه الطائفة من الأمثال التي تضحك وتزجر وتبكي: ثوب الطفل الضال، مصباح (البتول) المصون، (السامري) الذي ينحني ليصبّ الزيت والخمر. فلم نطلب المزيد، وماذا يستطيع النقد أن يفعل هنا، وهو لم يكن سوى لعب رهيب سري؟ أجل، إن أخلاق الإنجيل موجودة. وقد بعّلتها القرون: وهي اليوم، شأنها ساعة مولدها، المحبة التي تأمر، والمحبة التي تغفر.

لنخرج من ذواتنا: إن الناس من حولنا يناقشون إلى ما لانهاية القيمة التاريخية للأناجيل المتقاربة والإنجيل (يوحنا). إنهم يناقشون العقائد التي تأمر

بها، والديانة التي تنهض على أساسها. ولكن الخصوم يتفقون على نقطة واحدة: إن هذه النصوص تتضمن مذهباً أخلاقياً. وسواء أحببنا هذا المذهب أم كافحناه، فإن ثمة واقعاً: إنه موجود. وإن الإنسان البسيط ليتفق في ذلك مع العلامة، والمؤمن مع الملحد، واللاهوتي مع الفيلسوف، والبروتستانت مع الكاثوليكي. إن الأب (لاغرانج) Lagrange، والأستاذ (لوازي) (Loisy)، والبروتستانت (كوغول) Goguel والأستاذ (كينبير) Guignebert يقولون: «أخلاق الإنجيل». ذ.

\*\*\*

أجل، إن لهذا كله تأثيره، وهو يحمل على التردد. ولكن علينا أن نفكر عوضاً عن تتبع هذه الدفقة الأولى من الذكريات التي يبعثها اسم (الإنجيل). فإلى جانب الآيات التي تُعلم قانون المحبة والغفران اللانهائي، ألا توجد آيات تشفّ عن الحقد والثأر وهي تثير رعبنا منذ الصغر؟ وإلى جانب (السامري) الصالح ألا يوجد (المعلم) الحائق الذي يمزق خادمه؟ وخلف الإله الوديع الذي يواسي النوح، ألا نشاهد الإله القاسي؟: «يا بنات أورشليم! إبكوا على أنفسكم وأولادكم!». لقد كنا نسمع الصوت الذي يعفو. وها نحن أولاء نرى أن (لعازر)، في حضن (ابراهيم)، يرفض أن يعطي نقطة ماء للغني المحترق. كنا نقول: الحب! الرحمة! وها نحن أولاء لانجد أمامنا سوى القتام، والألم الأبدي، والدموع، وصلك الأسنان. أخلاق سامية، أليس كذلك؟ ولكن فكرنا، وقد كان مطمئناً، يغدو حائراً، مضطرباً، قلقاً.

وفي الخارج: اللبس عين اللبس. أجل، إن جميع المؤلفين ما برحوا يتحدثون عن الأخلاق الإنجيلية، ولكن سلوهم عن هذه الأخلاق وعمّا تأمر به، فنوصي أو تنهى، تجدوا أن اتفاقهم قد تلاشى: فثمة تأويلات كاثوليكية، وأخرى بروتستانتية. هنا محافظون، وهناك اشتراكيون، وثمة (جوزيف دي متر) J. De Maistre (٢٢) من ناحية، و(لامنه) (Lamenais) (٢٣) من ناحية أخرى. هناك تفسير (الجانسينية) (Jansenistes) (٢٤)، وتفسير (اليسوعيين) (٢٥). وهناك تفسير (فولتير) (٢٦) وتفسير (روسو) (J. J. Rowsseau) (٢٧). هناك تفسير (سان سيمون) (Saint - Simon) (٢٨) وتفسير (رينان) (Renan) (٢٩). وهناك عشرون تفسيراً آخر، مائة تفسير آخر.

أقول إن هذه التفسير لا يختلف بعضها عن بعض إلا بفروقات؟ فثمة من يرى أن الإنجيل يحدّد طقوساً لاختلاص من دونها. وآخر يعلن سدى الطقوس الأولى ويدعو إلى اللاتسامح، إلى الإيمان المفروض قسراً، إلى معاقبة الخطيئة بالنار. وآخر يدعو إلى احترام حرية الضمير، وإلى الوداعة اللانهائية حيال النعجة الضالة. الأول يجيز الحرب، والآخر يدينها إلى الأبد. الأول يمجّد الفقراء، ويصّب جام غضبه على الأغنياء، يدين من يجمع المال بل من يعمل للريح. أما الآخر فإنه يعترف بالثروة ويريد الحفاظ على صنوف التسلسل القديمة، ودعم النظام الاجتماعي. الأول يحتقر شؤون الجسد، ويحطّ من شأن الزواج والأمومة، ويهدم رباط الأسرة؛ والآخر يبارك الأزواج الأوفياء، والأسرة الخصب المنسجمة. الأول يتجرّد عن الاهتمامات السياسية الحسيسة، والآخر يحدّد قاعدة لممالك هذا العالم.

وبقول وجيز: يبدو (يسوع)، تارة تارة، تبع مشيئة المؤلف الذي يحدّد «أخلاق الإنجيل» على أنه إما محافظ محتك أو ثوري متحمس، حالم وديع إنساني النزعة، أو حكيم حذر النصيحة، شاعر المحبة أو رجل تفتيش قاس.

وليت هذا التنوع يقتصر على عصرنا الراهن! فلنرجع إلى العصر الأول. إننا نجد الناس كافة يعلنون انتماءهم سلفاً إلى الأخلاق الإنجيلية. بيد أن (الكاربوقراطيين)<sup>(٢١٠)</sup> كانوا باسم هذه الأخلاق يبيحون شيوعية النساء، وكان (الانكارطيون)<sup>(٢١١)</sup> يمنعون باسمها الزواج - لقد أتى (مريقيون)<sup>(٢١٢)</sup> Marcion بجرة قلم على «العهد القديم» بأسره. وحظر (ترتوليان)<sup>(٢١٣)</sup> Tertulien الزواج مرة أخرى، وكذلك الفرار من الاضطهاد والخدمة العسكرية. ورفض (أوريجين)<sup>(٢١٤)</sup> Origene الإيمان بجحيم أبدي.

لنبق في نطاق الكنيسة التي تعدّ ذاتها أرثوذكسية. ولنقارن مذاهب العصر البطولي بمذاهب أواخر القرن الرابع: أولاً: منعوا الحرب، ودعوا إلى الرهبانية، وإلى الزواج الطاهر، ألحفوا ببلاغة ناصعة على حرية الضمير. وأخذوا، غداة ذلك، يأمرّون الجندي بأن يظل جندياً، وقالوا أن الثروة خير، ويجلّوا الأسر الكثيرة العدد، وأعدموا (الدونانتييس)<sup>(٢١٥)</sup> Donatistes و(البريسيانتييس)<sup>(٢١٦)</sup>

(Priscillantistes)، وحظروا الجهر بالعبادة الوثنية تحت طائلة العقوبة بالموت. ثم جاء (البرابرة) فحدث تحول جديد: صار الأساقفة، وخوذهم تعمر رؤوسهم، يحكمون، ويقضون، ويحاربون، ويثرون. وأخذ الجمهور الذي رجع إلى المفهومات الوثنية القديمة يطالب «القدسين» بمنح زمنية ولجأ لتحقيق مطالبه إلى وسائل السحر الشعبي القديم، وهي وسائل حيادية أخلاقياً. وتلا ذلك الإقطاع..

بيد أنني أتوقف: فمنذ نهاية القرن الأول إلى أيامنا هذه، تعاقبت المذاهب الأخلاقية المسماة مسيحية، وهي متنوعة، ومتناقضة، ولكنها كانت تزداد اتفاقاً على نقطة معينة كلما ازدادت تناقضاً: وهذه النقطة هي أنها كلها تزعم، وكلها تحسب، أنها تصدر مباشرة عن الإنجيل وكل مذهب منها يفخر بادعاء أنه هو «الأخلاق الإنجيلية».

\*\*\*

إذ ذاك ندرك أن السؤال الذي كان في بادئ الأمر يبدو سدى، قد أصبح لازماً: هل توجد أخلاق إنجيلية؟ وإن كان الجواب بالإيجاب فكيف نفسّر أن الناس، بعد هذا العدد الجَمّ من القرون، لم يتوصلوا إلى الاعتراف بها، وأن صورتها مشوشة في أذهاننا، وأن عدداً كبيراً من الناس ذوي النية الطيبة يستنبطون من الإنجيل منظومات متباينة بمثل هذا التباين؟ وإن لم يكن الجواب بالإيجاب، ولم يتوافر في الكتب المقدسة سوى صيغ غامضة ومنزلة تقبل الانحناء في جميع الاتجاهات، فكيف نفهم واقع أن يكون لجملة أقوال فارغة أن تنهض بمثل ذلك الدور الكبير في تاريخ البشر؟

تبقى لحسن الحظ فرضية ثالثة تتيح لنا الإفلات من هذه الصعاب: إن الأناجيل لا تنطوي على مذهب أخلاقي واحد، بل على مذاهب شتى. إنها لاتعتنق مذهباً واحداً، بل مذاهب مختلفة بصدد ما يسمى المبادئ الأخلاقية.

وأما ما يتصل بالممارسة فإنها لاتقدم لنا نظاماً واحداً، بل نظامين.



وبقول وجيز، لئن متحت القرون والفتات من الإنجيل طائفة كبيرة من الأفكار المتعارضة، فإن ذلك لا يرجع إلى أنها قد أخطأت، بل إلى أن هذه الأفكار المتعارضة موجودة في الواقع، كلها، ضمن الكتاب المقدس. وهذا ما أود محاولة تبيانه في القسم الأول من هذه الدراسة وأنا أخصّ القسم الثاني بمسعى تفسير هذا الواقع.

\* \* \*

غير أن من الواجب قبل المباشرة بهذا المسعى (وهو يظهر الإنجيل ذائراً بقلق وعمق بدل التغافل عن ذلك) أن أتصدى لاعتراض قد يخطر ببال القارئ.

قد يقال: لماذا ندرس مذهب/ أو مذاهب الأخلاق «الإنجيلية» عوضاً عن نشدان أخلاق (يسوع) كما جاءت في الإنجيل؟ لماذا ننظر نظرة شاملة إلى جملة الأناجيل المقدسة الأربعة بينما نعرف أن جميع المفسرين قد أظهروا الفوارق العميقة التي تميز الأناجيل المتقاربة الثلاثة عن الإنجيل الرابع؟

إنني آخر من يستطيع التناضي عن الأبحاث الجميلة التي جاء بها المفسرون المعاصرون. بل الحق أنني، وأنا أتبع إلى النهاية الدروب التي اختطوها إنما أأمل أن أفسّر، في نهاية هذه الدراسة، خيبة الأمل التي تنشأ عن الأناجيل الأربعة من الناحية الأخلاقية. وهذا يكفي لإيضاح أنني لو كنت أحسبني قادراً على دراسة «أخلاق يسوع» لعمدت على الفور إلى تمييز الأناجيل المتقاربة عن إنجيل (يوحنا)، كما يفعل الناس كافة.

بيد أنني أعتقد أن ليس في مكنة أحد في الوقت الحاضر أن يملك حق النهوض بمثل تلك الدراسة.

إن اتخاذ «أخلاق يسوع» موضوع بحث وتنقيب يعدل التأكيد المسبق بأن (يسوع) قد وُجد، بالمعنى الدائع للكلمة، وأنه عاش مثلما نعيش، وتكلم، ووعظ وعلم. ولكن مثل هذا التأكيد هو على الأقل تهوّر في الحال الراهنة من أحوال العلم.

ومن الفرضيات الكثيرة التي طرحتها مشكلة (يسوع) نجد تلك التي

طرحها (ب.ل. كوشو) P. L. Couchoud إذ ينكر وجود (يسوع) تاريخياً ويرى أنه (إله) غدا بشراً. وهذه المشكلة تبدو لي على أنها تبرز سواها بجدارة الثقة إلى حد كبير. ولكن لم تحلّ جميع الصعاب فإنها هي التي تفسر، أحسن ما تفسر، العدد الأكبر من الوقائع. ولاريب في أن آخرين يعتنقون أحكاماً أخرى، ومنهم مفكرون أحرار وعلماء راسخون من طبقة الأستاذ (كينيب) والأستاذ (لوازي). وعلى ذلك فإن النقاش يظل مفتوحاً. ولكن، ريثما يحصل الاتفاق، فإن دراسة أخلاق (يسوع)، أعني (يسوع) بوصفه شخصاً تاريخياً، إنما تعدل اعتبار أن من الثابت ما لا يزال موضع بحث، ولذا فإن ذلك يعني استدبار الطرائق العلمية السليمة.

وبالمقابل، سواء أوجد (يسوع) أم لم يوجد، فثمة واقع لا يظاله الشك: إن الأناجيل الأربعة موجودة. وهي لا توجد وحسب، بل إنها تشكل كتلة واحدة، منذ قرون، في فكر البشر. وإن وحدتها حادث تاريخي، واقع سوسيولوجي لا غبار عليه: ففي هذه الكتب الأربعة (وليس في الثلاثة الأولى)، نشدت الإنسانية المسيحية منذ القرن الثاني العثور على الأخلاق التي يترتب عليها إتباعها. وما دراسة هذه الكتلة التي دعمتها العصور إلا دراسة واقع لا يستطيع امرؤ أن يرتاب في وجوده. وهذا يعني الوقوف وقفة عالم فوق أرض الحوادث. أترانا نستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة ذاتها بعض القرائن المتصلة بسرّ (يسوع)؟ إن هذا ما سنراه في القسم الثاني من هذه الدراسة. وبانتظار ذلك أرجو القارئ أن يتفضل، ولو مؤقتاً، بطرح المشكلة على نحو ما أطرحها. إن القضية لاتزيد البتة عن معرفة هل الأناجيل الأربعة تنطوي على أخلاق واحدة أم على عدد من المذاهب الأخلاقية. إننا سنحاول الحصول على الإجابة بسؤال هذه الأناجيل تارة تارة عن بعض المسائل الكبرى للأخلاق النظرية، وعن بعض المسائل الكبرى للأخلاق العملية.

## الفصل الثاني

### الأخلاق والطقوس

هل تكفي للخلاص إطاعة القوانين الأخلاقية؟ أم أن من الواجب التقيد بالطقوس للفوز بالنجاة؟

إن للمسألة أهميتها: ذلك أن قيمتها تعظم، أو لاتعظم، بحسب كفاية الأخلاق، أو لا كفايتها.

ولم يستطع (يسوع) الأناجيل تحاشي هذه المسألة. فهو يهودي. ومن المعلوم أن شريعة (موسى) ماتزال تمزج العنصر الأخلاقي بعنصر العبادة. وهي تقول: إنك لن تقتل أبداً، ولن تسيء إلى المسكين. ولكنها لاتتردد في أن تعلن كذلك: لن تطهو الماعز في لبن أمه، لن تأكل ماليس له زعنفه ولاقشر. وهي تعاقب بالموت من يلعن أباه، ولكنها تعاقب بالعقوبة ذاتها من ينتهك (السبت). إنها تأمر السارق الذي دنس بسرقة أن يتطهر بقربان. وهي كذلك تأمر الأبرص الذي دنسه البرص بأن يقدم قرباناً.

لقد وُلد (يسوع) (وأنا أعني بهذه الكلمة منذ الآن يسوع الأناجيل الأربعة) في كنف (الشريعة) الموسوية. وهو بالضرورة سيطرح مشكلة علاقات الأخلاق بالطقوس الدينية.

فكيف يحلّ هذه المشكلة؟

إننا نتوقع أن نراه يختار: فإما أن يؤيد (الشريعة) أو أن يعلن سدى

الطقوس، أو أن يستبدل، كذلك، بالطقوس القديمة طقوساً جديدة.  
بيد أن هذه التبنؤات يعوزها الصواب كلها: ذلك أن (يسوع) لم يختر  
أحد الحلول الثلاثة، بل اعتنقها جميعاً.

فهناك نصوص جلية تظهر أنه يزدري (الشرعية) ويعلن سدى الطقوس،  
وأخرى، وهي ليست بأقل وضوحاً، تبين أنه يؤيد (الشرعية)؛ وأخيراً توجد  
نصوص أخرى تبين أنه يقيم طقوساً جديدة.

## - ١ -

(يسوع) يلغي الطقوس القديمة ويعلن سدى الطقوس: ١ -  
مخالفة (السبت)، احتقار الهيكل، العماد، الصوم ٢ - تمجيد  
العنصر الأخلاقي على حساب عنصر العبادة. ٣ - لادنس إلا  
الدنس الأخلاقي.

إن من يخالف (السبت) يستحق الموت.

ولكن قد اتفق أن اجتاز (يسوع)، يوم السبت، حقول القمح وقطف  
تلاميذه وهم يسيرون بعض السنابل. فاحتج (الفريسيون)<sup>(١٧)</sup> Pharisiens  
وهم غاضبون. ولكن (يسوع) يجيبهم بكل جلاء: «السبت إنما جعل  
لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت» (مرقس ٢/٢٣) و(متى ١٢/١) و(لوقا ١/٦).

ومرة أخرى، دخل (يسوع) المجمع. كان هناك رجل يبست يده. فصار  
الناس يراقبون (المعلم) ليروا هل يجرؤ أن يشفيه في السبت. قال للرجل: «قم!».  
ثم التفت إلى الحاضرين وسألهم «هل يحلّ في السبت فعل الخير أو فعل الشر،  
تخليص نفس أو قتل؟» ولكن الجميع سكتوا...

إنه، بالإجمال، سكوت طبيعي: ذلك أن الاعتراف بإمكان فعل الخير  
انتهاك (السبت)، وهذا يعني قلب مبدأ (الشرعية) القديمة كلها رأساً على

عقب، وهو إلغاء عنصر العبادة لحساب العنصر الأخلاقي، والكفّ عن اعتناق اليهودية.

وعلى الرغم من ذلك فإن (يسوع) نظر حوله وهو غضبان حزناً من غلظ قلوبهم وقال للرجل: «مدّ يدك. فمدها فعادت يده صحيحة كالأخرى. (مرقس ١/٣) و(متى ٩/١٢) و(لوقا ٦/٦).

كان معبد (أورشليم) مقدساً في نظر اليهود. وكان السامريون الذين يعبدون الله في جبلهم منسقين. ولكن (يسوع) وهو جالس على حافة البئر قال للمرأة السامرية: «يا امرأة. صدقيني. إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم، تسجدون للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم. لأن الخلاص هو من اليهود. ولكن تأتي الساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق» (يوحنا ٤/٢١).

العماد بالماء حميد في نظر (يوحنا المعمدان)<sup>(٢١٨)</sup> Jean le Baptiste وأتباعه. ولكن الإنجيل يجعل (يوحنا المعمدان) ذاته يقول إن هذا العماد موقوت. وإن العماد الحقيقي سيكون بالروح. «أنا عمدتكم بالماء. وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس» (مرقس ٨/١) و(متى ١١/٣) و(لوقا ٣/١٦).

الصوم أمر محمود يمارسه الأنقياء من اليهود. ولكن (يسوع) لم يصم. وقد جاءه (يوحنا المعمدان) وهو لا يأكل ولا يشرب. أما (ابن الإنسان) فقد جاء وهو «يأكل ويشرب» (متى ٩/١١). فال(شريعة) القديمة التي تأمر بالصوم لاتصلح إلا للزق القديم. أما في الزق الجديد فتوضع «الخمير الجديدة» (متى ١٧/٩) و(مرقس ٩/٢) و(لوقا ٥/١٧).

\*\*\*

هذه الخمير الجديدة هي الأخلاق. وعلى قدر إعلان (يسوع) احتقاره الطقوس كانت عنايته باقتطاف العنصر الأخلاقي من (الشريعة) وتطهيره من الممارسات العابثة وتقديمه نقياً للناس.

«ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرأؤون، لأنكم تعشرون بالنعنع والشبث والكمثون، وتركتهم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان» (متى ٢٣/٢٣).

«أنت تعرف الوصايا: لاتزن. لاتقتل. لاتسرق. لاتشهد بالزور. لاتسلب. أكرم أباك وأمك». (مرقس ١٠/١٩) و(متى ١٩/١٨) و(لوقا ١٨/٢٠).

«سأله واحد منهم وهو ناموسي ليجزبه قائلاً: يا معلم، أية وصية هي العظمى في الناموس. فقال له (يسوع): تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها. تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء» (متى ٢٢/٣٥) و(مرقس ١٢/٢٨) و(لوقا ١٠/٢٧).

«فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم: لأن هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ١٢/٧).

«وصية جديدة: أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضاً» (يوحنا ١٣/٣٤).

وهذا الرجحان للأخلاق، الأخلاق المستقلة عن الطقوس، هو الذي يتجلى أحسن ما يتجلى في أمثولة (السامري) الصالح التي يكثر أنصار الأخلاق العلمانية من ذكرها اليوم. «إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا فوقع بين لصوص فعزّوه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت. فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاوي أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله. ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحن فتقدم وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به. وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له: إعتن به». وباسم المبدأ الكبير القائل بأن يحب الإنسان الإنسان يحمل (يسوع) (فقيهه الشرعية) على أن يعلن ويصرح، هو ذاته، بأن هذا (السامري)، هذا الكائن الحقير القبيح من الناحية الدينية، هو الذي كان «القريب» حقاً بالنسبة لأخيه.

إنه وحده قد «صنع معه الرحمة». فقال (يسوع) «للاموسى»: «اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا» (لوقا ١٠/٣٠).

\*\*\*

أضف إلى ذلك إعراب (يسوع) بوضوح عن الفكرة التي تقضي على الطقوس وتنص على أن لادنس سوى الدنس الأخلاقي: وإذن، لا رجس، فلا طقوس طهارة مادية.

أكل بعض التلاميذ خبزاً بأيدي دنسة، أي غير مغسولة. فدهش الفريسيون وثاروا نائرتهم. ولكن (يسوع) «دعا كل الجمع وقال لهم: اسمعوا مني كلكم وافهموا. ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه. لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان» (مرقس ١/٧ - ١٦). ولما فوجئ تلاميذه وسألوه أجابهم: «أفأنتم أيضاً هكذا غير فاهمين؟ أما تفهمون أن كل ما يدخل الإنسان من خارج لا يقدر أن ينجسه لأنه لا يدخل إلى قلبه بل إلى الجوف ثم يخرج إلى الحلاء. وذلك يطهر كل الأطعمة. ثم قال: إن الذي يخرج من الإنسان ذلك ينجس الإنسان لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة: زنا، فسق، قتل، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهر، عين شريرة، تجديف، كبرياء، جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان» (مرقس ١/٧ - ٢٣) و(متى ١٥/١٦).

وفي (لوقا) تظهر القصة على نحو أوضح. ذلك أن (يسوع) نفسه هو الذي يجلس إلى المائدة ويخاطب مضيفه الفريسي بقوله: «أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة وأما باطنكم فملؤه اختطافاً وخبثاً. يا أغبياء! أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضاً؟ بل أعطوا ما عندكم صدقة، فهو ذا كل شيء يكون نقياً لكم» (لوقا ١١/٣٩).

إذن، افعلوا الخير وكل شيء سيكون نقياً لكم. كونوا رحماء، محسنين، وفي وسعكم الهزء من الأدناس المادية وطقوس الطهارة. وهذا يعدل قولنا إن روح (الشرعية) القديمة الأولى هي التي أدينت. والحق أن (يسوع) يقول، في

جو المنطق، «كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا: ومن ذلك الوقت يبشّر بملكوت الله» (لوقا ١٦/١٦).

\* \* \*

لقد جاز لـ (رينان) أن يكتب بصدد هذه النصوص كافة: «لم يبق (يسوع) يهودياً.. فقد أسس ديانة الإنسانية، لا على الدم، بل على القلب. وقد تجاوز (موسى)، ولم يبق (للهيكل) ما يسوّغ بقاءه»<sup>(١)</sup>. إن المذهب الذي رأينا قيامه يلغي، فجأة، الطقوس كلها ويعلن باعتزاز حقوق الأخلاق المتحلية بالسيادة. ولكن إليكم نصوصاً أخرى تقدم لوناً آخر.

— ٢ —

يحافظ (يسوع) على الطقوس القديمة ويعلن أن (الناموس) لايمسّ: ١ - نصوص تؤيد السبت أو الصوم أو الهيكل والعشار والبرص. ٢ - حتى تزول السماء والأرض لايفنى حرف ولانقطة من (الناموس).

أجل، لقد خالف (يسوع) السبت. ولكنه لم يتذرع فقط بالسبب الأخلاقي الكبير الذي ألمعنا إليه، ألا وهو سدى هذا الطقس الديني. بل استند إلى سوابق أشار إليها «العهد القديم»: «أما قرأتم قط ما فعله (داود) حين احتاج وجاع؟ أو ما قرأتم في التوراة؟» (مرقس ٢/٢٥) و(متى ١٢/٣ - ٥) و(لوقا ٤/٤/٣). ويبدو أنه قصد من ذلك أن من الواجب أن تظل المخالفة أمراً استثنائياً. وفي الواقع، فقد اعتاد هو ذاته أن يذهب في السبت إلى المجمع (لوقا ٤/١٦). وقد تبعته نساء كنّ أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وُضع جسده وأعددن حنوطاً وأطياباً وفي السبت استرحن حسب الوصية» (لوقا ٢٣/٥٦).

أجل، يعلن (يسوع) أنه يأتي يوم لن يُعبد فيه الله على الجبل أو (أورشليم) ويقول: لقد جاء ذاك اليوم. ولكننا نجده في إنجيل (يوحنا)<sup>(١٩)</sup> يصرح بوصفه يهودياً صالحاً: «أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل»



(يوحنا ٢٠/١٨). وعندما صعد إلى السماء رجع تلاميذه إلى أورشليم «وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون ويباركون الله» (لوقا ٢٤/٥٢).

أجل، إن (يسوع) يسخر من الفريسيين الذين «يعشرون النعنع والسذاب وكل بقل» ويهملون الحق ومحبة الله. ولكنه سرعان ما يردف قائلاً: «كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك» (لوقا ١١/٤٢) و(متى ٢٣/٢٣). والظاهر أنه كان من الواجب الهزء من مراعاة هذه الدقائق: بيد أنها فرض.

صحيح أن (يسوع) يعلن بوضوح أن الخطيئة الأخلاقية وحدها رجس، وأن شيئاً مما يدخل في الإنسان لا يدنس الإنسان. ولكنه عندما شفى مريضاً بالبرص قال له: «اذهب أر نفسك للكاهن وقدم عن تطهيرك ما أمرك به (موسى) شهادة لهم» (مرقس ١/٤٤) و(متى ٤/٨). و(لوقا ٥/١٤).

\*\*\*

هكذا تأخذ اليد اليسرى ما تقدمه اليد اليمنى.

أترانا نستطيع اعتبار هذه التنازلات لقبول (الشريعة) القديمة مجرد تنازلات تفصيلية؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. فتلک (الشريعة) كلها هي التي يريد (يسوع) مراعاتها. بل إنه يعلن أنها ثابتة لا تتغير.

إنه يهاجم الفريسيين المتربعين على عرش (موسى) وهم «يجزمون أحمالاً ثقيلة»، أي يعلمون إطاعة دقيقة لحرف (الناموس). ولكن ماذا يأخذ عليهم؟ يأخذ عليهم أمرهم بمرعاة توافه وتفصيل سدى؟ كلا. إنه يأخذ عليهم أنهم يقولون ولا يفعلون. ولكن ما يقولونه، أي هذا التعليم الذي نحسب أنه يُدينه، إنما ينبغي التقيد به: «كل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه» (متى ٢٣/٣). والرأي ذاته في «الموعظة على الجبل»: «لاتظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل».

ويبلغ التناقض مع ما ذكرنا من قبل مبلغاً من الشدة جعل المفسرين من جميع الطوائف يبذلون أقصى براعاتهم في تفسير كلمة «أكمل» على نحو يجعلها على عكس دلالتها. ولكنه - فيما يبدو - كان يريد سلفاً أن يجعل هذه

التفسيرات محالاً إذ يردف (يسوع) قائلاً: «إني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد ونقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل».

وعلى هذا فإن الناموس بأسره، بآلاف دقائقه وطقوسه التي لا تحصى، هو المقصود. ورب قائل إن ثمة بالبداهة استثناءً للتفصيلات الصغيرة، والوصايا البسيطة؟ ولكن (يسوع) يمضي بحزم فيقول:

«فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يُدعى أصغر في ملكوت السموات. وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السموات» (متى ١٧/٥ - ١٩).

ونجد هذا التأكيد الرسمي ذاته في إنجيل (لوقا): «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (لوقا ١٦/١٧).

\* \* \*

مذهب أول يفصل الأخلاق عن الطقوس. ومذهب ثان ليس بأقل جلاءً وقوة تعبير يعيدها إليها. الأول كان يقتل (الناموس) القديم، والآخر يعلي من شأنه إلى الأبد، وإلى الأبد يطلب من الإنسان التقيد بالأحكام اليهودية العتيقة. ولما كان هذا التناقض غير كافٍ فإن مذهباً ثالثاً ينشد طقوساً أيضاً، ولكنها طقوس جديدة، طقوس مسيحية خالصة.

— ٣ —

(يسوع) يقيم طقوساً جديدة: ١ - العماد شرط الخلاص. ٢ -  
الاوخارستيا شرط الخلاص. خاتمة.

ليس العماد، بالمعنى الدقيق، طقساً جديداً في العالم اليهودي. والإنجيل ذاته يبرز أهميته بالكلام على تعميد (يوحنا) (يسوع). ولكن الجديد في الأمر هو تأكيد أن العماد بالماء شرط ضروري للخلاص، وأن الأخلاق، من دون

الماء، سدى. وعلى الرغم من ذلك فقد مضى (يسوع) إلى هذا المدى.

فقد رأينا أنه يبشّر بمذهب آخر في الأناجيل المتقاربة. إنه يدع (يوحنا) يعتمد بالماء: وأما هو فيعمد بالروح. ولكننا نقرأ في الإنجيل الرابع (وهو ذاته الإنجيل الذي يحوي نظرية العبادة بالروح، العبادة الشهيرة) نقرأ بصراحة إن الماء ضروري بمثل ضرورة الروح: «الحق أقول لك أن كل واحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يوحنا ٥/٣).

وفي هذا الإنجيل أن (يسوع) جاء إلى (بطرس) ليغسل رجله فاحتج (بطرس) قائلاً: «يا سيد أنت تغسل رجلي»، فأجاب (يسوع) وقال له: «لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع. ولكنك ستفهم فيما بعد». ولما احتج (بطرس) مرة أخرى بقوله: «لن تغسل رجلي أبداً» أجابه (يسوع): «إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب» (يوحنا ٦/١٣). وعلى هذا فإن خلاص (بطرس) رهن بصبّ الماء.

ولكن الطقس الجديد الشهير بين سائر الطقوس هو طقس الأوخارستيا وقد تناقش الباحثون في نصوص الأناجيل المتقاربة المتصلة بهذا الطقس، وفي وسعهم الاستمرار في مناقشات لانتهائية. ولكن نص إنجيل (يوحنا)، بالمقابل، يظل متسماً بجلاء مذهل على الرغم من أي جهد يبذل بغية حصر دلالاته بقيمة رمزية محضة: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم». ويجادل اليهود بعضهم بعضاً قائلين: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناكل؟» فيجيبهم (يسوع) قائلاً: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية» (وأنا أقيمه في اليوم الآخر). لأن جسدي مأكّل حق، ودمي مشرب حق» (يوحنا ٥١/٦).

ومن العبث الاعتراض لالغاء المعنى الجملي لهذه الأقوال بأن (يسوع) يقول فيما بعد: «الكلام الذي أكلتمكم به هو روح وحياة»، فإن الاعتراض لاشأو له

إلا إذا كان هذا هو التناقض الوحيد في الإنجيل. ومن الجلي أننا في معرض بيان كثرة هذه التناقضات. ولئن شاء لاهوتيون اضطروا للفصل في هذه الصيغ المتعارضة للتضحية بالآيات (٥١ ، ٥٥)، أو أنهم، على العكس، ضحوا بالآية (٦٣)، فتلك قضيتهم. أما العلم فإنه لا يستطيع أن يضحي بأي نص. ومن الواجب الحفاظ على الآية (٦٣) بمعناها الكامل: وهي تتصل بعشرين نص آخر تدعو في إنجيل (يوحنا) إلى العبادة بالروح وبالحقيقة. والآيات الأخرى تتصل بنصوص غسل الأرجل والعماد بالماء. وهي تصرح بدقة تامة بتناول جسد (يسوع)، وبشرب دمه بالمعنى الدقيق لهذه الكلمات، هي شرط الخلاص: مَنْ يأكل ويشرب يخلص، ومن لا يأكل ولا يشرب لن تكون له حياة أبداً.

ما هو مصير الأخلاق بإزاء هذه النصوص؟ إنها تنحدر إلى منزلة ثانوية كانت نصوص أخرى أنقذتها من الانحدار إليها. ذلك أن من العبث أن يتحلى الإنسان بقدر أعظم من الفضيلة، ومن العبث أن يرمى الأمرين الأساسيين: أحب الله، وأحب قريبك. فإنه إذا لم يولد ولادة جديدة بالماء، ولم يأكل الجسد، لن يحيا حياة أبدية<sup>(٢٠)</sup>.

\* \* \*

نخلص إذن في نطاق هذه المسألة الأساسية المتعلقة بمنزلة القيمة المطلقة للأخلاق إلى أجوبة ثلاثة:

١ - إن (الشرعية) القديمة قد ألغيت، وإن الشريعة الجديدة تعلن سيادة الأخلاق وسدى الطقوس.

٢ - إن (الشرعية) القديمة ماتزال قائمة، وإن أبسط عبادة تأمر بها ماتزال تحتفظ بقيمتها.

٣ - إن (الشرعية) الجديدة ذاتها تقيم طقوساً لا يستطيع الإنسان الفاضل أن ينجو من دونها.

## الفصل الثالث

### الأخلاق والإيمان

يقول الإنجيل في كل لحظة: آمنوا.

ولكن، أولاً، بِمَ يجب الإيمان؟ أيكفي الإيمان بالإله الآب؟ أم أن من الضروري الإيمان كذلك بـ (يسوع)؟ إن اليهودي التقى المحسن سيخلص أو يهلك بحسب إجابته عن هذا السؤال.

مشكلة ثانية: أيكفي الإيمان بالله وبـ (يسوع - المسيح) لتأمين الخلاص؟ أم أن الإيمان دون الفضيلة لأشأن له؟ وبحسب حل هذه المشكلة تحتل الأخلاق في نظر الناس المنزلة الثانية أو الأولى.

ومرة أخرى، نجد الإنجيل يقدم لنا بصدد هاتين النقطتين أجوبة متناقضة.

- ١ -

مشكلة السبب لدى اليهود: ١ - إن اليهودي التقى قد ينجو بمجرد الإيمان بالآب. ٢ - إن أي يهودي لا يؤمن بـ (يسوع - المسيح) لا يمكن أن ينجو.

أما أن يكون من الواجب الإيمان بالله، فذاك مما لا ريب فيه. وأن الوثني،

بوصفه وثنياً، ملعون. ويقول (يسوع) عن المسيحي المتمرد على الكنيسة: «فليكن عندك كالوثني والعشار» (متى ١٨/١٧).

ولكن أيستطيع اليهودي التقى أن يحظى بالحياة الأبدية إذا كان فاضلاً يؤمن بالآب. نعم، تجيب بوضوح نصوص كثيرة في الأناجيل.

أولاً، يلخص (يسوع) الأمرين الأساسيين: أحب الله وأحب قريبك، ويذكر بالحرف الواحد جملتين من «العهد القديم» مألوفتين لدى اليهود كافة؛ وهو يعد بخلص كل من يرعى هذين الأمرين الكبيرين: «افعل هذا فتحياً» (لوقا ١٠/٢٨).

نص آخر: يعلن (يسوع) إنه لم يأت ليدعو أبراراً، بل خطاة (إلى التوبة)، (مرقس ١٧/٢) و(متى ١٢/٩). ومن المحال بالطبع افتراض أنه يفضل الخطاة لأنهم خطاة. ولئن اتجه إليهم، وليس إلى الأبرار، فذلك بسائق أن الأصحاء، كما يقول هو نفسه، لا يحتاجون إلى طبيب. وعلى هذا فثمة يهود يمكن خلاصهم حتى دون الإيمان بـ (يسوع - المسيح).

والدليل على أن (يسوع) يمضي إلى هذا المدى هو أنه يبين لنا أن المختارين يتكثرون في ملكوت السموات «مع إبراهيم واسحق ويعقوب» (متى ٨/١١). وسيكون لهؤلاء اليهود الذين ماتوا قبل ظهور (المسيح) منزلة الصدارة بين الأبرار.

وإن حكاية (لعازر) الشهيرة تبين لنا في إنجيل (لوقا) أن الملائكة «حملته إلى حضن إبراهيم» (لوقا ١٦/٢٢). ولا شيء يوحي بأن (لعازر) قد عرف (المسيح): ومع ذلك فقد نجا. زد على ذلك أن الغني المدان عندما فكر باخوانه وسأل (إبراهيم) أن ينذرهم لثلاثين يوماً إلى الجحيم أجاب (إبراهيم): «إن لهم موسى والأنبياء فليصغوا إليهم!». إنها جملة جافة، ولكنها واضحة: يكفي لاجتناب الجحيم إطاعة (موسى) والأنبياء. وبعبارة أخرى، إن الإيمان بالآب، مقروناً بمراعاة (الشريعة)، يتيح لليهودي أن يفوز بالخلص.

\*\*\*

ولكن أترانا نطلب المذهب المضاد؟

إليكم القصة الشهيرة للشاب الغني الذي جاء يتساءل عما ينبغي أن يفعل لينال الحياة الأبدية. لقد آمن بالله، وتقيّد بأوامر (الشرعية) القديمة كلها: ولكنه لن يدخل الملكوت لأنه لم يطع الأمر الجديد.

وإليكم المقاطع الشهيرة من «الموعظة على الجبل» وفيها تُصَحِّح (الشرعية) القديمة أو نجد ما يضادها: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً.. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم... الخ» (متى ٣٨/٥ وما بعد). ولما كانت (الشرعية) القديمة قاسية وناقصة على هذا النحو فقد اتضح بجلاء أنها لاتقدر على تأمين خلاص اليهود.

ولكن ثمة ما هو أجلى! ففي الإنجيل الرابع يعلن (يسوع)، بيروء، أن اليهود لم يعرفوا البتة الإله الآب. أما هو، (يسوع)، فإنه وحده يعرفه. وهو وحده يعرف الناس به، وإن «مَن سبقوه»، أي (موسى) وسواه، لايقودون البشر إلى (الملكوت)، بل إلى الهلاك.

إن تناقض هذه النصوص وما جاء في الأناجيل المتقاربة (بله تناقض مقاطع من الإنجيل الرابع) يبلغ من الشدة مبلغاً يحتمل على التساؤل أولاً عما إذا كنا نجيد القراءة. ولكن الأقوال خالية من كل لبس.

يقول (يسوع) لليهود: تقولون إن أبي إلهكم «ولستم تعرفونه» (يوحنا ٨/٥٥). «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك. أما أنا فعرفتك» (يوحنا ١٧/٢٥). «الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه» (يوحنا ٧/٢٩). «لستم تعرفونني أنا ولا أبي: لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يوحنا ٨/١٩). ومما يشعر بالمفاجأة أن نجد جملة من المعين ذاته تضل في إنجيل (متى): «ليس أحد يعرف الابن إلا الآب. ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومَن أراد الابن أن يعلن له» (متى ١١/٢٧).

وعبثاً يعترض اليهود بالاستناد إلى (العهد القديم) بأن «الله معروف في اليهودية» وأن (موسى) رآه وكلمه، فإن (يسوع) يجيب سلفاً: والآب نفسه

الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط، ولا أبصرتُم هيئته». وكذلك «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خير» (يوحنا ٥/٣٧ و ١٨/١).

إذن، إن صوت (موسى) ليس صوت الله. أترأه على الأقل صوتاً حكيماً يهدي الناس إلى الصراط السوي؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. يقول (يسوع) في أمثلة الراعي الصالح حرفياً: «جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص» (يوحنا ١٠/٨). الجميع، إذن: (إيليا) و(موسى). وقد أصاب الأستاذ (دولافوس) Delafosse الذي لفت الانتباه إلى هذه النصوص كلها وخلص إلى القول: «إن مسيح إنجيل يوحنا يرفض العهد القديم»، وإنه يرفض (موسى) والأنبياء»<sup>(٢)</sup>. وفي الواقع، إن الآيات التي ذكرناها، آخر ما ذكرنا، آيات واضحة لا لبس فيها.

ولكن الإنجيل يقدم في الحق جوابين متناقضين بصدد مسألة خلاص اليهود: الجواب الأول: من يؤمن بالآب، ويستمع إلى (موسى) والأنبياء يستمع إلى نصحاء صالحين يقودونه إلى الملكوت. والجواب الآخر: إن أحداً لا يستطيع الإيمان بالآب دون الإيمان بالمسيح، ومن يستمع إلى «مَن سبقوا (يسوع)» يستمع إلى سراق ولصوص يقودونه إلى الهلاك.

## — ٢ —

الخلاص والأخلاق والإيمان: ١ - مذهب أول: الأخلاق هي العنصر الرئيس. فمن دون فضيلة لا يوجد خلاص ولا إيمان. وبالمقابل، الإحسان يكفي لفتح أبواب السماء. ٢ - مذهب آخر: الإيمان هو العنصر الرئيس: الإيمان يكفي لخلاصنا. والعمل الصالح لاشأو له إلا بالإضافة إلى الإيمان. الإيمان الناشئ في قلب دنس يمحو الخطايا. لا خلاص دون إيمان.

لنمض إلى المذهب الثاني: يجب الإيمان بالله وب (يسوع - المسيح)



وسرعان ما يُطرح السؤال الآتي: أيكفي الإيمان لتأمين الخلاص؟ بل أترأه أمراً لاغنى عنه لأجل الخلاص؟

كلا. تجيب نصوص جلية الجلاء كله. ليس الإيمان دون الفضيلة خواءاً وحسب، بل إن الفضيلة هي العنصر الرئيس. وإنما يجب الحكم على فضيلة المرء تبع إيمانه. وإن فضيلته هي التي ستفتح القلب للكلام الإلهي. إن الإحسان هو الذي يستطيع وحده أن يفتح أبواب الملكوت.

البراهين؟ - «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات» (متى ٢١/٧) و(لوقا ٤٦/٦).

ثم إن من العبث أن يؤمن إنسان به (يسوع) ويبلغ من إيمانه أن يتنبأ باسمه وأن يحدث عجائب باسمه: فإذا فعل شراً لم يعترف به (يسوع) خادماً له: «كثيرون سيقولون في ذلك اليوم يا رب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذٍ أصرح لهم إنني لم أعرفكم قط. إذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (متى ٢٢/٧).

ذلك أن الإيمان من دون الفضيلة ليس شيئاً. وليس المستقيم من يسمع النطق، بل الذي يسمع الكلمة ويقبلها «ويثمر» (مرقس ٢٠/٤) و(متى ١٣/٢٣) و(لوقا ١٥/٨). إن من يسمع «ويعمل» يبني بيته فوق الصخر. «وأما الذي يسمع ولا يعمل فيشبه إنساناً بنى بيته على الأرض دون أساس فصدمه النهر فسقط حالاً وكان خراب ذلك البيت عظيماً» (لوقا ٤٧/٦).

\*\*\*

إذن، لاخلاص دون فضيلة. وأكثر من ذلك: لا إيمان دونها.

هناك أنبياء يأتون في ثوب الحملان ولكنهم في الحق ذئاب مفترسة. فكيف نعرف أنهم بلا إيمان حقيقي؟ - «من ثمارهم تعرفونهم» بأفعالهم الصالحة أو الطالحة.

وعلى الرغم من جرأة هذه الفكرة فإنها واضحة كل الوضوح: «من

ثمارهم تعرفونهم. هل يجنون من الشوك عنباً، أو من الحسك تيناً؟» وكذلك: «هكذا كل شجرة جيدة تصنع ثماراً جيدة. وأما الشجرة الرديئة فتصنع ثماراً رديئة. لاتقدر شجرة جيدة أن تصنع ثماراً ردية، ولاشجرة ردية أن تصنع ثماراً جيدة... فإذا من ثمارهم تعرفونهم» (متى ١٦/٧ ومايلي) و(لوقا ٤٣/٦).

إذن، إذا أردنا أن نحكم بإيمان امرئ وجب أن ننظر إلى فعالة: فإذا كان فضلاً كان إيمانه جيداً. وقد حاول المفسرون الكاثوليكيون عبثاً أن يستخدموا كل براعتهم للتعتيم على معنى هذه الصيغ<sup>(٣)</sup> التي تثير انزعاجهم ولكنها تظل جلية واضحة وهي تظهر بمثل ذاك الوضوح والجلء في الإنجيل الرابع: إن المحبة هي قوام المسيحي: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعض لبعض» (يوحنا ٣٥/١٣).

إذا لم تكن الفضيلة في قلب امرئ امتنع الإيمان عن قلبه. وهذا ما نجده جلياً في أمثلة الزارع. إن كلام الله يسقط كما تسقط البذرة الصالحة. ولكن جميع الناس لا يفهمونه على نحو سواء. فبعضهم يلقونه بفرح ولكن هموم الحياة وخيبة الآمال فيها سرعان ما تخنقه لديهم. وإنما يفيد من تلقي كلام الله أولئك الذين، وهدمهم، كما جاء في إنجيل (لوقا)، «يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح» (لوقا ١٥/٨). ويقول آخر: إن الإيمان لا يمكن أن يولد إلا في نفس فاضلة.

ويلحف الإنجيل الرابع على هذه الفكرة. إن (النور) قد جاء إلى العالم. ولكن الناس أحبوا الظلمة ورجحوا جانبها على (النور). لماذا؟ «لأن أعمالهم كانت شريرة»؟ «لأن كل من يعمل السيئات يبغض (النور) ولايأتي إلى (النور) لئلا تُؤبَّخ أعماله» (يوحنا ١٩/٣).

\*\*\*

أترى الفضيلة، وهي تكفل الإيمان، تبلغ من الشأو ما يجعلها تحقق خلاصنا وحدها من دون الإيمان؟

إن هناك نصين يمضيان إلى هذا المدى.

ففي «الموعظة على الجبل» يقول (يسوع): «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ١٢/٧). وهذه الصيغة، كما نرى، لاتلمع إلى أي إيمان. فهي، كما نقول بلغة اليوم، علمانية وإنسانية تماماً. فإذا فهمناها حرفياً عرفنا أن كل إنسان فاضل سيخلص بفضيلته وحدها.

النص الثاني: أقوال (يسوع) يوم القيامة الكبرى. وعندما جعل الناجين عن يمينه لم يقل لهم: تعالوا، فقد آمنتم... بل قال لهم: تعالوا، لأنني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني. كنت غريباً فأويتموني.. ولكن المختارين يدهشون ويقولون: «يا رب، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، وعطشان فسقيناك، ومتى رأيناك غريباً فأويناك؟» فأجابهم (يسوع): «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (متى ٢٥/٣٥ وما بعد).

ماذا تعني في هذا المجال دهشة المختارين؟ إنها تدل على أن كثيرين منهم كانوا بلا ريب صالحين وطيبين دون أن يسمعوا كلام (المسيح)، ومن ثم، دون أن يفكروا لحظة واحدة في نجاته في إهاب أشخاص الفقراء. فقد كانوا صالحين وحسب. وبما أن المحبة هي الأساس فإنهم سيمرون عن يمين الحاكم (يوم القيامة) ويدخلون الملكوت.

ذاكم هو المذهب الأول الذي يضع الأخلاق فوق كل شيء.

\*\*\*

واليك المذهب الآخر.

إن الإيمان وحده يكفل الخلاص. وإن صيغة: «اذهب، إيمانك أنقذك» كثيرة التكرار في الأناجيل المتقاربة. صحيح أنها تنطبق على مرضى ينشدون الشفاء، وأن من الجائز حقاً قولنا إن هذه المعجزات لا تنطوي على رموز. ولكن في خاتمة إنجيل (مرقس) يتضح بدقة أن الإيمان، مضافاً إليه العماد، يكفل الخلاص، «من آمن واعتمد خلص» (مرقس ١٦/١٦) وفي الإنجيل الرابع عدد لايحصى من الصيغ الدالة على كفاية الإيمان وحده:

«الذي يؤمن به لا يبدن» (يوحنا ١٨/٣).

«الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية» (يوحنا ٣/٣٦).

«الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» (يوحنا ٦/٤٧).

«من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يوحنا ١١/٢٥ - ٢٦).

إذن، الإيمان ينقذ. وقد يقال: شريطة إضافة الفضيلة؟ شريطة إنجاز الأعمال التي يريدها الآب؟ كلا. إن العمل الذي يريده الآب هو الإيمان ذاته. «فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب (يسوع) وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله» (يوحنا ٦/٢٨).

وعلى الرغم من ذلك إذا استطاع صانع عجائب أن يصنع معجزات باسم (يسوع) وهو يرفض إتباع (يسوع) فهل يكفي إيمانه؟ ألا ينطبق عليه حكم الآية التي ذكرناها قبل هنيهة: «أبدأ إنني لم أعرفكم؟» كلا. جاء (يوحنا) قائلاً لـ (يسوع): «يا معلم رأينا واحداً يخرج شياطين باسمك وهو ليس يتبعنا. فمنعناه لأنه ليس يتبعنا. فقال (يسوع): لا تمنعوه. لأنه ليس أحد يصنع قوة باسمي ويستطيع سريعاً أن يقول علي شراً» (مرقس ٩/٣٨). إذن، إن من يبرهن على إيمانه بمعجزة لا يستطيع أن يسيء صنفاً. وقد كان المذهب الأول يعلن بكل وضوح أن كثيرين، على الرغم من أنهم يصنعون معجزات باسم (يسوع)، سيطردون من الملكوت. والمذهب الثاني يعلن أن من يصنع مثل هذه المعجزات لا يمكن أن يقول على (المسيح) شراً.

تناقض ثان: إن صيغة الحكم الأخير، كما قرأناها قبل قليل، كانت تظهر أن كل من يسعف مسكيناً أو جائعاً أو مريضاً يختط لنفسه سبيلاً للملكوت. وتلكم كانت القيمة المطلقة للمحبة المنطلقة من الأخلاق. ولكن ها هو ذا (يسوع) يقول لتلاميذه: «من سقاكم كأس ماء باسمي لأنكم المسيح فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره» (مرقس ٩/٤١) و(متى ١٠/٤٢).

والفكرة تعارض كل المعارضة تلك التي ينطوي عليها الحكم. إذ نجد في الحكم جدارة الإنسان البر الذي أسعف طفلاً أو ضعيفاً من حيث أنه طفل أو ضعيف. وهنا، على العكس، يلحف (يسوع)، بما يشبه الثاقل، على أن الإحسان لا ينفع إلا إذا صُنِعَ باسم (المسيح). إن القربان ذاته، من دون إيمان، أي الإحسان الإنساني المحض، لن يكون له شأو. والإحسان لن يثاب إلا إذا كان عملاً من أعمال الإيمان.

تناقض ثالث: هناك نصوص دقيقة تخبر أن (نور) الإيمان لا ينفذ إلا إلى القلوب الطاهرة وأن لا بد للإنسان من أن يكون صالحاً حتى يؤمن. ونصوص أخرى تقول، على العكس، إن (يسوع) إنما جاء للخطاة بوجه خاص. إنه طبيب. وهو يعالج المرضى والعشارين والبغايا. ولذا فإن الإيمان ينشأ في القلب الدنس لهؤلاء الخطاة والخطاطات.

وهو يولد في الواقع ويمحو خطاياهم. جاء كثيرون بمفلوج للمعلم فقال له (يسوع) عندما «رأى إيمانهم» «يا بني مغفورة لك خطاياك» (مرقس ٥/٢) و(متى ٢/٩) و(متى ٢/٩) و(لوقا ٥/٢٠). و«آمنت امرأة خاطئة (بيسوع) وجاءت إليه متوسلة بسذاجة فأسرع (يسوع) إلى غفران خطاياها وقال لها: «إيمانك قد خلصك، اذهبي بسلام» (لوقا ٥٠/٧).

لنظن جيداً إلى أن المفلوج والمرأة الخاطئة كليهما لم يعلننا توبتهما. ولكنهما كانا يؤمنان وحسب: وقد محا الإيمان، وهو الأساس، خطاياهما.

وأخيراً، إلى جانب النصوص التي توحى بأن المحبة وحدها قد تكفل الخلاص نجد نصوصاً أخرى تعارضها وتقرر، على العكس، أن من لا يؤمن سيكون مداناً سلفاً.

«من لم يؤمن يُدن» (مرقس ١٦/١٦).

«الذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يوحنا ٣/٣)

«الذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يوحنا ٣/٣٦).

«إن لم تؤمنوا أنني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يوحنا ٨/٢٤).  
فالإيمان ليس بكافٍ وحسب لتأمين الخلاص، بل ليس خارج الإيمان  
خلاص.

\* \* \*

يتضح إذن، بوجه الإجمال، أن ثمة مذهبين: أحدهما لا يقتضي للخلاص إلا أن يتقيد الإنسان بـ (الشريعة) القديمة ويتيح لليهود ولوج الملكوت. والآخر يستلزم الإيمان بـ (يسوع) ويطرد اليهود المؤمنين بـ (الشريعة) وحدها. المذهب الأول يعتبر الأخلاق العنصر الرئيس ويعلن أن لاقيمة للإيمان من دون الفضيلة ويمضي إلى القول إن (الشريعة) الجديدة ترجع كلها إلى واجب أن يحب الإنسان القريب. والمذهب الآخر يعتبر الإيمان العنصر الرئيس ويعلن أنه يكفي لتأمين الخلاص وأن أحداً لن يفوز ببلوغ الملكوت دون إيمان.

## الفصل الرابع

### المسؤولية والحرية

هل الإنسان حرّ؟

إن الإنجيل يبين لنا في كل لحظة أن الإنسان مسؤول عن أعماله: فإن آمن وصنع خيراً يثاب؛ وإن صنع شراً ولم يؤمن يعاقب. فهل هو حرّ في أن يؤمن أو لا يؤمن؟

نعم. كلا.

إن نصوصاً واضحة متسقة تقول لنا: إن الناس كافة مدعوون، ولكن أحداً منهم ليس مكرهاً. وأنهم جميعاً سيلقون (النور). ومن قد لا يلقونه لن يكونوا مذنبين بأخطائهم.

ونصوص ليست أقل وضوحاً واتساقاً تجيب بأن الناس كافة لن يلقوا (النور)، وأن إرادتهم لاتكفي لضمان خلاصهم أو لاضمانه. وسيكون فريق من الناس وحسب هم المختارون، وآخرون سيكونون مرفوضين سلفاً، ولن ينجم عن واقع أنهم ليسوا أحراراً تخفيف مسؤوليتهم: بل هناك في نظر الله مسؤوليات جمعية.

الإنسان حرّ، وهو مسؤول لأنه حرّ: ١ - إن (يسوع) يدعو الناس ولكنه يدعوهم أحراراً في الاستجابة لندائه ٢ - الناس جميعاً سيقون (النور). ٣ - إن كان الناس بلا نور فإنهم سيكونون بلا خطيئة.

«يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه وأرسل عبيده ليدعوا المدعويين إلى العرس فلم يريدوا أن يأتوا» (متى ٣/٢٢).

فالله إذن هو الذي يبادر ويدعو. ولكن المدعويين أحرار، ولهم أن يرفضوا، بدليل أنهم رفضوا. وقد جاءتهم دعوى أخرى باسم الملك. ولكنهم تهاونوا. أترى الله يلهو بأن يدعوهم وهو يعلم أن دعوته سترفض؟ كلا إن الله صادق. ولكن البشر أحرار.

طلب (صاحب) الكرم من الكرمّامين ما يستحق من ثمر الكرم. أرسل بادئ ذي بدء عبيده، ثم ابنه ذاته. أتراه يعرف وهو يرسلهم أنهم لن يحصلوا على أي شيء؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. بل إنه ليقول في نفسه على العكس: «إنهم يهابون ابني» (مرقس ٦/١٢) و(متى ٣٧/٢١)، أو على الأقل: «ارسل ابني الحبيب لعلهم إذا رأوه يهابون» (لوقا ١٣/٢٠). قتل الكرمّامون الابن: ولكن الله لم يرد هذا القتل، بل إنه في الحق لم يتنبأ به.

تلك هي حرية البشر التي تجعل (يسوع) يعترف في نفسه أحياناً بأنه يعجب من سلوكهم. وعندما رفض مواطنوه الإيمان به دهش لعماهم: «وتعجب من عدم إيمانهم» (مرقس ٦/٦).

كان يدعو الناس. ولكنه لم يكن يقسرهم: إن إرادة الله تقضي بخلاص الناموسيين والفريسيين: ولكن «الفريسيين والناموسيين رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم» (لوقا ٣٠/٧). كانت رغبة (يسوع) هي إنقاذ (أورشليم). ولكن



(أورشليم) كانت حرة ولم تستجب: «يا أورشليم، يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريديا...» (متى ٢٣/٣٧) و(لوقا ١٣/٣٤).

وينتج عن ذلك أن ليس للإنسان أن يتكل على الله ليحقق خلاصه. وعبثاً صلّى (يسوع) من أجل (بطرس) «لكي لايفنى إيمانه» (لوقا ٢٢/٣٢). وبالرغم من ذلك فقد أنكر (بطرس) معلمه. ولم يُجد في شيء عطف (يسوع) على الشاب الغني<sup>(٥)</sup>: فالشاب الغني لم يشأ أن يبذل الجهد اللازم: إنه لن يدخل (الملكوت).

إنما يتحقق الخلاص بالجهد الشخصي وحده. «اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم» (لوقا ١١/٩) و(متى ٧/٧). إن من يريد أن يبني برجاً ألا يجلس أولاً ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله؟ وهكذا من شاء أن يتبع (يسوع) فليفعل على هذا النحو، وبحسب قوته (لوقا ١٤/٢٨).

إن توافر حرية الاختيار يوجب توافر المعرفة. فمن لم يسمع الكلام لا يستطيع اتباعه. ولذا نلفى الإنجيل يعلن بوضوح أن الناس جميعاً سيلقون البشارة. «ليس أحد يوقد سراجاً ويغطيته باناء أو يضعه تحت سرير» (لوقا ٨/١٦ و ١١/٣٣) و(متى ٥/١٥) و(مرقس ٤/٢١).

لاريب في أن العالم ظلام. ولكن «النور يضيء في الظلمة»، «النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان» (يوحنا ١/٥، ٩). ولذا يقول (يسوع) لتلاميذه: «ينبغي أن يركز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مرقس ١٣/١٠) و(متى ٢٤/١٤ و ٢٨/١٨).

وقد ضرب هو المثل بنفسه في حالات عدة: فقد حقق معجزاته علناً ليرى الناس مجده ويؤمنوا به. وقد قال للمجنون من المسّ وقد شفاه: «اذهب

---

(١) ألف المترجمون الترجمة التالية: «عندما نظر إليه يسوع أحبه» (مرقس ١٠/٢١) ويرى الأستاذ (برنو) أن من الأفضل أن تكون الترجمة على النحو الآتي: «ولما أمعن به يسوع وجهه إليه إشارة صداقة» (الإنجيل ص ١٥٥).

إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كيف صنع الرب» (مرقس ٥/١٩) و(لوقا ٧/٣٩). وقد أكثر من العجائب حتى يهتدي الناس بمشاهدتها.

أما تعليمه فقد كان تعليماً علنياً. وقد جاء في الإنجيل الرابع قوله: «أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء لم أتكلم بشيء» (يوحنا ١٨/٢٠). وجاء في إنجيل (متى) أنه لما رأى الجموع صعد إلى الجبل وتكلم.

«وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلي الجميع» (يوحنا ١٢/٣٢).

\* \* \*

إذن، سينار السبيل أمام الناس قاطبة. وكلهم سيحظى بالأنوار اللازمة ليختار بحرية الحقيقة أو الخطأ، الخير أو الشر. فإذا أعدرتهم هذه الأنوار امتنع اعتبارهم مسؤولين عن حياتهم.

إن الذين يصلبون (يسوع) لا يعرفون أنه (المسيح). ويقول لهم (يسوع): «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣/٣٤).

ونجد هذا المذهب ذاته في إنجيل (يوحنا). يخاطب (يسوع) اليهود قائلاً: «لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية. ولكن الآن تقولون إننا نبصر فخطيتكم باقية» «لو لم أكن قد جنّت وكلمتهم لم تكن لهم خطية» (يوحنا ٩/٤١) و (٢٤ ، ٢٢/١٥).

هذا كله واضح ومنطقي. لقد جاء (يسوع) بشريعة، بأوامر. وهذه الأوامر كما يقول (الأب. هرنر) P. HARENT لا يمكن أن تخاطب إلا كائنات حرة: «لا يمكن أن تأمر إنساناً يقع من سطح منزل بالألّا يسقط»<sup>(٤)</sup> ولذا فإن من شأن البشر أن يستجيبوا للنداء (المخلص) أو لا يستجيبوا. ولو أنهم لم يسمعه ولم يكونوا أحراراً في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا لما كانوا مسؤولين. ولكن اختيار الطريق السوي أو السيئ إنما يرجع إليهم، ولذا فإنهم سيحاسبون يوم القيامة عن اختيارهم.

إن شدة وضوح هذا المذهب وجلاءه يجعلان الناظر يتردد في الاعتقاد بأن من الجائز أن يعتنق الإنجيل مذهباً آخر بعد أن اعتنق ذلك المذهب. وعلى الرغم من ذلك فإليك المذهب الآخر.

— ٢ —

الإنسان ليس حرّاً. وعلى الرغم من ذلك فهو مسؤول. ١ - إن الناس لن يلقوا كلهم تعليم الإنجيل. وقد عمل (يسوع) على نحو أن يسمع كثيرون ولا يفهمون. ٢ - لا يستطيع الإنسان أن يصنع خلاصه بنفسه. والله وحده هو الذي يصطفي الناجين وغير الناجين. ٣ - إن الاختيار الإلهي المسبق لا يحول دون مسؤولية البشر. بل إن ثمة مسؤولية جمعية.

أيلقى الناس كافة (النور)؟ كلا

يقول (يسوع) لتلاميذه «إلى طريق أم لامتضوا وإلى مدينة السامريين لاتدخلوا» (متى ١٠/٥).

قد يقال: إنه أمر موقوت. وقد أراد (يسوع) أن يركز تلاميذه بالإنجيل بادئ ذي بدء لليهود. ثم يذهبون إلى الأمم.

وعندما يحدث ذلك، فإن أولئك الذين هم من الأمم والسامريين إذا ماتوا في أثناء تعليم إسرائيل لن ينالهم (النور). ولئن كانت النصوص السابقة تأمر التلاميذ في الواقع بأن يركزوا بالإنجيل للعالم فثمة نص آخر ليس بأقل وضوحاً وهو يقول بدقة إنه لن يكون لديهم وقت حتى ليكرزوا بالإنجيل لليهود. «فإني الحق أقول لكم لاتكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان» (متى ١٠/٢٣).

ولذا فإن جميع اللايهود، وحتى بعض اليهود، سيموتون قبل أن يلقوا البشارة.

\*\*\*

هل يعطي (يسوع) (النور) ذاته لجميع من يتاح له وعظهم بالإنجيل؟ إن الأمر أنأى عن ذلك.

فهو يقدم معجزات لفريق من الناس بوصفها برهاناً على رسالته، ويمنعها عن فريق. ولما سأله فريسيون طالبين آية من السماء لكي يجزّوه أجابهم: «لماذا يطلب هذا الجيل آية؟ الحق أقول لكم لن يُعطى هذا الجيل آية» (مرقس ٨/١٢). لماذا؟ إن الفريسيين الذين يريدون إمتحانه ليسوا بذي شأن، وهذا معلوم. ولكن اليهود الذين يجدهم (يسوع) مجتمعين أمام منزل (يائيرس) ليسوا بأفضل منهم. وعلى الرغم من ذلك فإن يسوع بعث من الموت ابنة (يائيرس) أمام أعين هؤلاء الساحرين. وقد رفض كل آية أمام الفريسيين.

ويريد (يسوع) في بعض الأحيان أن يعرف الناس معجزاته فيقول لمن شفاه: اذهب وأعلن ما فعل لك (المخلص). ولكنه في أحيان أخرى يأمر المستفيد بالسكوت المطلق، بل ويأمر كذلك من شاهدوا المعجزة. من ذلك أنه لما بعث من الموت ابنة (يائيرس) أمام عدد من الناس «أوصاهم كثيراً أن لا يعلم أحد بذلك» (مرقس ٥/٤٣). وهذه الوصية ذاتها نجدها بعد شفاء شخص أصم: «فأوصاهم ألا يقولوا لأحد» (مرقس ٧/٣٦).

ويرى الأب (لاكرانج) Lagrange أن لامندوحة من الاعتقاد حيال هذا المنع الجازم بأن «(يسوع) ينشد الصمت... وأن من العسير أن نفهم لماذا» (مرقس ص ١٨٩). لنقل قولاً أفضل: من المحال أن نبين ذلك إذا أردنا توفيق هذا الأمر مع المذهب الذي يقضي بضرورة تنوير كل إنسان. بيد أن المسألة سهلة مذ أن نعترف بأن ثمة مذهبين، هنا كما في أمكنة أخرى.

وكيف نرتاب؟ فلو أن الأمر قد اقتصر على المعجزات المتاحة لفريق، والممنوعة عن فريق، لكان في وسع حماسة اللاهوتيين البارعة أن تخلص إلى إيجاد تفسير لهذا الشذوذ. فالمعجزة، مهما كان نفعها، فإن من الجائز أن يؤمن امرؤ دون أن يراها. ولكن الإشكال يرجع إلى أن المذهب ذاته هو الذي يعتبره (يسوع) سرّاً، ويخفيه (يسوع) عن الناس!

لقد كنا نسمعه وهو يقول قبل قليل: «لقد كلمتُ العالم صراحة وليس شيء في الخفاء». ولكن لنسمعه الآن. سأله (بطرس): «أنت المسيح، ابن الإله الحي»، فلم ينكر (يسوع). وقد قال (بطرس) الحقيقة. ولئن كان ثمة حقيقة ينتفع بها العالم فإنها هي. وعلى الرغم من ذلك فقد منع (يسوع) تلاميذه عن إعلانها: «فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه» (مرقس ٨/٣٠) و(متى ١٦/٢٠) و(لوقا ٢١/٩).

وفي غداة الأحداث التي واكبت الوصول إلى (أورشليم) أقبل اليهود، رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ، وسألوا (يسوع): «بأي سلطان تفعل هذا ومن أعطاك هذا السلطان؟». فلو أن (يسوع) كان يود أن يضم تحت جناحه جميع أبناء إسرائيل لكانت الفرصة سانحة، وكان في وسع تصريح قوي بين أن يفتح عيون أكثر الناس عناداً. ولكن كلا: هذه المرة أيضاً احتفظ (يسوع) بالسر لنفسه: «ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا» (مرقس ١١/٣٣) و(متى ٢٧/٢١) و(لوقا ٢٠/٨).

وهو لا يقتصر على ما تقدم. بل إنه إذ يتكلم أمام الجمهور فإنه يستهدف ألا يفهمه سامعوه.

تحدث عن أمثلة (الزارع). ولما سأله تلاميذه عن ذلك أجابهم: «قد أعطي لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله. وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا، ويسمعوا سامعين ولا يفهموا لئلا يرجعوا فتغفر لهم خطاياهم» (مرقس ٤/١١).

وهنا يبلغ التناقض مع المذهب الأول مبلغاً من الإثارة جعل المفسرين يبذلون كل براعتهم ليبدلوا معنى هذه الجملة مهما كلف الأمر: ولكن البداية قاومت هذا الجهد<sup>(٥)</sup>. ومهما يكن من أمر المهارة التي أنفقت لتفسير المقطع من

(٥) يصرح الأستاذ (برنو) (الإنجيل ص ١١٣) إن الكلمة اليونانية INA في شق الجملة القائلة: «كل شيء بالأمثال حتى يبصروا مبصرين ولا ينظروا» لاتدل على معنى «حتى» كما في اللغة اليونانية القديمة، بل على معنى «لأن». ويبرهن على ←

إنجيل (مرقس) والمقاطع المماثلة من إنجيلي (متى) و(لوقا)، فثمة دلالة مشتركة  
يتمنع إنكارها: إن سرّ (الملكوت) وقف على التلاميذ وهو لا يكشف لسواهم.  
ولكي لا يكشف (يسوع) للآخرين حدّثهم بالأمثال.

وفي مكان آخر، يعزو (يسوع) إلى (الآب) ذاته الأمر الصريح بإشارة  
فريق من الناس، والتعمية على فريق: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض  
لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الأب لأن  
هكذا صارت المسرة أمامك» (متى ١١/٢٥) و(لوقا ١٠/٢١).

لماذا كان الحكماء والعلماء أقل جدارة بأن يلقوا (النور) من العامة  
والبغايا؟ لاجواب: تلك مشيئة الآب. ولكن لنلاحظ جيداً أن (يسوع). لا يمنع  
التعليم الواضح عن العلماء وحدهم، وليس بمقبول القول إن الجموع التي تتبعه

---

← ذلك: ١ - بتصريح نحوي من القرن الميلادي الثاني. ٢ - بأن (متى)، وقد كان  
(مرقس) يطّلع عليه، يستعيز عن كلمة INA بكلمة OTI ومعناها «الآن». ويبدو  
لي أن الدليل الأول واه. فالمرات التي استعمل فيها (مرقس) كلمة INA بمعنى  
«حتى» لا تخصي. ولذا فإن الدافع مذهبي وليس بسائق لغوي يراد من هذه الكلمة أن  
تدل على معنى «لأن». أما الدليل الثاني فيبدو لي أنه يهدم الدليل الأول. فلو أن  
لكلمة INA معنى «لأن»، وكان هذا المعنى واضحاً وذائعاً في زمن (مرقس)، فلماذا  
يستعيز (متى) عن كلمة INA بكلمة OTI؟ فمن الثابت الأبسط افتراض أن  
صيغة (مرقس) بدت له قاسية بإسراف وأنه لطفها بدون أن يتوصل، من ناحية  
أخرى، إلى تغيير المعنى العام للمقطع، مادام هو أيضاً يجعل (يسوع) يقول: «قد  
أعطي لكم أن تعرفوا سرّ ملكوت السموات. أما لأولئك فلم يعط» (متى ١٣/١١).  
أما المفسرون الكاثوليك فإنهم لم يستطيعوا الاتفاق على تفسير مثل هذا المقطع  
الشاق. وبعضهم يرى أن الأمثال وسيلة لحجب المذهب وجعله غامضاً. وقد رفض  
الأب (لاكرانج) هذا الرأي، ولكنه خلص إلى تناقض فطن له بلا ريب. فمن جهة  
أولى، يرى أن (يسوع) يعطي (النور) المناسب للجموع». ولكن، من جهة أخرى، أنه  
«لم يرفع الحجب كلها» لأن اليهود لو استجابوا لوعظهم لما غفر لهم ولكان هذا  
الترميم قد حال دون الخلاص النهائي (مرقس ص ١٠١، ١٠٢). ويقول آخر، إن  
(يسوع) يتكلم بقدر كافٍ من الوضوح حتى يفهم، ولكن بقدر كافٍ أيضاً من  
الغموض حتى لا يفهم.

والتي يوجّه إليها الأمثال «حتى تسمع ولا تفهم»، إنما تتألف فقط من أشخاص مثقفين. إذن إنه ينير بعضهم ولا ينير بعضهم الآخر، دون أن يجلو مبدأ مثل هذا الاختيار: لقد مُنح فريق أن يعرفوا سرّ (المللكوت)، ومنع عن ذلك فريق.

\*\*\*

إن (النور) لم يُعط للجميع. ولكن أترى الذين أعطوا الكلام وفهموه هل يتصف كل واحد منهم بأنه حرّ في صنع الخير أو الشر، في إنتاج ثمرة أو البقاء عقيماً؟

نعم. هكذا كان (يسوع) يقول في النصوص المذكورة من قبل. وهو من ناحية ثانية يقول: كلا، في نصوص أخرى:

«... لأن (يسوع) من البدء علم مَنْ هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يسلمه. لهذا قلت لكم إنه لا يقدر أحد أن يأتي إلي إن لم يُعط من أبي لأنكم من دوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا ٦/٦٥) و(٥/١٥).

ولما سأله تلاميذه وهم قلقون «من يستطيع أن يخلص؟» أجاب (المعلم): «عند الناس غير مستطاع ولكن ليس عند الله لأن كل شيء مستطاع عند الله» (مرقس ١٠/٢٦ ، ٢٧) و(متى ٢٦/١٩) و(لوقا ٢٧/١٨) (\*).

أيجب على الإنسان أن يسهم، هل في وسعه على الأقل أن يسهم، في خلاصه؟ كلا أيضاً. فالإنسان ليس هو الذي يختار أن يذهب إلى (يسوع)، بل الله هو الذي يختار إنساناً معيناً ليخلصه: «ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم» (يوحنا ١٥/١٦).

الله، في الواقع، الله ذاته، كوّن لنفسه قطعاً صغيراً وأوكلهم إلى ابنه. لقد «أعطى» (يسوع) عدداً من الناس محدّداً: «لست أسأل من أجل العالم بل من أجل الذي أعطيتني لأنهم لك» (يوحنا ٩/١٧ ، ١١ ، ١٢). إنه راع صالح.

---

(\*) إنني أفهم من ترجمة هذا النص أن الله هو الذي يختار أصفياءه.

إنه يعرف عدد الخراف الموكولة إليه؛ إنه يدعوها بأسمائها ويخرجها» (يوحنا ٣/١٠). ولكن ماذا يحدث إذا قاوم المختارون؟ «قال السيد للبعد اخرج إلى الطرق والسيارات والزهم بالدخول حتى تمتلئ بيتي» (لوقا ١٤/٢٣).

الزهم! هل هذا يعني أن المختارين سيخلصون بالضرورة؟ إن الإنجيل يمضي إلى هذا المدى.

يقول (يسوع) إن مسحاء كذبة سيقومون بلا ريب في الأيام الكبرى وإن آياتهم ستغوي حتى المختارين. ولكنه سرعان ما يضيف: هذا غير ممكن. لأجل المختارين الذين أختارهم قصر الله الأيام» (مرقس ١٣/٢٢ ، ٢٠) و (متى ٢٤/٢٢ ، ٢٤). ويعلن (يسوع): «لاتخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سرّ أن يعطيكم الملكوت» (لوقا ١٢/٣٢) و (متى ١٨/١٤). وكذلك: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتبعني» (يوحنا ١٠/٢٧ - ٢٨).

إننا نبلغ نقطة المذهب الأساسية: هل سيخلص هؤلاء الذين اختارهم الله إذن مهما كانت وضاعتهم الأخلاقية؟ إن الإنجيل لا يتيح لنا أن نرتاب في ذلك. ففي كل لحظة يبرز أهمية خواء التلاميذ قلباً وروحاً. إنهم لا يفهمون، ولا يؤمنون، ويتحلون بزهو صبياني، ويمنعون الأطفال من الدنو من (المعلم). وعندما يخاطبهم (يسوع) قائلاً: «نفسى حزينة جداً حتى الموت. أمكثوا هنا واسهروا» (مرقس ١٤/٣٢). ناموا. وعندما قبض على المسيح فروا ولم يرجع أي واحد منهم ليشهد معه. ولم يشعر (بطرس) نفسه «بمعنى ما هو الرب» وقال (يسوع): سمعان، سمعان، هو ذا الشيطان! وعلى الرغم من عودته الجميلة فقد أنكر (معلمه) بجن. ولما كان (يسوع) عالماً بكل شيء فقد تنبأ بإنكار (بطرس) وبفرار الآخرين وقال: «ستسقطون جميعاً» (لوقا ٢٢/٣١). لا بأس! فالآب هو الذي «أعطاه» تلاميذه: ومهما بلغ جنهم «فهم لا يستطيعون أن يهلكوا».

وكما أن بعض الناس هم مختارون سلفاً فإن غيرهم آيلون إلى الشر. إنهم لا يستطيعون الإيمان. لا يستطيعون الامتناع عن فعل الشر إنهم أبناء ابليس.



يقول (يسوع) لليهود: «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي»  
(يوحنا ١٠/٢٦).

وهو يصرح كذلك متنبئاً بجرائمهم عن يقين: «ها أنا أرسل إليكم أنبياء  
وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون  
من مدينة إلى مدينة» (متى ٢٣/٣٤).

إنكم ستقتلون! كيف يستطيع (يسوع) إعلان هذه الجرائم بيقين؟ ذلك  
أن اليهود الذي لم «يُعطوا» له هم أبناء ابليس: «أنتم من أب هو ابليس،  
وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء» (يوحنا ٨/٨  
٤٤).

واليهود، أبناء ابليس، (وبوجه أعم جميع البشر الذين ليسوا من الله)  
لا يستطيعون سماع الكلام: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجتُ  
من قِبَل الله وأتيت. لأنني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني. لماذا لاتفهمون  
كلامي «لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا قلوي» (يوحنا ٨/٤٢).

«إنكم لاتقدرون»: إن المذهب يتأكد بحزم. وقد ألحف (يسوع) قائلاً  
وكأنه يدرأ أي لبس: «الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم  
تسمعون لأنكم لستم من الله» (يوحنا ٨/٤٧) وكذلك يقول: «تموتون في  
خطيئتكم وحيث أمضي أنا لاتقدرون أنتم أن تأتوا» (يوحنا ٨/٢١).

وعلى هذا النحو لا يستطيع بعض الناس إلا أن يخلصوا، ولكن غيرهم  
لا يقدرّون على سماع الكلام ولا يستطيعون إتباع المسيح. الخلاص لفريق،  
والهلاك لفريق، والأمران كلاهما يشكّلان. جزأين من الخطة الإلهية على قدر  
سواء: «ينبغي أن ابن الإنسان يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة»  
(لوقا ٩/٢٢). «ينبغي أن يُصلب (يسوع) في (أورشليم) «لأنه لا يمكن أن يهلك  
نبي خارجاً عن أورشليم» (لوقا ١٣/٣٣). ولئن لم يؤمن اليهود فذلك «حتى»  
تتحقق نبوءة (اشعيا). يقول الإنجيل الرابع: «لم يقدرّوا أن يؤمنوا لأن (أشعيا)  
قال أيضاً: قد أعمى عيونهم» (يوحنا ١٢/٣٨ - ٣٩).

ويتجلى هذا المذهب بوضوح في قصة (يهودا). فالإنجيل الرابع يرى أن (يهودا) لص. ولكن سرقاته، مهما بلغت حقارتها، لاتعدل بخطرها إنكار (بطرس). زد على ذلك أن (بطرس) يبكي بعد خطيئته ولكنه يحترس من التدخل لصالح (المعلم). أما (يهودا)، على العكس، فإنه يعيد إلى الكهنة الثلاثين قطعة من الفضة. وبذا لا يبدو على أنه، من الناحية الأخلاقية، أدنى كثيراً من (بطرس). وعلى الرغم من ذلك فإن (بطرس) سيصبح رأس (الكنيسة)، وسيصبح (يهودا) الخائن المكروه إلى الأبد. لماذا؟ ذلك أنه كان من اللازم أن يتحقق (المكتوب): «الذي يأكل معي الخبز رفع علي عقبه» (يوحنا ١٣/١٨).

إن خيانة (يهودا) جانب ضروري من الخطة التي رسمها الله ولذا نجد (يهودا) يصبح في اللحظة المناسبة ابن الشيطان. فقد دخله الشيطان. كيف؟ وبمن؟ لنسمع نص الإنجيل: سأل التلميذ الحبيب (يسوع): من سيخونه؟ فأجاب (يسوع): «هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه. فغمس اللقمة وأعطاه لـ (يهودا) سمعان الاسخريوطي». فبعد اللقمة دخله الشيطان» (يوحنا ١٣/٢٦ - ٢٧). وقد نسي كاتب هذا الإنجيل أنه قد أظهر من قبل أن الشيطان كان يوحى إلى (يهودا) فكرة الخيانة. فلماذا هذا النسيان؟ لاريب في أن مرد ذلك يرجع إلى أنه يريد أن يبين أن (يهودا) أصبح ابن الشيطان فور تناوله اللقمة التي قدمها له (يسوع). فالأمر لا يقتصر على أن كان من المقرر أن يخون (يهودا) بل إن (يسوع) يحدّد بنفسه لحظة الخيانة ذاتها. وفوق ذلك، نجده يقول لـ (يهودا): «ما أنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة». ولهذا القول نكهة مفاجئة حزني على لسان شخص عادي يتعجل الخلاص مما لا بد منه. ولكن هذا الإنسان هو رب! وهذا الرب الذي صلّى من أجل (بطرس) كان يستطيع أن يصلي من أجل (يهودا!) غير أنه يستعيز عن ذلك بقوله: إعمله بأكثر سرعة. وفي معنى هذا التعجل يوجد معنى: إعمله! وقد أطاع (يهودا) فهلك.

كيف نفسر مثل ذاك التسامح الكبير مع (بطرس) ومثل اللامبالاة الكبيرة بصدد (يهودا)؟ إن السبب بسيط. ينبغي أن يرجع (بطرس) ويصبح رأس

الكنيسة، وينبغي أن يمضي (يهودا) إلى غاية خيانتته. وقد اختاره (يسوع) وهو يعرف أنه سيخون. (يوحنا ٦/٦٤ - ٧٠)؛ وسيكون مما يجانب المنطق أن يحتجزه في اللحظة القصوى، وإنما خان (يهودا) ليلم ما في (الكتاب).

\*\*\*

جلي أن ذاكم هو الأساس من الناحية الأخلاقية: إن الناس المختارين للخير سيثابون. والذين اختيروا للشر سيعاقبون عقاباً رهيباً.

لقد كُتِب اسم (بطرس) وأسماء سائر التلاميذ في السموات، وسيجلس على عرش (لوقا ١٠/٢٠ و ٢٩/٢٢) و(متى ٢٩/٢٦). وعلى العكس، لاريب في إدانته (يهودا): «كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد» (متى ٢٤/٣٦) و(مرقس ٢١/١٤).

وعبئاً كان نص أول يؤكد أنه حيثما لا يوجد (نور) ولا معرفة بكلام الرب لا يمكن توافر المسؤولية. فإن المذهب الثاني يؤكد عكس ذلك. إن اليهود لا يقدرّون على الإيمان لأنهم أبناء ابليس. ويتدبر (يسوع) أمره على نحو أن يضرب أمثالا من شأنها أنهم إذ يسمعونها لا يفهمون. ولذا فإن «قسوتهم» إنما يريدّها الله. ولن يكون في مكنة أي جهد يبذلونه أن يعرقل الخطة الإلهية. لا أهمية لذلك: إن مصيرهم أن «يُطرحوا إلى الظلمة الخارجية» (متى ١٢/٨). والفريسيون لا يستطيعون سماع الكلم الطيب. لا أهمية لذلك. إن (يسوع) يقول لهم: «أيها الحيات وأولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنم؟» (متى ٢٣/٣٣).

على هذا النحو نلمس ظهور فكرة مسؤولية جمعية، في الإنجيل، ظهوراً مذهلاً للمرة الأولى.

ولئن انطوى المذهب الأول على مبدأ متين، فهو المبدأ القائل إن كل فرد يحكم عليه تبع عمله الخاص. وبذا يبدو أن مما يمتنع على الفهم قبول أن يشمل حكم إجمالي مدينة بأسرها أو شعباً كاملاً.

ولكن من الجلي أننا ما أن نعرف سلفاً أسماء الخراف في «القطيع الصغير»، أي أسماء المختارين، حتى يكون في وسعنا أن نحدّد سلفاً جميع الذين

لاتضم أسماءهم لائحة الخلاص. وما نفع فحص دقيق لأعمالهم؟ إنهم أبناء ابليس. وها هو ذا (يسوع) يتهدد في الواقع مدناً: «ويل لك يا كورزين. ويل لك يا بنت صيدا.. وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء. ستهبطين إلى الهاوية» (لوقا ١٠/١٣) و(متى ١١/٢١).

وكما أدان (يسوع) مدناً أدان إدانة شاملة كل «جيل» اليهود في عصره: «رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه» (متى ١٢/٤١). زد على ذلك: سيأتي على هذا الجيل، ونحن لاندرى السبب، كل دم زكي سُفك على الأرض من دم (هابيل) الصديق إلى دم (زكريا بن برخيا) (متى ٢٣/٣٥) و(لوقا ١١/٥٠). وفوق ذلك: سيكون أبناء هذا الجيل مسؤولين عن جريمة آبائهم: قال اليهود حين انتزعوا من (بيلاطس) إدانة (المسيح): «دمه علينا وعلى أولادنا» (متى ٢٧/٢٥). ولم ينس (كاتب الإنجيل) بأية كلمة احتجاج على مثل هذه الجملة! وقد التفت (يسوع) إلى النساء اليهوديات صائحاً: «يا بنات اورشليم، لاتبكين علي بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن...» (لوقا ٢٣/٢٨).

مرة أخرى مذهبان أخلاقيان.

الأول أساسه الحرية الإنسانية والآخر القدر المسبق.

الأول يريد أن يلقي كل إنسان الكلام فيقبله بحرية أو يرفضه. والآخر يميز أبناء الله الذين سيقبلونه بالضرورة عن أبناء ابليس الذين سيرفضونه حتماً. الأول يفتح السماء لمن اختاروا طريق السماء. والآخر يفتح السماء لمن اختارهم الله لطريق السماء.

الأول يعاقب من اختار بحرية رفض الإيمان أو صنع شراً. والآخر يعاقب الذين لم يؤمنوا لأنهم لم يكونوا يقدرّون على الإيمان والذين صنعوا شراً، فعل (يهوداً)، حتى يتم (الكتاب).

## الفصل الخامس

### ضروب الجزاء

إن فكرة الجزاء من الأفكار التي يؤكدّها الإنجيل في الغالب. ونحن نجد (يسوع) يعد في كل لحظة بثواب الأبرار. وهو في كل لحظة يتوعد الأشرار بالعقوبة. ولذا يبدو أن الأخلاق الإنجيلية تنادي في هذا المجال، على الأقل، بمذهب واحد: مذهب نفعي، ما دام الإنسان الصالح سيلقى في آخر المطاف ثواب فضيلته؛ وهو مذهب صارم مادام الشرير سيعاقب على خبثه، وكأن هذا المذهب وحيد هذه المرة.

غير أن الأمر خلاف الأمر. فما أن ننظر عن كثب في النصوص حتى تتلاشى الوحدة. وإذ ذاك نجدنا حيال عدد من المذاهب، أحدها يقدم للإنسانية الثواب والعقاب من النوع الروحي؛ والأخرى تقدم ضروب عقوبة في أشكال مختلفة ومن النوع المادي.

— ١ —

ضروب الجزاء الروحي: ١ - مكافأة الذي أتى الحقيقة هي أنه أتى إلى الحقيقة. ٢ - لا يوجد حكم: إن بعث المختار يبدأ فور انتقاله من الخطأ إلى الحقيقة. ٣ - العقاب الوحيد لغير المختارين هو حرمانهم من هذا البعث الروحي.

إن المقاطع التي يعد فيها (يسوع) أتباعه «بالحياة» أو أيضاً بـ «الحياة الأبدية» مقاطع لا تحصى.

ولكن ما الحياة الأبدية؟

إن إنجيل (يوحنا) يجيب عن هذا السؤال إجابة واضحة الوضوح كله. يقول (يسوع): «وهذه الحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك و(يسوع المسيح) الذي أرسلته» (يوحنا ٣/١٧).

الحياة الأبدية إذن هي بالمعنى الدقيق معرفة الله، (النور). والحق أن إنجيل (يوحنا) يعلن منذ البدء: «والحياة كانت نور الناس» (يوحنا ١/٤) ويردف (يسوع) قائلاً فيما بعد: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يوحنا ٨/١٢).

ولما كان النور هو الحياة، وكانت الحياة هي المعرفة، نتج عن ذلك أن كل من يؤمن وكل من يعرف الله ينال بذلك ذاته الحياة الأبدية. وهو ينالها في الدنيا، في هذا العالم، ولا ينتظر عالماً آخر. إنه ينالها فور لحظة إيمانه. إنه يملك الحياة: إنه يبعث بدقة في لحظة انتقاله من الخطأ إلى الحقيقة. فعلياً ألا نتحدث بصدده عن حكم دينونة: إن من الممتنع أن يُحكم عليه. وأي حكم قد يمنحه الحياة الأبدية مادام يمتلكها سلفاً؟

إن هذه النتائج التي يوجبها المنطق يصوغها إنجيل (يوحنا) بدقة لاتدع مجالاً للشك.

«الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية» (يوحنا ٦/٤٧).

«من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية» (يوحنا ٦/٥٤).

«الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوحنا ٥/٥٠).

إنه انتقل من الموت إلى الحياة، ويقول آخر، قد بُعث، مادام قوام البعث ترك الخطأ، والخطأ موت، من أجل الحقيقة، والحقيقة حياة. أما الدينونة فإن الله لم يرسل «ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم. الذي يؤمن به لا يُدان» (يوحنا ١٧/٣).

إذن لا توجد دينونة لمن كان برّاً، ولا بعث قادمًا: إن بعثه، وهو روحي، إنما يبدأ يوم إيمانه.

ويكاد أن يكون من الطبيعي ألا يتحلى الجسد بأهمية في مثل هذا التصور. فما دامت الحياة معرفة، فإن الجسد لا يقدر على التطلع إلى الحياة. وليس في وسعه كذلك أن يولد مرة أخرى من علي، مثلما تنبعث الروح. لأن «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يوحنا ٦/٣). وعلى هذا النحو يحذف (يسوع) الجسد عندما يتكلم على الحياة والموت حتى أنه يمضي إلى القول: «كل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يوحنا ١١/٢٦). فلو وجب فهم هذه العبارة على أنها تدل على الجسد لكانت عبثاً. إن (يسوع) يعلم حق العلم أن من الجائز أن يؤمن امرؤ به ويموت بالمعنى الجسدي. ولكنه لا يدع للجسد شرف أن يتناوله هو بفكره: فمن يؤمن لن يموت أبداً لأنه يعرف الله، ولأن هذه المعرفة هي الحياة الأبدية.

إن الحياة بهذا المعنى هي انطلاق الروح: «وتعرفون الحق والحق يحزركم» (يوحنا ٨/٣٢). إنها اتحاد بالله. «في ذلك اليوم تعلمون أنني أنا في أبي، وأنتم فيّ، وأنا فيكم». (يوحنا ١٤/٢٠). إنها محبة ووحدة لأن المختارين ليسوا «مقدسين في الحق» وحسب، بل إن (الآب) يحبهم وهم في (المسيح) و(مسيح) في الله على نحو أن يكون الجمع «واحدًا» (يوحنا ١٧/١٩، ٢٣). وفي هذه الوحدة الرائعة يكون ثوابهم.

\*\*\*

فما هو، في هذا المذهب، عقاب اللامؤمنين؟ إنه لا إيمانهم. أتراهم يدانون؟ لماذا؟ يقول (يسوع): «أما أنا فلست أدين أحداً» (يوحنا

١٥/٨). وكذلك: «وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه» (يوحنا ١٢/٤٧).

والحق أن ليس ثمة من موضوع للدينونة: «الذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة. إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور» (يوحنا ١٨/٣).

إنها فكرة جلية: إن الإنسان الذي يرجح جانب الظلمات ليس بموضوع دينونة: ذلك أنه أذان نفسه بنفسه. أما عقوبته؟ فإنها تختلط بخطيئته: إنها تفضيله للظلمات. فما دام قد اختارها فإنه باقٍ فيها. وبينما يعتق الآخرون بـ (النور)، يظل هو عبد الليل الذي فرضه على نفسه. ومن الجلي أن ليس ثمة اهتمام بجسده كما بجسد المؤمن. إن الجسد لا شأو له.

ثواب روحي، وعقاب روحي. أترانا نقدر على وصف هذا المذهب بالنعمية؟ إنني، شخصياً، أكره استعمال هذه الكلمة. وفي الواقع إن أجر الخير هنا الخير ذاته، ومعاقبة الشر هي الشر. وليس ثمة من حاكم يقضي بالثواب أو يوقع العقاب: وإنما تجري الأمور بالمنطق وحده، بقوة الأشياء. فمن يؤمن يملك الحقيقة: وأجره هو امتلاكها. ومن لا يؤمن هو في الليل: وعقابه أن يكون في الليل. فليس أمام المؤمن من مكافأة غير إيمانه ذاته. ولا يرقب الملحد عقاب سوى إلحاده. ويقول وجيز: إن ضروب الجزاء روحية، وروحية وحسب. بيد أن ثمة ضروباً أخرى تتصل بالجسد.

## — ٢ —

العقوبات جسدية: ١ - خلاص اسرائيل. ٢ - بعث الأجساد:  
فرح المختارين وعذاب المدانين. ٣ - الحسنات المادية التي  
يوعدها المؤمنون في حياتهم الدنيا.

تُعلمنا نصوص كثيرة أن «الخلاص» الذي يأتي به (يسوع) للبشر هو



مجرد خلاص اسرائيل: ف (يسوع)، وهو ابن (داود)، سينقذ شعبه ويحكمه. فالذين يؤمنون بـ (المسيح) يسهمون في مجده ويتبعونه في الأرض المتجددة. أما الخزي فسيقع على أعداء اسرائيل.

ويتأكد هذا التصور في مستهل إنجيل (لوقا): «هذا يكون عظيماً وابن العلي يُدعى ويعطيه الرب الإله كرسي (داود) أبيه ويملك على بيت (يعقوب) إلى الأبد، ولا يكون ملكه نهاية» (لوقا ١/٣٢ - ٣٣).

ولقد تقدم (ابن داود) بنفسه أمام (بيلاطس) على أنه «ملك اليهود»، وأنه سيحقق خلاص جميع من ينتظرون «خلاص أورشليم»: إنه «عضد اسرائيل» وسينهض بها منجزاً مجد شعبه» (لوقا ٢/٣٨ و ٣٢) و(لوقا ١/٥٤). «صنع قوة بذراعه. شتت المستكبرين بفكر قلوبهم. أنزل الأعداء عن الكراسي ورفع المتضعين. أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لوقا ٢/٥١ وما بعد).

إن اليهود الذين سيخلصون من أعدائهم ومن أيدي مبغضهم سيتبعون «ملكهم» (بقداسة وبرّ) (لوقا ١/٧١ ، ٧٤ ، ٧٥). وسيتحقق كلام الأنبياء: ويكون الرب قد حقق خلاص شعبه، وتحققت أيضاً كلمة «الموعظة على الجبل»: «الودعاء سيرثون الأرض».

\* \* \*

وما من حاجة تدعو للقول إن تصور هذا النحو من الخلاص يعارض التصور الروحي الخالص الذي جاء في الإنجيل الرابع. إن خلاص اسرائيل ومجدها أمران زمنيان. وإن السعادة التي يوعد بها المختارون سعادة أرضية.

ولكن هذا الوعد يصطدم، فوق ذلك، بجميع تلك النصوص التي أشرنا إليها والتي تتوعد اسرائيل بمصير قاتم بدل الخيرات الخاصة المتميزة.

ونحن واجدون كذلك في الإنجيل نظرية أخرى تعد، هي الأخرى أيضاً، بأفراح الجسد أو تتوعده بخشية العذاب، ولكنها تخاطب البشر كافة ولا تقتصر على الشعب اليهودي: إنها نظرية بعث الأجساد والدينونة. ولا نستطيع القول

إنها نظرية واضحة كل الوضوح في جميع نقاطها. فبعض النصوص، فيما يبدو، تدل فيما يتصل بالبعث على أنه وقف على الأبرار. ونصوص أخرى تفترض، على العكس، أن الدينونة تتناول الأشرار والأبرار سواء بسواء.

لنمض إلى هذا التصور الأخير.

فنحن نقرأ في إنجيل (يوحنا) أن البعث المذكور بعث للأجساد، وأنه يختلف كل الاختلاف عن «الحياة الأبدية». «وهذه مشيئة (الآب) الذي أرسلني. إن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الآخر» (يوحنا ١/٤٠ و ٤٤).

فللمختار إذن: ١ - بعث روحي عندما ينتقل من الخطأ إلى الحقيقة. ٢ - بعث آخر لا يمكن إلا أن يكون بعثاً جسدياً عندما يبعث في اليوم الأخير.

وهذا البعث الأخير هو الذي ينكره الصدوقيون<sup>(٢١)</sup>. ولكن (يسوع) يخالفهم في (المجمع). وعنده أن لامناس في الواقع من بعث الأجساد لأن من الواجب معاقبة فريق، ومكافأة فريق.

والحق أن هذا التصور الثالث ينطوي على فكرة دينونة تشمل الأمم قاطبة والبشر كافة. وسيجلس (ابن الإنسان) على كرسي مجده «ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار» (متى ٢٥/٣٢).

فحيال هذه النظرية ما مصير النصوص التي كانت تعلن أن لن تكون دينونة؟ مامصير قول «الرب لم يرسل ابنه ليدين العالم؟». وما مصير كلمة (يسوع): «أما أنا فلا أدين أحداً؟» إن الإنجيل الرابع لا يابيه لذلك. فهو لا يكثرث بالتناقض وينسب إلى (المسيح) قوله: «إن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن» وقوله: «كما أسمع أدين ودينونتي عادلة» (يوحنا ٥/٢٢ ، ٣٠/٢٧).

إن مصير البشر رهن بالدينونة، مصير أجسادهم، لامصير أرواحهم وحسب. أما إذا كانوا جداء، وملعونين؟ إنهم سيألمون بأجسادهم: «خافوا بالحرى من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم» (متى ١٠ / ٢٨).

وفي نصوص لا تحصى مقاطع تلمح إلى الجحيم وإلى العذاب في جهنم، والأشراط سيكونون كالنباتات الطفيلية: «إن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجاً كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق» (يوحنا ٦ / ١٥). «إنهم يطرحون في جهنم في النار التي لا تطفأ، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ» (مرقس ٩ / ٤٧ و ٤٣ و ٤٥) و(متى ٨ / ١٨ ، ٩ الخ). «ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ١٣ / ٥٠ و ١٣ / ٢٢ و ٣٠ / ٢٥ الخ). «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لابليس وملائكته» (متى ٤١ / ٢٥). وينسجم مع هذا المذهب المثل الذي يبين لنا الغني الشرير وهو «يتعذب في هذا اللهب» ويستغيث عبثاً برجاء نقطة ماء (لوقا ٢١ / ١٦).

إن ضروب العذاب التي تنتظر الأشرار هي إذن ضروب عذاب جسدية. والرب يبعث أجسادهم ولكن حتى تلقى هذه الأجساد عذاباً أبدياً. ويتحاشى الإنجيل وصف هذه الأصناف من العذاب بمثل التفاصيل المرعبة التي ستظهر فيما بعد. ولكنه يوضح، على الرغم من ذلك، بدقة تامة أنها آلام تصيب الجسد وأنها آلام أبدية.

ومثلما يلقي الأشرار العذاب في أجسادهم فإن الأبرار يتذوقون أفراحاً جسدية.

وإن النصوص التي تصف هذه الأفراح مبهمه إبهاماً يجعل من المتعذر بوجه عام الوثوق من تأكيد أن السعادة المعنية بسعادة أرضية أم سماوية وهل أن «المختارين» سيحيون في السماء أم على الأرض المتجددة. ولكن من الثابت أنهم سيحظون بالسعادة الجسدية والتمجيد الجسماني. إن أجسادهم لن يطالها

الموت، وسيكونون كالملائكة (مرقس ١٢/٢٥) و(متى ٢٢/٣٠) و(لوقا ٢٠/٣٦). إنهم سيتألقون على نحو لم تعرفه الأرض و (يضيئون كالشمس) (متى ١٣/٤٣) وإن الأبرار (سيكونون مع ابراهيم واسحق ويعقوب) (متى ١٣/١١) وسيشربون بصحبة المسيح «من نتاج الكرمة» (متى ٢٦/٢٩). يقول (يسوع): «وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي» (لوقا ٢٢/٣٠).

\*\*\*

وتمضي نظرية أخيرة حتى إلى أن تعد المؤمنين بثواب مادي يلقونه في الحياة الدنيا.

يقول (يسوع): لانهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. «إن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها». إذن إذا كنتم تطلبون أول ما تطلبون ملكوت الرب وعدله فكل ذلك، أي الخيرات المادية، ستعطى لكم زيادة (متى ٦/٣٣ وما بعدها). لأن الرب يكسو زنايق الحقل أجمل الكساء، فلم لا يفعل ذلك لأبنائه؟

وسيدقق (يسوع)، وهو (ابن الله)، هو أيضاً النعم الزمنية: به يتحول الماء حمراً، ويكثر الخبز، ويرى العميان، ويسمع الصم، وينهض المقعدون ويحملون فرشهم، وسيرجع الأموات إلى الحياة.

وأخيراً، إنه يعلن بوضوح تام أن الذين من أجل أن يتبعوه تركوا بيتهم أو حقولهم سيقولون هنا، في الدنيا، مئات أضعاف من البيوت والحقول<sup>(٥)</sup>.

إن الإيمان ب (يسوع) وبالإنجيل لن يفيد المؤمن بأفراح جسدية وخيرات مادية في (ملكوت الرب) وحسب: بل إنه سيعود عليه بالبركات الزمنية منذ هذه الدنيا.

(٢) انظر فيما بعد الفصل السابع.

يتضح إذن أن الانطباع الأول بالوحدة في الأخلاق الإنجيلية في مسألة ضروب الجزاء هو انطباع مضلل. وهو يتلاشى على محك النصوص.

أجل إن الإنسان الصالح سيثاب. ولكن مكافأته، في مذهب أول، مكافأة روحية محضة: إن الحياة الأبدية الموعودة هي معرفة الله والمسيح. وبعبارة أخرى، إن أجر الإيمان هو الإيمان ذاته.

وفي مذهب ثان، على العكس، إن جسد الإنسان الصالح يُبعث ويضيء كالشمس والمختار يشرب الخمر على مائدة المسيح؛ أو أنه أيضاً يحيا في مجد اسرائيل، أو إنه كذلك يلقي ثمن إيمانه خبزاً وخمراً وشفاءً وحقولاً وبيوتاً.

إن العقاب الوحيد لمن يفضل الظلمة على (النور) هو، في المذهب الأول، أن يكون في الظلمة، أي في الجهل؛ وفي المذهب الثاني يُحرم الشرير من البركات الزمنية، أو أيضاً يعاقب بأنواع العذاب الرهيب عقاباً أبدياً.

وبقول وجيز، ثمة مذهبان أخلاقيان يتعارضان في الإنجيل بصدد مشكلة الجزاء، مذهب هو مذهب الروح، وآخر هو مذهب الجسد.

## الفصل السادس

### احترام الحياة الإنسانية

لننتقل من الأخلاق المسماة نظرية إلى الأخلاق العملية: التناقضات ذاتها. إليكم مسألة الحياة الإنسانية.

هناك أخلاق تظل شهيرة وهي تمنعنا من الاعتداء بأي حال من الأحوال على حياة القريب وجسده. وهي تدين الحرب والإعدام، ولا ترضى بمقاومة الشر بالقوة. وهي تنشد العذوبة اللانهائية، والعفو ثم العفو. وهي تجيب الذين يعترضون بأن مثل هذه الفضيلة تدعنا عزلاً تجاه أعدائنا: لاتخافوا من يستطيعون قتل الجسد، ولكنهم لا يستطيعون قتل الروح. طوبى للمضطهدين.

غير أن أخلاقاً أخرى تنهض في الإنجيل بإزاء هذه الأخلاق وهي تعلن: على من لا يملك سيفاً أن يبتاع واحداً، وأن (يسوع) لم يأت ليلقي السلام بل السيف، وأن المذنبين يُسلمون للقضاة، وألاً مجال للعفو عن المذنبين. إنهم سيلقون عذاباً أبدياً.

— ١ —

أخلاق أولى: على الإنسان أن يحترم حياة القريب ويبغض حياته: ١ - إن (يسوع) يدين القتل والحرب وعقوبة الإعدام.  
٢ - علينا ألا نقابل الشر بالعنف، بل بالصفح. ٣ - علينا أن نفرح لدى الاضطهاد الذي يقع علينا وأن نبغض حياتنا.

إن مقاطع الإنجيل التي تدمّ القتل بوصفه جريمة بشعة مقاطع كثيرة لا تحصى. ولا يقتصر (يسوع) على إقرار الأمر القديم: لا تقتل، بل إنه يعتبر غضبنا على إخواننا بدء قتل (متى ٢١/٥).

ومثلما يشكل القتل الجريمة الأولى فإن إسعاف القريب المهتد في حياته عمل متميز بالجدارة دون سائر الأعمال. ولما كان الإحسان يشغل منزلة الصدارة جازت مخالفة السبت لانقاذ حياة إنسان، ومثال ذلك حال (السامري) الذي ينبغي اتخاذه أنموذجاً وهو يفرض للولوح إلى الملكوت إطعام الجائع، وسقي الظمآن، وعبادة المريض.

\*\*\*

لاقتل، وإذن لاحرب.

تقول «الموعظة على الجبل»: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون» (متى ٩/٥). وقد أصاب الأستاذ (برنو) في قوله إن ذلك لا يعني موقف «استسلام» بل موقف «صانعي السلام». ف (يسوع) لا يدعوننا للامتناع عن كل عنف وحسب، بل يريد أن نعمل على إقامة السلام بين الناس.

ولكن الحرب، على الرغم من جهودنا، أليست مما يتعذر اجتنابه أحياناً؟ أوليس من المشروع إذ ذاك استلال السيف؟ كلا. لا شيء البتة يستطيع تسوية حركة قتل الإنسان. وعندما دنا (يهوذا) والجند من (يسوع) استل «واحد من الذين مع (المعلم) سيفه. فلو أن ضربة كانت تجد ما يسوّغها في الظاهر فإنما هي تلك التي تتوخى بالتأكيد الدفاع عن (ابن الإنسان) ضد خيانة امرئ وضلال آخرين. ولكن (يسوع) يحرص على أن يرفض إلى الأبد كل لجوء للعنف، وكل الحروب. ولذا قال: «ردّ سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون» (متى ٥٢/٢٦).

إن هذا النص جلي: فهو لا يدين هذا المحارب أو ذاك، بل يشمل أي إنسان يلجأ للسيف لأي سبب من الأسباب. إنه لا يردّ هذه الحرب أو تلك، هجومية أو دفاعية، بل يرفض الحرب.

\*\*\*

إن عقوبة الإعدام تخضع للحظر الشامل الذي يرفض قانون المثل: «سمعت أنه قيل عين بعين، وسنّ بسنّ. وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر» (متى ٣٨/٥). وعلى هذا ينبغي ألا يُعدم حتى القاتل ذاته.

وكذلك فإن اقرار اثم تجاه الرب لايسوّج عقوبة الإعدام. ولما رفض السامريون إيواء الرب غضب تلميذاه (يعقوب) و(يوحنا) وقالوا:

«يا رب، أتريد أن نقول «تنزل نار من السماء فتفتنيهم كما فعل (إيليا) أيضاً؟» ولكن (يسوع) التفت إليهما ونهرهما وقال: «لستما تعلمان من أي روح أنتما. لأن ابن الانسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص» (لوقا ٩/٥٥).

وأخيراً نذكر قصة المرأة الزانية، القصة الشهيرة التي أُضيفت إلى إنجيل (يوحنا) إضافة لاحقة، وهي تبين أنه لا يحق لأحد أن يطلق حكماً بالإعدام. إن المرأة المتهمة لم تنكر خطيئتها. ونص (الشرعية) الذي جاء عن الله نص جازم. لا بأس! «من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر» (يوحنا ٧/٨). وبما أن أحداً لا يستطيع الزعم بحق بأنه «بلا خطية» فقد نجم عن ذلك امتناع إيقاع الاعدام بأي مذنب. زد على ذلك أن (يسوع) وحده ينفرد بأنه بلا خطية. فلو أخذنا قوله بالحرف لوجب أن يكون في وسعه أن يرميها بحجر. ولكنه عوضاً عن ذلك يخاطب المذنبه قائلاً: «ولا أنا أدينك».

\*\*\*

ومن ناحية أخرى، ماذا نقول عن عقوبة الإعدام؟ ليس في مكنة إنسان البتة أن يوقع أية عقوبة بأي إنسان. ومهما كانت الخطيئة، أو كانت الجريمة، فإن علينا أن نغفر، وأن نغفر أيضاً.

يقول (يسوع): إن غفرت للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي» (متى ١٤/٦).

تقدم (بطرس) من (المعلم) وقال: «يا رب كم مرة يخطئ إلي أخي وأنا



أغفر له هل إلى سبع مرات؟ قال له (يسوع): لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات» (متى ٢١/١٨).

السنا نستطيع، على الرغم من ذلك، إذا أراد أحد قتلنا أو ضربنا أو سلبنا متاعنا أن نقاومه مقاومة مادية؟ أليس في وسعنا دون أن نسوقه إلى المحكمة أن ندود عن أنفسنا بالقوة ضد عدوانه؟ كلا. إن اللجوء إلى السيف محظور علينا سلفاً. ولكن (يسوع) يمضي إلى أبعد ويعلن في «الموعظة على الجبل»: «وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سحرّك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين» (متى ٣٩/٥).

إن شيئاً لايجيز لنا الاعتقاد بأن ذلك نوع من الغلو البلاغي، والتعبير عن مثل أعلى نظري. فالنظرية التي تأمرنا بالامتناع عن مقاومة الأشرار بل أن نعطيهم أكثر مما يريدون الاستيلاء عليه إنما هي نظرية ترتبط بالقانون الجديد الذي جاء به (المسيح): «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم... لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأني أجز لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟ وإن سلمتم على أخوتكم فقط فأني فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا» (متى ٤٣/٥ وما بعد).

المبدأ وتطبيقه واضحان على قدر سواء. علينا أن نحب أعداءنا. وعندما نحبهم علينا أن نحترس من اللجوء إلى القوة ضدهم حتى لانكون نحن أنفسنا مجوساً ولاعشارين.

\*\*\*

سيقال: إذا اتخذ المسيحي شريعته في ألا يقاوم البتة فإنه سيكون بالضرورة هدف الأشرار. ولكن الإنجيل لايتراجع أمام هذه النتيجة. ذلك أن الحياة ثمينة لدى الآخرين، ومحتقرة لدينا. فلنحذر مسعى الحفاظ على الحياة مهما كان الثمن: «فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها. وما يجد أحد نفسه

إلا إذا أهلكها من أجل المسيح» (متى ٢٥/١٦) و(مرقس ٣٥/٨) و(لوقا ٩/٢٤).

ثم إن قولنا إن على المسيحي أن يحتقر حياته قول قاصر: إن عليه أن يبغضها. «مَن يحب نفسه يهلكها، ومَن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية» (يوحنا ٢٥/١٢). إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض.. حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون تلميذاً للمسيح (لوقا ١٤/٢٦).

ولذا لا أهمية لما نتعرض له من جراء نظرية العفو اللامحدود ونظرية اللامقاومة من احتمال أن نصبح تحت رحمة الأشرار. فعوضاً عن أن نخاف ضرباتهم علينا أن نتعرض لها ونواجه الذين يستطيعون قتل الجسد «ولكن النفس لا يقدر أن يقتلها» (متى ٢٨/١٠) و(لوقا ١٢/٤). ونحن سنألم بلا ريب لأننا «مثل حملان بين ذئاب» (لوقا ٣/١٠). ولكن (يسوع) يقول: «طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات» (متى ١٠/٥). وكذلك: «طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشريير من أجل ابن الإنسان. افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا. فهو ذا أجركم عظيم في السماء» (لوقا ٢٢/٦) و(متى ١١/٥).

\*\*\*

ذاكم هو أول مذهبي الأخلاق اللذين يعلمهما الإنجيل في مجال الحياة الإنسانية. إنها أخلاق سامية ومنطقية أيضاً. ذلك أن القانون الذي يأمرنا بالألّا نقاوم الشرير يمكن أن نأخذ به حرفياً منذ أن نحترق حياتنا ذاتها.

وهذه الأخلاق المكثفة في صيغ جديدة مؤثرة ظلت خلال قرون تبعث النشوة في قلوب الناس حتى أصبحت اللغة الذائعة تدل على العذوبة التي تدعو إليها بعبارة العذوبة «الإنجيلية».

وعلى الرغم من ذلك فإن في الإنجيل أوامر أخرى، وروحاً أخرى.

المذهب الأخلاقي الثاني: في وسع الإنسان أن يقتل في بعض الأحوال والفوز بحياته. ١ - من المباح أن يكون الإنسان جندياً، وفي مكنة المسيحي استعمال السيف. ٢ - إن (يسوع) يقرّ عقوبة الإعدام. ٣ - يتحدث (يسوع) عن الموت وآلامه الجسدية حديثه عن عقاب ويوصي بالفرار من الاضطهاد. ٤ - الجحيم - خاتمة.

إذا صحّ أن من يأخذ السيف يهلك بالسيف وجب إدانة المهنة العسكرية. وعلى الرغم من ذلك فإن الجنود لما جاؤوا إلى (المعمدان) وسألوه: «ماذا نفعل نحن؟» لم يقل لهم: «ألقوا سلاحكم، وارضضوا هذه المهنة الأثيم» بل اكتفى بالقول: «لاتظلموا أحداً ولا تشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم» (لوقا ١٤/٣). وعلى هذا فإن (يوحنا بن زكريا) يقرّ أن يكون المرء جندياً.

أجل إن (يوحنا) لا يلزم (يسوع). ولكن قائد مائة من (كفر ناحوم) جاء إلى (المعلم) وطلب إليه معجزة. ولم يخف عنه أن له «جنداً تحت يده». بل إنه ألحف على دوره القيادي قائلاً: «أقول لهذا اذهب فيذهب، ولآخر ائت فيأتي». أترى (يسوع) يعيب عليه حمل السلاح؟ كلا. بل إنه يمنحه المعجزة المطلوبة بدل تأنيبه على وضعه ويضرب موقفه لليهود أنفسهم مثلاً على الإيمان: وإنما يمتدح الإنجيل خلف ثوب الجندي من يأتي من العامة مؤمناً. (متى ١٠/٧) و(لوقا ٩/٧).

نص آخر: يقول (يسوع): «وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب لا يجلس أولاً ويتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً. وإلا فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ماهو للصلح؟» (لوقا ١٤/٣١).

قال الأب (لاكرانج) في شرح هذا النص: «يبدو لي أن بلاد الملك محتلة

وأن الذود عنها واجب مقدس» (القديس لوقا ص ٤١١). ولكن النص لا يشير البتة إلى أن الحرب حرب دفاعية. وهو أقل إشارة إلى أن الأمر أمر واجب مقدس، مادام الملك يتساءل هل يجب خوض المعركة أم لا يجب. وبالمقابل، من الجلي أن (يسوع) يتحدث عن الحرب حديثه عن شيء سوي وبسيط. فإما أن تخاض غمارها أو لأتخاض، وذلك تبع توافر القوى اللازمة أو لاتوافرها. وهذا المجال مجال أخلاق جد متواضعة، وليس في الجملة أية كلمة تلمح إلى أن مجرد القتال جريمة. و عوضاً عن تقديم الملك «الذي يقدم على الحرب» على أنه قاطع طريق فإنه يبدو بوصفه ملكاً عاقلاً حذراً يعرف أن النصر حليف الكتائب الأقوى.

ليست الحرب شيئاً سويّاً وحسب، بل إن (يسوع) يقول بدقة: «أتظنون أنني جئت لأعطي سلاماً على الأرض» كلا. بل انقساماً (لوقا ١٢/٥١). ويقول أيضاً: «لاتظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ماجئت لألقي سلاماً بل سيفاً. فإني جئت لافرق الانسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حمااتها. وأعداء الإنسان أهل بيته» (متى ١٠/٣٤).

أجل، يمكن الظن بأن المسيحيين امتنعوا عن اللجوء إلى السيف في المعارك الناجمة عن مجيء (المسيح). ولكن نصاً في إنجيل (لوقا) يبرهن بوضوح على العكس.

يخاطب (يسوع) تلاميذه للمرة الأخيرة، وقبل أن يمضي إلى الموت عند اقتراب الصلب:

«قال لهم: حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا. «فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك. ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً»<sup>(\*)</sup>.

(\*) يقرأ آخرون: من ليس له مزود وكيس فليشتري سيفاً.

«لأنني أقول لكم إنه ينبغي أن يتمَّ فيَّ أيضاً هذا (المكتوب) وأحصي مع ائمة لأن ما هو من جهتي له انقضاء».

«فقالوا: يا رب هو ذا هنا سيفان. فقال لهم يكفي» (لوقا ٢٢/٣٥ -

٣٨).

ومهما سعى الساعون إلى الإيهام فإن معنى هذا النص يبقى جلياً. فقد كان التلاميذ، بادئ ذي بدء، جماعات صغيرة دون كيس ولا مزود ولا سيف لماذا؟ لأن (يسوع) كان هدف الاعتقال والإعدام بوصفه شريراً. ونظراً إلى أنه هو نفسه أراد أن يُعامل على هذا النحو فقد لزم له تلاميذ ضعفاء عزل مثله. ولكن ما يتصل بـ (يسوع) قد انتهى الآن مادام يشرف على الموت. ولذا يتغير كل شيء. فقبل الاستشهاد لم يكن التلاميذ يحتاجون إلى سيف حتى يتمَّ (المكتوب). أما بعد الآن فلا مناص من أن يتزودوا بسيوف مهما كلف الأمر، ولو باعوا في سبيل ذلك أردتيمهم.

إن سيفين يكفيان في تلك اللحظة: وهذا أمر بديهي، مادام (يسوع) لا ينوي مقاومة أعدائه. بل إن هذين السيفين نافلان. ولكن ينبغي على كل تلميذ، بعد الاستشهاد، أن يتزود بسلاح. ولما كنا لانستطيع افتراض أن هذا السلاح يستهدف الزينة وحسب، نرانا مضطرين لاستخلاص أن سيكون للمسيحيين، بعد موت (المعلم)، حق اللجوء للسيف. ولا يتردد (لوقا) حين يروي قصة الاعتقال في أن يكرر جملة (متى): «الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون».

اننا إذن أمام مذهب أخلاقي لا يقتصر على قبول أن يتسلح المسيحيون، بل يأمرهم بذلك.

\*\*\*

والتناقض ذاته بصدد عقوبة الإعدام.

فقد كانت هذه العقوبة مرفوضة، وبشدة. ولكن ها هو ذا (يسوع)

يستشهد بالشرية القديمة: «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. ومن قتل يستوجب الحكم».

إن العقوبة التي ينبغي أن تنطق بها المحكمة على القاتل هي عقوبة الإعدام. ولذا فنحن نحسب أن (يسوع) سيدين هذه القسوة ويقترح قانوناً اللطف. خطأ. إنه يمضي قائلاً:

«وأما أنا فأقول إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع» (متى ٢٢/٥).

وعلى هذا النحو نجد أن (يسوع) لا يقتصر على الامتناع عن رفض قانون الإعدام، بل إنه يقدر أن التشريع العتيق مسرف اللين!

مثل آخر: يستشهد (يسوع) بقول (موسى): «من يشتم أباه وأمه فليمت موتاً». أترأه يدين هذا الأمر بوصفه مسرف القسوة؟ إن الواقع أنى عن ذلك: إنه يأخذ على اليهود مخالفتهم الشريعة في هذه النقطة والتفافهم عليها (مرقس ١٠/٧).

لنضف إلى ما سبق مثل الكرامين القتلة حيث يستعيز (صاحب) الكرمة عن العفو عنهم بأن «يهلك هؤلاء الأردياء ردياً» (متى ٤١/٢١). وفي أمثولة (الوليمة) غضب الملك وأرسل جنوده وأهلك أولئك القتلة وأحرق مدينتهم. وفي أمثولة (العبيد) يفاجئ (السيد) العبد الردي «فيقطعه» (متى ٢٢/٧ و ٥١/٢٤).

إننا في صميم الأخلاق والتي تقرّ عقوبة الإعدام.

\*\*\*

تضاد آخر، كانوا يقولون لنا: لانخافوا من يستطيعون قتل الجسد! افرحوا وتهللوا بالاضطهاد! وها هو ذا (يسوع) ينظر إلى الموت والاضطهاد نظرتة إلى شر ويوصي بالإفلات منهما ويعد تلاميذه بالنجاة منهما.

وعندما تحدث عن الجليليين الذين أعدمهم (بيلاطس) قال: «إن لم تتوبوا

فجميعكم هكذا تهلكون» (لوقا ٣/١٣). ولذا لم يبق الموت مكافأة ينبغي الفرح بها والتهليل طرباً. إنه عقوبة من يرفض التوبة والهدى.

عقوبات كذلك هي المصائب التي ترصد يهود (أورشليم) على الأرض. «ويقعون بقم السيف ويسبون إلى جميع الأمم وتكون أورشليم مدوسة من الأمم» (لوقا ٢٤/٢١). فعلى اليهود ألا يفرحوا لهذه الاضطهادات، «لأن هذه أيام انتقام لئتم كل ما هو (مكتوب)» (لوقا ٢٢/٢١).

ولما أصبح الموت والآلام الجسدية شراً فإن (يسوع) شرع يوصي أتباعه بتحاشيها بدل قبولها بفرح. «ومتى رأيتم (أورشليم) محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها. حينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال. والذين في وسطها فليفروا خارجاً. والذين في الكور فلا يدخلوها» (لوقا ٢١/٢١) و(مرقس ١٣/١٤) و(متى ١٥/٢٤).

وإليكم تناقضاً أقوى. كان (يسوع) يقول لتلاميذه: لاثاولوا انقاذ حياتكم. طوبى للمضطهدين. والآن يقول لهم: «متى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى» (متى ٢٣/١٠).<sup>(٥)</sup>

كان يصيح: طوبى لكم ستكونون مبغوضين من أجل اسمي. بل كان يضيف قولاً صريحاً: «ويقتلون منكم بسببي». إنه الآن يعلن: «ولكن شعرة من رؤوسكم لاتهلك» (لوقا ١٦/٢١ و ١٨).

يقول الأب (لاكرانج) بصدد هذه الجملة الأخيرة (القديس توما ص ٥٢٦): «إن من العسير جداً توفيقها مع الإعلان عن الشهداء». والحق أن ذلك

---

(٥) حاولت في دراستي عن «الانتحار والأخلاق» (باريز ١٩٢٢ ص ١٢٧) البرهان فيما سبق على أن عبارة «اهربوا إلى الأخرى» لا يمكن أن تكون نصيحة بالفرار. ولكن السبب الوحيد الذي كان يدفعني لذلك هو أن (يسوع) لم يكن في وسعه أن يمضي في التناقض إلى درجة أن يريد أن يطلب من المسيحي الإقبال على التعرض للإضطهاد تارة، وعلى تجنبه تارة أخرى. ولم أكن بعد قد درست أخلاق الإنجيل عن كذب.

عسير لأن إضفاء معنى روحي على كلمة تتصل بالشعر إنما يعدل إقحام دلالة جنونية على النص. ومن ناحية أخرى، يمضي (يسوع) في صفحات الإنجيل إلى الإكثار من حالات براء المرضى وتقويم الأجساد وإحيائها. إنه مثل (اسكولاب)<sup>(٢٢٢)</sup> Esculape «منقذ» بالمعنى الأكثر مادية للكلمة. والحقيقة هي أننا نجدنا، مرة أخرى، حيال مذهبين أخلاقيين متعارضين: الأول يريد كره الحياة، ومن المنطقي إذ ذاك وعد المختارين بالموت والآلام. والآخر يقرّ حب الحياة، ومن المنطقي كذلك أن يعتبر الألم عقوبة والخلاص الجسماني ثواباً.

\*\*\*

وثمة نقطة أخيرة يتأكد فيها تضاد هذين المذهبين الأخلاقيين بوضوح أعظم، بل وبما يشبه القسوة: إن المذهب الأول، وهو كثير الارتياب، يقتضي صفحاً لانهائياً. والآخر يبشّر بالجحيم.

لقد رأينا فيما سبق صنوف العذاب التي تنتظر الأشرار في أتون الجحيم، حيث الدموع وصرير الأسنان. ومن الجلي - وهذه سمة لاتكاد تحظى بالتصديق - أن المختارين سيشهدون العذاب الذي سيقع بهؤلاء الأشرار، اخوانهم: وما هم أولاء ينسون كل إحسان وينظرون بعين راضية إلى جميع هذه الأنماط الرهيبة من العذاب.

ولم يخش (لوقا) تبيان هذا الأمر. فقد جعل (يسوع) نفسه هو الذي يتكلم. إن (يسوع) هو الذي يُظهر الغني لابس الأرجوان يذهب إلى النار ويرى (لعازر) الفقير في حضن (ابراهيم). وقد نادى الغني قائلاً: «يا أبي (ابراهيم)، ارحمني وأرسل (لعازر) ليبلّ طرف اصبعه بماء ويبرد لساني لأنني معذب في هذا اللهب». ولكن (ابراهيم) يجيب: «يا ابني، اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك (لعازر) البلياً. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرّون، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا» (لوقا ١٦/٢٤ وما بعد).



وعلى هذا النحو نجد مذهب العذوبة الذي كان يدعو إلى الصّحّ ثم الصّحّ يتلوّه الآن مذهب صارم يعدّ الإنسان بأن يشاهد، دونما اضطراب، ألوان العذاب تحيّق بالقرب: لقد وجب على المختار إذا ما ولج (الملكوت) أن يبدّل أخلاقه!

\* \* \*

في مجال مسألة عملية محضة توجد إذن قاعدتان، نظامان.

أخلاق تقول لنا: لا تقتل، لا تستل سيفك أبداً، لا تدن أحداً البتة. اغفر. لا تقاوم الشرير. أدر خدك الآخر. أبغض حياتك الأرضية وافرح بالاضطهاد يصيبك. وأخلاق أخرى تقول لنا: ابتغ سيفاً. اقتل المجرم. اخش الاضطهاد واهرب منه.

أخلاقان، هل هذا هو كل مافي الأمر؟ إلهان؟

هنا (يسوع) ابن الآب) الذي «تشرق شمس على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥/٤٥). وإن (يسوع) ليعرض نفسه للاضطهاد ويرفض الدفاع عن نفسه قائلاً فوق الصليب: يا أبتاه اغفر لهم!... وهناك، (يسوع)، ملك حانق يسحق أعداءه، ويرسل جنوده ضدهم، ويقطع عبيده، ويعلن في (أورشليم) عن أيام الانتقام وانتصار السيف ويطلب من الفقير (لعازر) أن يسمع إلى الأبد دون أن يتأثر صراخ المدينين.

## الفصل السابع

### الثروة

الغنى شر، والفقير خير. الأول يقود إلى (الملكوت)، والآخر إلى الجحيم. واذن ليفز الغني بالخلاص إذ يتصدق بأمواله كلها. وعندما يصبح فقيراً، ليحجم عن السعي لكسب رزقه بعمله: إن إخوانه سيعيشون ويعيش معهم، حين يضعون كل ما يملكون موضعاً مشتركاً، دونما اهتمام سدى بالغد.

هكذا قال (يسوع). ولكن، بإزاء هذه الأخلاق الجريئة، وهي تقف وقفة سامية في وجه المال، توجد في الإنجيل أخلاق أخرى: أخلاق تعتبر الملكية مشروعة، وتكتفي بصدقات محدودة، وتقبل أن يعتمد الغني إلى تشغيل الفقراء، وتبيح التجارة، والقرض بالربا، وتمتدح الحيلة والحدز، وتمضي إلى أن تعد المسيحيين بثروات زمنية.

— ١ —

الأخلاق الشيعية ١ - الثروة تقود إلى الجحيم، والفقير يقود إلى (الملكوت). ٢ - على الغني، بالصدقة، أن يتخلص من كل ما يملك. ٣ - على تلميذ (يسوع) ألا يبالي بكسب رزقه. ٤ - الشيعية الإنجيلية. ٥ - الإحسان يسمو على النزاهة: (الاقتصادي) الغادر.

«لا يقدر خادم أن يخدم سيدين: لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلزم الواحد ويحتقر الآخر. لاتقدروا أن تخدموا الله والمال» (لوقا ١٣/١٦) و(متى ٢٤/٦).

لماذا هذا التناقض؟

أولاً، لأن الثروة تستحوذ على قلب الإنسان وتستولي عليه وتشغفه: «لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً». وإن الاهتمام بالكسب يمنع الإنسان من سماع الكلمة. والثروة تجعل الكلام عقيماً (متى ٢١/٦ و ١٣/٢٢) و(لوقا ١٤/٨).

عندما دعا الملك في الامثولة إلى وليمته أولئك الذين اختارهم، أي عندما دعا (الرب) اسرائيل للخلاص، لماذا أخذ المدعوون يتمصون؟ «قال له الأول: إني اشترت حقلاً وأنا مضطر أن أخرج وأنظره». وقال آخر: «إني اشترت خمسة أزواج بقر وأنا ماضٍ لامتنعها».

فهذا الاهتمام بالخيرات الزمنية يغلق أمامهم (الملكوت): إنهم مدانون (لوقا ١٨/١٤) و(متى ٥/٢٢).

سبب ثان: إن الثروة بذاتها سيئة. والرغبة في الثروة تدنس الروح. يقول (يسوع) في إنجيل (لوقا)<sup>(٥)</sup>: «مال الظلم، مال ظالم» وإن الرغبة في الثروة هي إذن رغبة في الظلم. والجشع هو من الأمور السيئة التي تخرج من القلب وتدنس الإنسان. «سرقة طمع خبث مكر عين شريرة تجديف كبرياء جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان. (مرقس ٧/٢٢). إن الفريسيين الذين «يحبون المال» يجسرون على الاعتقاد بأنهم عادلون! ولكن الله يعرف قلوبهم. «إن المستعلي عند الناس هو رجس قدام الله» (لوقا ١٦/١٥). وما خان (يهوذا) (معلمه) إلا لأنه يحب المال.

(٥) (لوقا ٩/١٦ ، ١١) يلاحظ الأستاذ (لوازي) أن نسبة الظلم تعني صفة الثروة، أية ثروة لأن «محب المال العادل لا يوجد» (انظر: الأناجيل المتقاربة ج ٢ ص ١٦٢).

ولما كانت الثروة سيئة مرتين، لأنها تدنس القلب وتغلقه دون سماع الكلام فإن الأغنياء مدانون سلفاً: «ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتهم عزاءكم! وويل لكم أيها الشبايعي لأنكم ستجوعون» (لوقا ٦/٢٤).

وهذا ما كان الأستاذ (برنو) «يدعوه» «الوعيد» الرهيب في الإنجيل. وهو في الواقع رهيب لأنه لا يصبّب اللعنة على الأغنياء غير الشرفاء، ولا على الأغنياء القساة. إنه يصبّها على الأغنياء أنفسهم الذين يكفي امتلاكهم ثروتهم حتى يصبحوا ظلماً.

«كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفعاً. وكان مسكين اسمه (لعازر) الذي طُرح عند بابه مضروباً بالقروح. ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني». مات هذان الرجلان. الفقير في حضن (ابراهيم)، والغني في جهنم. هل يعني ذلك أنه منع (لعازر) من التقاط فتات مائدته؟ إن النص يتحدث عن ذلك. ولكن الغني قد رفه ولبس الأرجوان: لقد كان غنياً. وإذن فهو مدان. ويكتفي (ابراهيم) في سبيل تسويغ إدانته بأن يقول له: «اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك (لعازر) البلبايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب» (لوقا ١٦/١٩ وما بعد).

وينتج عن ذلك أن مجرد امتلاك الثروة واستعمالها يكفي لإدانة الغني بعذاب النار. وأن الحياة الآخرة أشبه بثأر يجعل البائس غنياً، والغني بائساً.

\*\*\*

وبما أن الثروة سيئة، فالفقر، في الواقع، جيد.

يقول (يسوع) إنما الفقراء هم الذين يخاطبون الإنجيل. وعندما أرسل (يوحنا المعمدان) رجلين يسألانه هل هو حقاً (المسيح) المنتظر دفعاً لكل ريب أجابهما قائلاً اذهبا وأخبرا (يوحنا) بما رأيتما وسمعتما: العمي يبصرون، والعمْر يمشون، والموتى يقومون، والمساكين يُبشّرون (لوقا/٢٢).

ولذا فإن الإنجيل (البشارة) يتجه إلى الفقراء، لا إلى الآخرين. وبهم خصت (الملكوت). ولذا فإن (لعازر) الفقير يلج ثمة ببسر ولا يقول (يسوع) إن

قلب الغني أقسى من قلب سواه، كما أنه لا يقول إن (لعازر) وديع تقي صابر: إنه يذكر أنه فقير. و فقره وحده يحدّد مصيره في حضن (إبراهيم).

وقد جاء في الواقع ما يلي: «طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله! طوباكم أيها الجياع لأنكم تشبعون. طوباكم أيها الباكون لأنكم ستضحكون!» (لوقا ٢١/٦) (\*).

وعندما رفض الأغنياء تلبية دعوة الوليمة بذريعة الإهتمام بثرواتهم بما لا يدع لهم متسعاً من الوقت قال (ملك) الأمثلة لبعده: «اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقتها وأدخل إلى هنا المساكين والجدّع والعرج والعمي!» (لوقا ٢١/١٤). ولاضير في أن يكونوا صالحين أو طالحين: يكفي أنهم فقراء، فالوليمة لهم.

إذن، تعساً للأغنياء، وطوبى للفقراء! والنتيجة العملية هي: لنمتنع عن السعي لكسب الثروة. وإذا كنا أغنياء، فلنجعل أنفسنا فقراء.

جاء في «الموعظة على الجبل»: «لا تكنوا لكم كنوزاً على الأرض» (متى ١٩/٦) و(لوقا ١٢/٣٣). ويحكي (يسوع) في إنجيل (لوقا) المثل الآتي: «إنسان غنيّ أخصبت كورته. ففكر في نفسه قائلاً: ماذا أعمل لأن ليس موضع أجمع فيه أثماري. وقال: اعمل هذا أهدم مخازني، وأبني أعظم، وأجمع هناك جميع غلاتي وخيراتي وأقول لنفسي: يا نفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريح وكلي واشربي وافرحي. فقال له الله: يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك. فهذه التي أعددتها لمن تكون؟ هكذا الذي يكثر لنفسه» (لوقا ١٢/١٦).

(\* في إنجيل (متى) (٣/٥) توجد الكلمة الشهيرة التي تُترجم في العادة: «طوبى للمساكين في الروح». فالنص الاغريقي يقول Ptochoi To Pneumati وقد ترجمه الأستاذ (برونو): «ذوو الحاجات الروحية». وأما أنا فأميل إلى ترجمته: «الفقراء للروح». فالفقر يهئ الإنسان لتلقي الروح أي لسماع الكلام. ومن البديهي أن الأمر لا يتصل بالعوز الفكري.

قد يجيب الغني أن ما أعدّه سيكون لأبنائه. ولكن هذا الجواب الذي قد يصلح في بعض الأخلاق الأخرى لاشأو له هنا: بأي حق يورث المرء أبناءه ثرواته، أي وسيلة أكيدة للإدانة؟ وقد يتذرع أيضاً بأن ليس في اختزانه قمحه ظلماً. ولكن الاختزان نشدان الثروة، وهذا يقود مباشرة إلى هلاكه.

أتراكم ملكتم هذه الثروة دون أن تسعوا إليها؟ تخلصوا منها.

يقول (يسوع): «اعطوا ما عندكم صدقة» (لوقا ١١/٤١)<sup>(\*)</sup>.

ويقول أيضاً: «بيعوا مالكم وأعطوا صدقة» (لوقا ١٢/٣٣).

ركض شاب وجثا على قدم (الرب) وسأله: (أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟).

فقال له (يسوع): «أنت تعرف الوصايا: لاترن، لاتقتل. لاتسرق. لاتشهد بالزور. لاتسلب. أكرم أباك وأمك».

فأجاب الشاب: «يا معلم، هذه كلها حفظتها منذ حدثتي».

فنظر إليه (يسوع) وأحبه<sup>(\*\*)</sup>.

وقال له: «يعوزك شيء واحد: اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني!».

ولكن الشاب مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة.

---

(\*) يقول النص الاغريقي TA ENONTA وقد ترجمه الأستاذ (لوزاي): «اعطوا بحسب دخولكم». وقد رجع الأب (لاكرانج) إلى الآية (٣٩) وقال أعطوا ما يوجد في كاسكم ولانائكم. ولكن إذا فهمنا هذه الجملة على هذا النحو صارت جد صارمة لأنها تكاد تدل على ما يقال في اللغة الذائعة: «انزعوا اللقمة من فيكم». وأما أنا فأعتقد أن اللفظ الاغريقي يعني الثروة التي تملكونها، كما هي الحال في (أفلاطون) (الجمهورية ٤٨٨). وقد تفضل الأستاذ (برونو) وكتب لي أن هذا المعنى يبدو له أنه المعنى الجيد. قال: «لا أرى كيف يمكن فهم عبارة TA ENONTA في إنجيل (لوقا) بمعنى: ما تستطيعون، بحسب دخولكم».

(\*\*) انظر فيما سبق الفصل الرابع.

فنظر (يسوع) حوله وقال لتلاميذه: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله!».<sup>١٨</sup>

ولما تحير التلاميذ من كلامه أردف قائلاً لهم: «يا بني، ما أعسر دخول المتكئين على الأموال إلى ملكوت الله! مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (مرقس ١٠/١٧) و(متى ١٩/١٦) و(لوقا ١٨/١٨).

وقد حاول كثيرون عبثاً أن يخففوا المعنى البديهي لهذه الحكاية المشهورة. ومهما يكن من أمر المناقشات الكثيرة يبقى ثقب الأبرة ثقب الابرة، ويبقى الجمل جملاً<sup>(\*)</sup>. فمن المحال إذن أن يدخل غني (الملكوت) إلا إذا تخلص من جميع ما يملك صدقة.

ذلك أن من الواجب إعطاء كل شيء. وهذا هو الجانب الجديد في الأمر. فلو أن (يسوع) طلب من الشاب أن يتنازل عن نصف ما يملك لكان قد اتبع وصيته بلا ريب. وليس من النادر أن نلقى في «العهد القديم» نصوصاً تأمر بالصدقة والإحسان. ولكن (يسوع) يطلب ترك كل شيء: «بغ كل مالك» (لوقا ١٨/٢٢). فهو يقدم ذلك على أنه قانون جديد يضاف إلى شريعة (موسى)، وعلى أنه تعليمه الخاص، ومن دونه لا يوجد خلاص. وليس بمجيد أن يعرف الشاب الوصايا وأن يتبعها بالامتناع عن القتل والسرقة والزنا. وعبثاً يكرم أباه وأمه. عبثاً يمتنع إلى الأبد عن الإساءة إلى أي إنسان: إنه يرفض بيع كل ما يملك، فإذن هو مدان.

قد يقال إن توصية (يسوع) خاصة بنخبة وحسب. وربما لُفت النظر إلى أنه يعلن في رواية (متى): «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبغ أملاكك» (متى ١٩/٢١). ولكن هذا المسعى لا يثمر. أولاً: إن (متى) هو الوحيد الذي يقول: «إن أردت أن تكون كاملاً». ثم إنه، وقد قال ذلك، لا يتردد في أن يضيف القول إن الغني لن يدخل (الملكوت) لأنه لم يطع.

---

(\*) ان كلمة Kamelos قد تدل على معنى حبل مثلما تدل على معنى جمل. ولكن المعنى يظل هو هو.

ومن الأكثر خطراً أن يقول قائل أيضاً إن (يسوع) يخاطب تلاميذه وحدهم، وإن الشاب الغني يطلب أن يصبح أحد الصحابة المباشرين، أن يصبح حوارياً ثالث عشر، وأن ذلك هو ما يجب عليه التخلّص من جميع أمواله. إن الشاب لم يطلب شغل منزلة بين (بطرس) و(يعقوب): إنه يطلب ماذا ينبغي أن يفعل «لتكون له الحياة الأبدية». وهو إذ رفض الإطاعة لم يخسر لقب تلميذ بل خسر دخول (ملكوت) السموات.

يتضح إذن أن على الغني إن شاء الخلاص أن يتحرر بالصدقة من جميع ثروته. ها هو ذا يغدو فقيراً. أترى من الواجب عليه أن يعمل ليعيش؟ كلا. إن مدعوي (الملك) سيطردون من الوليمة لأنهم أرادوا العناية بأبقارهم وأرضهم. وعلى التلميذ أن يحترس من أن يحذو حذوهم.

فماذا يفعل؟ أيمارس التجارة؟ إن كلمة تاجر تعدل كلمة لص. وعندما طرد (يسوع) الباعة من (الهيكل) قال بصراحة: «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (متى ٢١/١٣) و(مرقس ١١/١٧) و(لوقا ١٩/٤٦). ولا شيء في النصوص الإنجيلية يبين أن باعة (الهيكل) كانوا أقل أمانة من الآخرين. وإنما مجرد ممارسة المهنة في (الهيكل) قد توقعهم في اللاتقوى، ولكن لا تجعلهم لصوصاً. أما استعمال (يسوع) كلمة لصوص فإن ذلك يرجع، في نظره، بالبداهة إلى أن البائع لص من الناحية المبدئية.

وكذلك ليس في وسع المسيحي بالحري أن يشتغل في أعمال مصرفية. وعوضاً عن أن يقرض بالربا عليه أن يتوقع ألا يُرد إليه المبلغ الذي أقرضه: «وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأني فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل» (لوقا ٦/٣٤).

أترى في وسع التلميذ أن يكسب رزقه بالتركيز بالإنجيل على الأقل؟ كلا أيضاً. يقول (يسوع): اكرزوا، اشفوا، أقيموا موتى، طهروا، أخرجوا شياطين: «مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا» (متى ١٠/٨).



ورب سائل يقول: كيف السبيل إلى العيش إذن؟ ماذا نأكل؟ يجيب (المعلم): إن ذلك شاغل عامي؛ وعلى التلميذ أن يرغب عنه: «مرثا، مرثا، أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد» (لوقا ١٠/٤١).

ويتوجه (يسوع) إلى تلاميذه بالكلمات الآتية التي أصبحت شهيرة: «لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون، ولا للجسد بما تلبسون. الحياة أفضل من الطعام. والجسد أفضل من اللباس. تأملوا الغربان. إنها لاتزرع ولا تحصد وليس لها مخدع ولا مخزن والله يقيتها... تأملوا الزنابق كيف تنمو. لاتتعب ولا تنزل. ولكن أقول لكم: ولا (سليمان) في كل مجده كان يلبس كواحدة منها... فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ولا تقلقوا، فإن هذه كلها تطلبها أم العالم» (لوقا ١٢/٢٢ وما بعد).

ويتسق وهذا المبدأ ألا يحمل الاثنا عشر عندما يذهبون ليكرزوا ملكوت الله، ألا يحملوا معهم شيئاً: «لاتحملوا شيئاً للطريق، لاعصا، ولا مزوداً، ولا خبزاً، ولا فضة، ولا يكون للواحد ثوبان» (لوقا ٩/٣). و(مرقس ٨/٦).

وعلى خلاف ما يذهب إليه بعض المؤلفين الكاثوليك<sup>(٥)</sup>، إن التوصية بالتجرد المطلق ليست وفقاً على التلاميذ وحدهم. ففي إنجيل (متى) إنما يخاطب (يسوع) من أعلى الجبل وأمام الجموع بما يقوله لتلاميذه كما جاء في إنجيل (لوقا)، وهو لا يخفف من عباراته، بل يعلن بالعبارات ذاتها: «لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون.. انظروا إلى طيور السماء... تأملوا زنايق الحقل...» (متى ٦/٢٥ وما بعد).

فليست (مرثا) وحدها إذن، وليس التلاميذ وحدهم هم الذين ينبغي عليهم أن يتجردوا عن كل شاغل مادي. بل ينبغي على جميع المؤمنين أن

---

(\*) كتب (شوالم) Schwalm في «معجم اللاهوت، مادة: شيوعية ح ٥٧٧» إن التوصيات المتعلقة بعدم الاهتمام باللباس الخ موجهة إلى التلاميذ، لا إلى الجماهير. إن ذلك يعني ببساطة التغاضي عن «موعظة على الجبل».

يعيشوا دون اهتمام بالغد. لأن أمم العالم، المحجوس، هم الذين يهتمون بالطعام والشراب واللباس. أما المسيحي فإن له أفكاراً أخرى.

\*\*\*

لم يأبه (يسوع)، وهو لا يكثر بالمصالح المادية، بالدعوة إلى إصلاح اجتماعي، إلى تقسيم الأرضين. فتلك تفاهات لاتستحوذ على اهتمامه. وقد سأله واحد من الجمع: «يا معلم، قل لأخي أن يقاسمني الميراث» فأجابه (يسوع) دون أن يعبأ بالتحقق من الأمر: «يا إنسان، من أقامني عليكما قاضياً أو مقسماً؟» (لوقا ١٢/١٣).

بيد أن (يسوع) كان مضطراً، على الرغم من لا اكترائه، إلى أن يختار لذاته وتلاميذه طريقة لحل مشكلة العيش العملية. وقد اختار الشيوعية.

فلكي يغذي (المعلم) ومن يتبعونه، هناك صندوق مشترك. وإن (يهوذا) هو الموكل إليه أمره وهو المكلف بالشراء (يوحنا ٦/١٢ و ٢٦/١٣).

كيف يُمول هذا الصندوق؟ ليس بشغل (يسوع) ولا بشغل (الاثني عشر). وما من نص يصف (يسوع) بممارسة مهنة ليحيا منها. وكان لدى اختيار تلاميذه ينتزعهم من طراز معيشتهم. وقد ترك (سمعان) و(أندراوس) شبكة صيدهما من أجل اتباعه (مرقس ١/١٦). وقال له تلاميذه كلهم: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك» (لوقا ١٨/٢٨) و(متى ١٩/٢٧). وكان المال الضروري للنفقات اليومية صادراً عن بعض النسوة اللواتي تبعن (المعلم). يقول (لوقا): «وبعض النساء كنّ قد شفين من أرواح شريرة وأمراض. (مريم) التي تدعى (المجدلية) التي خرج منها سبعة شياطين. و(يونا) امرأة (خوزي) وكيل (هيرودوس) و(سوسنة) وأخر كثيرات يخدمنه من أموالهن» (لوقا ٨/٢ ، ٣). إن (لوقا) لا يذكر هل تعطي هذه النسوة كل ما تملكن. ولكن من الثابت أن كل ما يقدم يُدفع للصندوق المشترك: وعلى هذا النحو فإن القطيع الصغير يمارس الشيوعية ويحيا دون أن يعمل ولا يكثر بالغد.

\*\*\*

هل يبلغ احتقار الثروة، بل الحقد عليها، مبلغ أن يبيح القيام بأعمال  
تضاد النزاهة، ولكنها تفيد الفقراء؟

هناك مقطع شهير في إنجيل (يوحنا) يبين المضي إلى هذا المدى.

«كان إنسان غني له وكيل فؤشي به إليه بأنه يبذّر أمواله. فدعاه وقال له:  
ما هذا الذي أسمع عنك. اعط حساب وكالتك لأنك لاتقدر أن تكون وكيلاً  
بعد. فقال الوكيل في نفسه: ماذا أفعل لأن سيدي يأخذ مني الوكالة. لست  
أستطيع أن أنقب، وأستحي أن أستعطي. قد علمت ماذا أفعل حتى إذا عُزلت  
عن الوكالة يقبلونني في بيوتهم. فدعا كل واحد من مديني سيده. وقال  
للأول: كم عليك لسيدي؟ فقال: مائة بثّ زيت. فقال له: خذ صكك واجلس  
عاجلاً واكتب خمسين.

ثم قال للآخر: وأنت كم عليك؟ فقال: مائة كتر قمح. فقال له: خذ  
صكك واكتب ثمانين».

فمدح (السيد) وكيل الظلم إذ بحكمة فعل وقال: «لأن أبناء هذا الدهر  
أحكم من أبناء (النور) في جيلهم. وأنا أقول لكم: اصنعوا لكم أصدقاء بمال  
الظلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية» (لوقا ١٦/١ وما بعد).

ترجم كثيرون: «والمعلم (أي المالك) امتدح (الوكيل) غير الأمين» لأنهم  
لم يستطيعوا قبول امتداح (يسوع) إنساناً غير شريف. ولكن ماذا نريح حتى لو  
قبلنا هذه الترجمة (وهي مرفوضة في نظري)<sup>(\*)</sup>؟ يبقى أن (يسوع) يحكي قصة  
إنسان اصطنع لنفسه أصدقاء بمال الظلم. وهؤلاء الأصدقاء متأهبون لاستقباله

---

(\*) إن الكلمة اليونانية Kyrios قد تدل على معنى سيد الوكيل أو (يسوع) سواء بسواء.  
أضف إلى ذلك رغبة باحثين في استخلاص أن (يسوع) هو الذي يتكلم ويروي  
الأمثلة بأسلوب مباشر: وإذ ذاك كيف نفسر قوله (وهو يتكلم عن نفسه): «فمدح  
(السيد) وكيل الظلم؟». فلو فعل ذلك فكيف نفسر عودته من ثم إلى الأسلوب  
المباشر وقوله: «وأنا أقول لكم الخ»؟ ويبدو لي أن هذه الاعتراضات واهية: إن الحكاية  
بالمعنى الصحيح تنتهي بموضوع الصكوك. ولما انتقل (لوقا) من الحكاية إلى تطبيقها  
بدل الاتجاه تديلاً جد طبيعي. أما الأسلوب الذي يبدأ بأسلوب غير مباشر ←

في بيوتهم. إن هذا الإنسان لص. وعلى الرغم من ذلك يقدمه (يسوع) أنموذجاً يقتدي به المؤمنون بدلاً من ذمه. يجب عليهم هم أيضاً أن يصنعوا لأنفسهم بأموال الظلم أصدقاء متأهبين لقبولهم في المظالم الأبدية.

فإما أن تكون القصة كلها خلواً من المعنى، أو أنها تدل على أن في وسع المرء لدى إسعاف الفقراء أن يخالف أبسط قوانين النزاهة. لقد سلك وكيل الظلم سلوك «أبناء هذا الدهر» لأنه حين أراد إسعاف الوضعاء لم يستهدف سوى أن يحظى لنفسه بقبول مادي. أما المؤمن فإنه سيستهدف القبول في (ملكوت السموات). ولكن لكي يصنع لنفسه أصدقاء لقبوله في هذا (الملكوت) سيتصرف بحذر ويختلس لصالح الفقراء ثروات الظلم.

\* \* \*

تلكم هي هذه الأخلاق الجريئة، ولكنها واضحة ودقيقة ومنطقية بذاتها. إن الثروة سيئة وتقود إلى الجحيم. والفقر جيد ويقود إلى (الملكوت). إذن: لنبعد عنا الثروة، ولنحيا في الفقر حياة مشتركة. لنحتقر العمل المأجور، ولنهزأ من الشواغل المادية، ولنقلد الزنايق والطيور. بيد أن المال الحقير سيثأر لنفسه.

← «فمدح (السيد) الوكيل وقال...» ويمضي في أسلوب مباشر: «وأنا أقول لكم...» فقد يبدو أسلوباً غريباً في اللغة الفرنسية، ولكنه كثير الذبوع في اللغة الاغريقية... وبالمقابل، تصطدم الترجمة: «فمدح (السيد) وكيل الظلم (قائلاً) إن أبناء هذا الدهر أحكم (= أمهر) من أبناء (النور)...» تصطدم باعتراضين حاسمين: ١ - كيف نقبل استعمال المؤلف عبارة «أبناء (النور)»؟ ٢ - كيف نقبل أن يمدح الإنسان مَنْ سرقه؟ يقال إنه قد يُعجب بالمكر مع علمه بأنه ضحيته. ولكن منذ لحظة معرفته بالمكر فذاك يعني أن اللص قد كُشف أمره: فكيف يُعجب ببراعته؟ إنه لم يبق سوى غادر عادي ينتظره العقاب، ونحن لأنفهم كيف يمدحه سيده. «فمدح (السيد) وكيل الظلم...» قد يثير دهشة المفسرين الذين لايقرون إمكان أن توجد في الإنجيل أخلاق تغاير أخلاقنا. ولكن هذه الترجمة هي الوحيدة التي تتسق مع جملة المقطع. (انظر على الرغم من ذلك كتاب (لوزاي): لوقا ص ٤٠٨).

الأخلاق المحافظة: ١ - ليس لازماً أن يعطي الغني كل أمواله. ٢ - ينبغي احترام الملكية. ٣ - شرعية عقد الإيجار، والتجارة، والقرض بالربا، والثروة. ٤ - امتداح الحيطة العملية. ٥ - (المسيح) يعد المؤمنين بالثروة في هذه الحياة الدنيا.

دخل (يسوع) لدى (زكّا) رئيس العشارين، وهو غني جداً، وفجأة دنا (زكّا) من (المعلم) قائلاً «للرب»: «ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنتُ وشيت بأحد أردّ أربعة أضعاف» (لوقا ١٩/٨).

نصف أمواله! إننا نرتعد. نحسب أن (يسوع) سيجيب: يجب أن تعطي كل أموالك إذا أردت دخول (الملكوت)! وعضواً عن ذلك نجد أن عرض (زكّا) يسره فيعلن: «اليوم حصل خلاص لهذا البيت». أما من الشاب الغني فالمطلوب أن يعطي ثروته كلها. ولكن (زكّا) قد نجا لمصلحته.

ويمضي الإنجيل إلى مدى أبعد: «من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره» (متى ١٠/٤٢) و(مرقس ١١/٤١). وهذه المرة، نحن نجدنا أمام نقيض الأخلاق القاسية السابقة. كان المرء لا يدخل الملكوت إلا إذا أعطى أمواله كلها. وها نحن أولاء نرى أن أبسط عطاء، كأس ماء يُقدم في الوقت المناسب، يكفل الثواب!

\*\*\*

وكذلك، لئن كانت الثروة المسماة ثروة الظلم، وذُكر وكيل الظلم نموذجاً وقدوة، ففي وسعنا أن نقرأ في الإنجيل عشرين مقطعاً تدين السرقة. يستشهد (يسوع) تارة بـ (الشرعية) القديمة، ويحكي تارة أخرى أمثولات يُدان فيها للصوص: أمثولة الكرامين القتلة، أمثولة (السامري) الصالح.

إنه يصرح في إنجيل (لوقا): «الأمين في القليل أمين أيضاً في الكثير.

والظالم في القليل ظالم أيضاً في الكثير. فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم فمن يأتمنكم على الحق. وإن لم تكونوا أمناء في ماهو للغير فمن يعطيكم ماهو لكم؟» (لوقا ١١/١٦).

وعلى هذا يُعترف بالملكية من حيث المبدأ وبأن غير الشريف مُدان. إن الإرث مشروع. وعندما يرسل صاحب الكرم ابنه للكُرامين في الأمثلة قالوا له: «وهذا هو الوارث. هلّموا نقتله لكي يصير إلينا الميراث» (لوقا ١٠/١٤). ولكنهم عندما قتلوه اقترفوا جرماً سيعاقبون عليه. ومن السوي في الواقع أن تعود أموال الأب إلى الأبناء: إن أب الابن الضال يوزع ثروته بين أبنائه (لوقا ١٢/١٥).

\* \* \*

ليس في وسع المالك أن يملك أمواله وحسب. بل في وسعه أن يؤجّر ما يملك إلى عمّال مع احتفاظه بقسط من الأرباح، وأن يعيش على هذا النحو من عمل الآخرين. إن صاحب الكرم «يؤجره إلى كُرامين»، ويذهب إلى بلد غريب، ويطلب، وعندما يحين الوقت بحصة من الثمار الخاصة به. ومن يمتنع عن تقديمها له هو لص.

والحق أن العقد قانون المتعاقدين. ويتضح ذلك بجلاء من قصة عمّال الساعة الحادية عشرة، وهي قصة شهيرة. اتفق رب بيت مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه. فذهبوا وأخذوا يعملون منذ الصباح الباكر. وفي الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة خرج المالك واستأجر عمالاً آخرين لم يعملوا النهار كله بل إن منهم من عمل خمس ساعات، ومنهم من عمل ثلاثاً، أو عمل ساعة واحدة. فلما كان المساء لقي كل عامل ديناراً. فتذمر العمال الأولون قائلين: «هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر». فأجاب واحداً منهم: «يا صاحب ما ظلمتك: أما اتفقت معي على دينار. فخذ الذي لك واذهب».

لا اعتراض على ذلك مادام العقد مقدساً. ويمضي رب العمل قائلاً:

«فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أو ما يحلّ لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأنني أنا صالح». أجل، يستطيع عامل الساعة الأولى أن يجيب: أعطني دينارين لأن ما هو صلاح لرفاقي هو ظلم لي. ولكن رب العمل أغلق فمه سلفاً بقوله: «أو ما يحلّ لي الحق أن أفعل ما أريد بمالي؟» ذاكم هو أساس الأخلاق الرأسمالية (متى ١٠/١ وما بعد).

\* \* \*

أما أن يكون العمل مأجوراً، فإن ذلك ينتج عن النصوص ذاتها. إن أحداً لا يعترض على أي عامل من هؤلاء العمال الذين يشتغلون بالكرمة أو في الحقول بأنه على خطأ وبأن طيور السماء لا تزرع ولا تحصد.

ثم أن التجارة التي بدت كرهية فيما سبق أصبحت في أمكنة أخرى مشروعة. ويتحدث التلاميذ عن «ابتياح» الخبز حديثهم عن أمر بسيط كل البساطة (مرقس ٦/٣٦). وهم لا يحسبون البتة أن عليهم أن ينتظروا هبة. وأن (يهوداً) مكلف بشراء ما تحتاج إليه الجماعة الصغيرة (يوحنا ١٣/٢٩). وقد أجابت العذارى الحكيمات العذارى الجاهلات اللواتي طلبن زيتاً لمصابيحهن: «اذهبن إلى الباعة وابتعن لكنّ» (متى ٩/٢٥). و(السامري) الصالح أعطى صاحب الفندق نقوداً. ففي وسع المرء إذن أن يتصل بالباعة لتأمين حاجاته. ولكن طردهم (يسوع) من (الهيكل) فإنه لم يطردهم من المجتمع.

زد على ذلك: أن الإنجيل يقرّ مضاربات الباعة إقراره شيئاً بسيطاً البساطة كلها: «يشبه ملكوت السماء إنساناً تاجراً يطلب لآلي حسنة. فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها». ولاريب في أن جذله كان جلياً. فاللؤلؤة حسنة كثيرة الثمن. ولكن التشبيه يفترض أن يكون حساب الباعة مشروعاً، بل حذراً (متى ١٣/٤٥).

ويرد (يسوع) قائلاً: «يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفياً في حقل وجده إنسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل» (متى ١٣/٤٤). ولاريب في أن هذا الإنسان خبيث. إنه يعرف ماذا يشتري،

بل يعرف ذلك بإسراف: وعلى الرغم من ذلك، لا يظهر في موضع قدح، بل في موضع اقتداء.

قد يقال: كيف نتاجر مادماً لامتلك الحق في المطالبة بما أقرضناه؟ وأية عملية نمارس إن كانت المطالبة بالعوض خطيئة؟ ولكن هذا كله يرجع إلى الأخلاق الأخرى. إن في مكنة الشخص الذي ندين له بالمال أن يعفينا من السداد. ولكن له حق المطالبة بماله (متى ٣٤/١٨). وينصح (يسوع) أتباعه بدفع ما عليهم من ديون: «حينما تذهب مع خصمك إلى الحاكم ابذل الجهد وأنت في الطريق لتتخلص منه لئلا يحركك إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الحاكم فيلقيك الحاكم في السجن. أقول لك لاتخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير» (لوقا ١٢/٥٨).

وثمة تناقض أشد أيضاً: لقد كان من المحذور أن نطالب بمبلغ أقرضناه. وها نحن أولاء تباح لنا المطالبة بفائدة مالنا وأن نحسن توظيفه.

دعا إنسان مسافر إلى الخارج عبده وسلمهم أمواله. فأعطى واحداً خمس وزنات، وآخر وزنتين، وآخر وزنة. كل واحد على قدر طاقته. فمضى الذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أخر. وهكذا الذي أخذ الوزتين ربح أيضاً وزنتين أخريين.

وأما الذي أخذ الوزنة فمضى وحفر الأرض وأخفى فضة سيده. وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم. فجاء الذي أخذ الخمس وزنات وقدم خمس وزنات أخر فمدحه سيده: «أيها العبد الصالح والأمين، كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك». ثم جاء الذي أخذ الوزنتين وربح وزنتين أخريين فمدحه سيده أيضاً. وأخيراً جاء العبد الثالث:

قال: «يا سيد عرفت أنك إنسان قاس تحصد حيث لم تزرع، وتجمع من حيث لم تبذر. فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك في الأرض. هوذا الذي لك».

إن هذا الخطاب صريح لامجاملة فيه. ولكن عندما يأخذ العبد على



معلمه أنه «يحصد حيث لم يبذر» فإن نقده سليم: ذلك أن هذا المعلم يستغل عمل الآخرين ويربح فائدة مائة بالمائة. وإن الوزنة التي لم تُستثمر إنما عادت إليه ذاتها على الأقل. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يغضب قائلاً: «أيها العبد الشرير والكسلان عرفت أنني أحصد حيث لم أزرع وأجمع من حيث لم أبذر. فكان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة. فعند مجيئي كنتُ آخذ الذي لي مع ربا... والعبد البطل اطرحوه إلى الظلمة الخارجية!» (متى ١٤/٢٥ وما بعد).

يتضح إذن أن أقل ما يترتب على العبد هو أن يضع المال في مصرف: وإذا ذلك يستطيع سيده أن يسترد ماله مع الفائدة. إننا بمنأى عن الطيور التي لا تحصد، وعن الزنابق التي لا تغزل ولا تنسج.

ولا يبقى بعدئذٍ إلا أن نقول إن التلاميذ أنفسهم سيحق لهم تناول أجر ليكرزوا بالإنجيل. إن (يسوع) لا يتردد. وعبثاً كان قد قال: «مجاناً أخذتم، ومجاناً أعطوا!». إنه يصرح الآن: «وأي بيت دخلتموه فقولوا أولاً سلام لهذا البيت... وأقيموا في ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم لأن الفاعل مستحق أجرته» (لوقا ٧/١٠).

وعلى هذا فإن الرسول يذهب على الطريق من دون مال ولا مزود. ولكن غرضه لا يمثل في ممارسة الفقر، بل ليظهر لامبالته بالشؤون المادية. ولأن من الواجب أن يُقدّم له الطعام لأنه يعرف أن في مكنته المطالبة به: «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم، ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا. لأن الفاعل يستحق طعامه» (متى ٩/١٠).

\* \* \*

إننا إذن وسط عالم يُعدُّ الملكية شرعية، وحيث يعمل الناس ويتاجرون ويعيش الكاهن من المذبح وينظر إلى الخادم الذي يدع المال «ينام» عوضاً عن توظيفه نظرته لبائس. هل ثمة حاجة للإدلاء ببرهان أكبر على أن الأخلاق السائدة في جميع هذه المشاغل تقرّ شرعية المصالح المادية؟

كانوا يسخرون من (مرثا) لاهتمامها بالمال: «أية امرأة لها عشرة دراهم

إن أضاعت درهماً واحداً ألا توقد سراجاً وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده. وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلة إفرحن معي لأنني وجدت الدرهم الذي أضعته» (لوقا ١٥/٩).

وأخيراً فإن (يسوع) يوصي بالفقر، يأمر به. ولكن ها هو ذا يعد بالثروة، ويقدم بيوتاً وحقولاً لمن اتبعوه: أجل إن الناس سيضطهدونهم ولكنهم سيصبحون أثرياء في آخر المطاف.

وفي إجابته عن سؤال (بطرس) ينهض (المعلم) بهذا الوعد. يقول (بطرس). ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. وفي إنجيل (متى) نجد يضيف بشيء من الغلظة: «ماذا سنربح؟».

فأجاب (يسوع): «ليس أحد ترك بيتاً أو أخوة.. أو حقولاً.. لأجلي ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ منه ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وأخوة وحقولاً مع اضطهادات. وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (مرقس ١٠/٢٨).

وفي إنجيل (لوقا) لا يشار حتى إلى الاضطهاد...! «ليس أحد ترك بيتاً... من أجل الله إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (لوقا ١٨/٢٩).

ينجم عن ذلك أن كل من سيتبع (يسوع) يحسن صنعاً بالريح من الناحية المادية. فهو لن تكون له الحياة الأبدية وحسب. بل سيكون له عوضاً عن بيت أو حقل قد يفقده مائة بيت أو حقل. وليس المقصود هنا بيوتاً وحقولاً رمزية، بل بيوتاً وحقولاً سيملكها في الدنيا، «الآن، وفي هذا العالم» كما يقول (مرقس) الذي يلحف في الإيضاح وكأنه كان يشعر بما تنطوي عليه هذه الجملة إذا ما قورنت بغيرها من أثر مذهل ضمن الإنجيل.

\*\*\*

ولكن، سواء أكانت مذهلة أم غير مذهلة فإن العبارة موجودة هناك وهي تنير مباشرة الثنائية الأخلاقية التي طالعتنا في كل صفحة.

هنا يدين (يسوع) الثروة بوصفها أداة دينونة، وهو يأمر بالفقر، الفقر المطلق، الاحتقار التام لكل ما يمكن أن يتحلى بنفع مادي. وهناك نجده يقبل العمل والملكية والتجارة والقرض بالربا ويعد مَنْ يتبعه بأنه سينال حقولاً وبيوتاً. من جهة أولى أخلاق طير السماء الزنابق. ومن جهة أخرى، أخلاق الدرهم العائد بعد ضياعه، والمال الموظف، والثروة المكتسبة.

## الفصل الثامن

### الأسرة

التناقض عين التناقض نجده في الأخلاق المتصلة بالأسرة.

أنبحث أمر الزواج؟ إن الإنجيل يعلن عظمة الوثاق الزوجي وقدسيته ويريد أن يكون متعذر الحلّ. ولكنه يعلن بمثل هذا الوضوح رجحان العزوبة وبيح الطلاق ويطلب من الزوج أن يترك زوجه ويبغضها.

وإذا تناول الأمر علاقات الآباء بالأبناء؟ إن الإنجيل يبجل الأسر الخصبية ويريد أسراً يحب فيها الأب أبناءه ويحترم الأبناء أباهم. ولكنه يعلن مجيء أيام سيغال فيها: طوبى للمقيمين! ويطلب إلى المؤمن أن يبغض أباه وأمه وأطفاله.

— ١ —

مذهباً الأخلاق المتصلين بالزواج: ١ - الزواج مؤسسة إلهية يتعذر حله. ٢ - العزوبة أفضل من الزواج، ومن الجائز حل وثاق الزوجية. وينبغي على تلميذ (يسوع) أن يترك امرأته ولن يظل المرء بعد البعث زوجاً أو زوجة.

«من بدء الخليقة ذكراً أو أنثى خلقهما الله. من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته».

هكذا تكلم (يسوع) نفسه وهو يستشهد بنص سفر التكوين وبعدئذٍ يلحف ويكرر قائلاً: «يكون الاثنان جسداً واحداً. إذن ليسا بعد اثنين بل جسد واحد» (مرقس ٦/١٠) و(متى ٤/١٤).

ولا يمكننا أن نعطي منزلة الزواج فوق ذلك لأنه يبدو إنجاز الإرادة الالهية وما دام الله ذاته هو الذي أمر بالعلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة.

وبحسب هذا المذهب، يتحدث (يسوع) عن الزواج حديثاً إيجابياً ويبتغله فعلاً وقولاً. ولما دعي إلى عرس (قانا) لم يمتنع عن قبول الدعوة بل شبه نفسه بالعريس يحيط به أبناء العرس وقال: يشبه (ملكوت السموات) عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وهكذا «يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه» (يوحنا ١/٢) و(مرقس ١٩/١٢) و(متى ١/٢٥ و ٢/٢٢) الخ.

ليس الزواج وثاقاً مقدساً وحسب. بل إن الإنسان لا يستطيع حله. وقد سأل الفريسيون (يسوع) «هل يحل للرجل أن يطلق امرأته؟» ولكنه أجابهم: «ماذا أمركم (موسى)؟» قالوا: «أباح موسى كتاب طلاق فقال لهم (يسوع): «من أجل مساواة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم».

وهكذا أظهر (يسوع)، بعد عدم اعترافه بـ (موسى) أن الوثاق الزوجي إنما أرادته الله نفسه. وقد أذن الطلاق إدانة تامة، وفي جميع الأحوال، في الصيغة الشهيرة: «إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان» (مرقس ٩/١٠).

الكلام دقيق. وعلى الرغم من ذلك فإن (يسوع) يرجع إلى الموضوع وكأنه كان يتحاشى كل سوء تفاهم:

«ثم في البيت سأله تلاميذه أيضاً عن ذلك فقال لهم: من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها. وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بأخرى زنت» (مرقس ١٢/١٠). ومثل هذا التصريح نجده في إنجيل (لوقا): «كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني. وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني» (لوقا ١٦/١٨).

يتضح إذن أن الزواج ليس وثاقاً مقدساً وحسب، بل إنه وثاق لا يستطيع الإنسان حله بحال من الأحوال. فمن يتزوج يدخل في المقاصد الالهية. ومن يفسد الزواج يتعدى حقوق الله. والأسرة ذات أساس أخلاقي. وهو أساس متين.

ولكن إليكم مايزعزها أو يهدمها.

\* \* \*

الزواج من إرادة الله؟ وهم. إنما العزوبة هي ما يريد الله.

يقول (يسوع) لتلاميذه: «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام، بل الذين أعطي لهم. لأنه يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس. ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. مَنْ استطاع أن يقبل فليقبل». (متى ١٩/١١).

إن الإنذار المتضمن في هذه الجملة يحملنا على أن نفهم دونما عناء كبير: إن (يسوع) لا يطلب من تلاميذه أن يخصصوا أنفسهم مادياً. بل يطلب إليهم أن يقضوا على كل الرغبات الجسدية لديهم وأن يمارسوا العفة. ولذا لم يبق الزواج هو المقصود في الخطة الإلهية، بل العزوبة.

والواقع أن الزواج يبدو في إنجيل (لوقا) على أنه أحد أسباب عزوف المدعويين عن الخلاص شأنه شأن العمل والتجارة. ولقد أجاب مدعوو (الملك)، كما ذكرنا قائلين: «إني اشتريت حقلاً وأنا مضطر أن أخرج وأنظره.. وقال آخر: إني اشتريت خمسة أزواج بقر وأنا ماضٍ لامتحانها». ولكن الثالث يصرح قائلاً: «إني تزوجت بامرأة فلذلك لا أقدر أن أجيء» (لوقا ١٤/٢٠). وقد قيل عن هذا الأخير كما قيل عن الآخرين إنه سيطرد من الوليمة الالهية: ولم يكن عليه إلا أن يخصصي نفسه من أجل (ملكوت السموات).

\* \* \*

الزواج لا يحل؟ بلى.

أولاً: يمكن أن يحلّ الزواج بموت أحد الزوجين. ومن المباح التزوج مرة ثانية، وثالثة، وأكثر. ولم يحتج (يسوع) على حالة المرأة التي حدّثه عنها الصدوقيون وقد تزوجت سبع مرات (مرقس ١٩/١٢) و(متى ٢٤/٢٢) و(لوقا ٥٨/٢٠).

أضف إلى ذلك أن ثمة نصين شهيرين في إنجيل (متى) يعلنان أن الطلاق مباح عندما تكون الزوجة زانية.

يتكلم (يسوع) قائلاً: «من طلق امرأته إلا لعلّة الزنا يجعلها تزني (حرفياً: لأنها زانية) ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني» (متى ٣٢/٥).

وفي مكان آخر: «وأقول لكم من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني» (متى ٩/١٩).

وبما أن الكنيسة الكاثوليكية انحازت إلى ماجاء في إنجيل (مرقس) أي ضد الطلاق، حتى في حالة الزنا، فقد أنفق المفسرون الكاثوليك<sup>(٥)</sup> كنوز براعتهم المرفهة أمام دقة العبارة القاطعة.

إن (يسوع) يعلن في إنجيل (مرقس) أن ليس في وسع الرجل في أية حال

---

(\*) تُعتبر المسألة في نظر الكاثوليك «من أقسى صعاب العهد الجديد» (معجم اللاهوت مادة: زنا ج ٢٢٦). فبعضهم يرجعها إلى خلل في النسخ، وآخرون إلى «مجرد تعثر في الأسلوب». بعضهم يرى أن كلمات (متى): «إلا بسبب الزنا» تعني: إلا في الحالة التي يعيش فيها الرجل والمرأة خدنين بدون زواج. وهذا كله ليس بجاد. أما اليوم فإنهم يلحفون بوجه خاص على دليلين:

١ - يقول (يسوع): «من تزوج بامرأة مطلقة يزني». إنه يقول «مطلقة بوجه عام، ولا يقول مطلقة بريئة. ولذا فإن الرجل الذي يتزوج بامرأة مطلقة مذنبه يزني. فإذا اقترف إثم الزنا فمرد ذلك أن المرأة، على الرغم من أنها مذنبه ومطلقة، تظل مرتبطة بزوجها. ولكن زوجها يظل إذا ذاك مرتبطاً بها. وعلى هذا النحو فإن (يسوع) يقصد أنه حتى عندما تُطلق امرأة مذنبه - وللمرء حق فعل ذلك - فإن الرجل يظل زوج المرأة أمام الله، ولذا يمتنع عليه أن يتزوج بأخرى. أترانا نرفض هذا التفسير؟ ←

← ينتج عن ذلك أن الرجل لا يستطيع تزوج المرأة المطلقة البريئة، بل يستطيع الزواج بمطلقة مذبنة، وهذا يعدل تشجيع الزنا.

٢ - إذا كانت كلمات «إلا بسبب الزنا» توجد في نهاية الجملة، وبعد عبارة «تزوج بأخرى» فإن الاستثناء الذي يقره (يسوع) يتناول شطري الجملة معاً، وإذ ذلك يجب أن نقرأ على النحو الآتي: إن من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني، إلا إذا كانت المرأة ذاتها زانية. ولكن الاستثناء يوجد في الواقع قبل كلمتي «ويتزوج بأخرى». ولذا يجب أن نقرأ على النحو الآتي: من يطلق امرأته إلا بسبب الزنا يزني. ومن يتزوج بأخرى يزني (في جميع الحالات).  
إن هذا بارع ولكنه واه.

١ - إن (يسوع) يمنع الزواج بامرأة مطلقة، بريئة أو مذبنة. ولكن هذا سهل على الفهم. إن من يتزوج بمطلقة بريئة يزني (والزنا يقع بها) لأن المطلقة البريئة تبقى امرأة زوجها. ومن يتزوج بمطلقة مذبنة يزني لأنه يتصل بامرأة ظلت هي ذاتها زانية. ذلك أن خطيئة المرأة تحوّر زوجها ولكن خطيئتها لا تبرئ بالطبع المرأة ذاتها. وإن الزواج بها بعد طلاقها يعدل اقرار زنا كزناها. (انظر رسالة القديس بولس الأولى إلى كورنثوس ١٦/٦: من التصق بزانية هو جسد واحد).

صحيح أن (يسوع) يقول: «من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني». إن الاستثناء المعني يوجد إذن بعد الشطر الأول من الجملة، وليس بعد الشطر الثاني. ولكن لا يمكن أن يوجد إلا في هذا المكان. وفي الواقع، لنتخيل أن (يسوع) قال: «من طلق امرأته وتزوج بأخرى، إذا لم يكن بسبب الزنا، يزني». فالجملة ستكون مضحكة بدل أن تكون واضحة. فماذا يعني «تزوج بأخرى إن لم يكن بسبب الزنا؟». من الجلي أن (يسوع) يعني مبدئياً أن من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يقترب الزنا ولكن عندما تقع هذه الجملة في حالة أن الطلاق يرجع إلى سبب زنا المرأة. ولذا كتب على نحو منطقي كل المنطق: «من يطلق امرأته (إلا في حالة الزنا) ويتزوج بأخرى يزني». إن هذا جلي، وهو يعني أن لامناس من توافر أمرين حتى يكون ثمة زنا الرجل: إن يطلق بريئة ويتزوج بأخرى. وبالمقابل إن الرجل الذي يتزوج بامرأة أخرى بعد أن طلق امرأة مذبنة ليس زانياً. فإذا قبلنا هذا الدليل الثاني (ويبدو لي أنه دليل مشترك لدى (سوارن) Souarn و(لاكراخ) قلنا بصورة أوضح: لو أن (يسوع) قصد بالقول إن الرجل يقترب دوماً الزنا إذ يطلق زوجته لقال: من يطلق امرأته (إلا في حالة الزنا) يزني. ومن يتزوج بامرأة أخرى في جميع الأحوال يزني. ولكنه لم يقل ذلك، إذن...

والحق أن الدليل المتين الوحيد الذي يأخذ به النقد الأرثوذكسي هو أن (يسوع) الذي أكد قبل قليل تعذر حل الزواج «لم يشأ أن يناقض نفسه على هذا المنوال» ←



أن يطلق امرأته ويتزوج بأخرى. أما (يسوع) في إنجيل (متى) فإنه يعلن أن هذه القاعدة تبطل عندما يكون سلوك المرأة سيئاً.

ولكن ثمة ماهو أكثر: إن الزواج ينحل بالبعث وبدخول (الملكوت).

وهذه النظرية تمثل إحدى النظريات الأقوى سلطاناً في مجال الوثائق الزوجي. وهي إحدى النظريات التي تصدم الرأي العام أكثر ما تصدم: ذلك أن الرغبة في البعث تصحب في العادة الرغبة في أن تتوافر في حياة أخرى الصلة والحب اللذان عرفناهما في الدنيا. وعلى الرغم من ذلك فإن موقف (يسوع) في هذه النقطة موقف دقيق دقة مطلقة. يقول: «أبناء هذا الدهر يزوجون ويزوجون. ولكن الذين حُسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر واتباعه من الأموات لا يزوجون ولا يزوجون». السبب؟ «إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنهم مثل الملائكة. وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة» (لوقا ٢٠/٣٤) و(مرقس ١٢/٢٥) و(متى ٢٢/٣٠).

إذن إن أبناء هذه الدنيا هم الذين يزوجون ويزوجون. أما أبناء الله فإنهم يكفون عن هذه الصلات التي هي بالنسبة لهم رجسة جداً. إن المرأة التي تبعث «وقد كان لها في الدنيا سبعة أزواج لن يبقى لها أي زوج. وكذلك المرأة التي تبعث ولم يكن لها سوى زوج واحد، لن يكون لها زوج. ولنلاحظ أن (يسوع) لا يقول إن المختارين لن يكونوا أزواجاً وزوجات من وجهة النظر الجسدية وحدها، بل إنه يعلن ما يعلن بحدود مطلقة: إنهم لا يزوجون ولا يزوجون. وبكلمة واحدة، إن ما جمعه الله يفرقه الله.

\*\*\*

ولكن إذا كان دخول (الملكوت) يفصم الوثائق الزوجي، أفلا يكون منطقياً فصمه منذ الحياة الدنيا طلباً (للملكوت)؟

← (انظر: لا كرايخ: متى ص ٣٦٩). وأنا حين أصف هذا الدليل بأنه متين أعني أنه ينبغي أن يبدو متيناً في نظر لاهوتي كاثوليكي. ولكن من البين أنه ليس بمتين في نظرنا نحن الذين عثرنا على عشرين تناقض جلي في الإنجيل.

وفي الواقع، ها هو ذا (يسوع) يعلن قائلاً: أن ليس أحد ترك بيتاً... أو امرأة... من أجل الملكوت إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية (لوقا ١٨/٢٩).

فالمكافأة الزمنية التي تنتظر في هذا العالم الزوج الذي يكون قد ترك امرأته؟ إن الإنجيل لا يذكر ذلك. وقد سأل الامبراطور (جوليان) (٢٣٣) هل أنه يُكافأ بمائة ضعف ويكون له مائة امرأة. ولكن الثابت في الأمر، في جميع الأحوال، هو الفوز بالحياة الأبدية.

وكذلك يمكن افتراض أن الزوج، وهو يترك امرأته، أي يفصل عنها مادياً سيظل زوجها بالروح، بالفكر. ولكن (يسوع) يرفض رفضاً جازماً هذا التفسير. فليس بكافي أن يترك الزوج امرأته بل يجب عليه أن يبغضها. وقد صرح أمام الجموع التي تتبعه - مبيّناً أنه يخاطب الجميع ولا يخاطب نخبة -: «إذا كان أحد يأتي إلي ولا يبغض.. امرأته... فلا يقدر أن يكون تلميذاً لي» (لوقا ١٤/٢٦).

المذهب الآن ناجز تام.

وتجيب الأخلاق الأخرى: إن الزواج شيء أدنى، لا يعرفه أبناء الله. ومن الممكن حلّه. وما ترك امرء وبغضها إلا استحق مكافأة متخيرة في هذا العالم وحياة أبدية في العالم الآخر.

## - ٢ -

المذهبان الأخلاقيان المتصلان بالأسرة: ١ - من جهة أولى، إجلال خصب الزواج. ومن جهة أخرى القول الآتي: طوبى للعقيمين. ٢ - من جهة أولى ينبغي أن يرتبط الأبناء والآباء بالحب والاحترام. ومن جهة أخرى، جاء (يسوع) ليفرق الابن عن أبيه.

«إن طلبتك قد سُمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه

(يوحنا). ويكون لك فرح وابتهاج» (لوقا ١٣/١).

هكذا قال ملاك الرب. ولذا فإن الرب لم يغضب من دعاء (زكريا). وعلى العكس، قبلها وأرسل رسولاً سماوياً ليحمل «البشرى» للأب (لوقا ١/١٩).

وعندما حملت (اليصابات) صاحت: «هكذا قد فعل بي الرب في الأيام التي فيها نظر إلي لينزع عاري بين الناس» (لوقا ٢٥/١). فالعقم إذن عار، وولادة طفل هي نتيجة عطف إلهي.

ويقول (يسوع) في إنجيل (يوحنا): «المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى ولدت الطفل لاتعود تذكر الشدة لسبب الفرح لأنه قد وُلد إنسان في العالم» (يوحنا ٢١/١٦).

ولكن (يسوع) يعلن في الأناجيل المتقاربة وهو ينذر بالكوارث التي ستسبق «النهاية» وأيام الغربة والثبور: «ويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام» (مرقس ١٣/١٧) و(متى ١٩/٢٤) و(لوقا ٢٣/٢١).

ماذا نستنتج من هذا التنبؤ المرعب؟ إن نهاية العالم، كما هو معلوم، قريبة. «لن ينقضي هذا الجيل قبل أن يقع كل شيء». يجب على الإنسان أن يحترس. والوسيلة الوحيدة التي يمتلكها هي أن يحترس من هذه الأيام حيث سيقال: ويل للحبالى! وهذا يعني بالبداية أنه لن يكون لهن أطفال.

وعندما يلتفت (يسوع) إلى النسوة اللواتي يتبعنه وهنّ يلطمن وينحن في مكان عذابه ويقول لهن أيضاً: «يا بنات أورشليم لاتبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن. لأنه هو ذا أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد، والثدي التي لم ترضع!» (لوقا ٢٣/٢٩). وهنا أيضاً ماذا نستطيع أن نستخلص سوى أن من الواجب منذئذ الاحجام عن الإنجاب؟ لقد كان في وسع (اليصابات) أن تفرح من بشارة الملاك وقرب ولادتها. وبنات (أورشليم) لايستطعن النهوض إلا بنذر واحد، وهو أن يبقين عاقرات.

وعبثاً يحاول المفسرون قول (يسوع) يمجّد الأمومة عندما قبل أن يُولد

من امرأة. في اليوم الذي رفعت امرأة صوتها وكانت هذه الفكرة تجول في خاطرها بلا مرء، وصاحت: «طوبى للبطن الذي حملك وللثدين اللذين رضعتهما!» أجاب «بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه» (لوقا ١١/٢٨). ومن العسير أن نجد في هذه الجملة إطرء الأمومة.

\* \* \*

يتضح إذن أنه إن كان للإنسان أطفال كان ذلك سعادة هنا، وشقاءً هناك. لننتقل إلى علاقات الآباء بالأبناء.

يستشهد (يسوع) في مناسبات كثيرة بنص «العهد القديم»: أكرم أباك وأمك. وهو يقسو في لوم اليهود الذين حرّفوا هذا الأمر بإجلال نفاق. فهو يؤيد (الشريعة) القديمة التي تقضي بعقوبة الموت على من يشتم والديه (مرقس ٩/٧) و(متى ٥/١٥). فهو يريد ألا يطيع الأبناء بالقول، بل بالفعل (متى ٢١/٢٨). والابن الصالح هو من يستطيع القول: «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها» (لوقا ٢٩/١٥).

إن حب الآباء أبناءهم هو في نظره الأمر الطبيعي، وحتى الأشرار لا يستطيعون الإفلات من مثل هذا الشعور: «فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً، أو سمكة فيعطيه حية بدل السمكة؟» (لوقا ١١/١١). إن تسامح الأب معين لا ينضب. وعندما رجع الابن الضال صاح الأب: «اخرجوا الحلة الأولى والبسوه واجعلوا خاتماً في يده وحذاءً في رجليه: وقدموا العجل السمين واذبحوه فناولوا ونفح» (لوقا ١٥/٢٠).

ويتأثر (يسوع) بآلام الوالدين اللذين لهما ابن مريض أو اللذين فقدوا ابناً: «يا معلم، أطلب إليك: انظر إلى ابني فإنه وحيد لي». فاستجاب (يسوع) لتضرع الأب (لوقا ٩/٣٨). «ولما جاءه (ياثيرس) قائلاً: «ابنتي الصغيرة على آخر نسمة ليتك تأتي وتضع يدك عليها لتشفى فتحيا فمضى معه» وأنقذ ابنة (ياثيرس) (مرقس ٥/٢٣). «ولما اقترب إلى باب المدينة إذا ميت محمول ابن

وحيد لأمه وهي أرملة ومعها جمع كثير من المدينة. فلما رآها الرب تحنّ عليها وقال لها لاتبكي» (لوقا ١٢/٧).

و(المعلم) مرهف الحس بسحر الطفولة البريئة: «دعوا الأولاد يأتون إلي ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله» (مرقس ١٤/١٠) و(متى ١٤/١٩) و(لوقا ١٦/١٨).

وقد كان (يسوع) يدعو إلى اتخاذه قدوة من حيث علاقته بأمه وأبيه. وقد أوكل أمه إلى تلميذه الذي كان يحبه (يوحنا ٢٦/١٩). وكان يحرص على أن يخزّ راعياً أمام أبيه: «يا أبتاه... ليس كما أريد أنا بل كما أنت تريد!» (متى ٣٩/٢٦). فهو يلجأ إليه في ضيقه (المرجع السابق) ويعترف بأن كل شيء جاءه منه (متى ٢٧/١١) الخ.

وهذا كله ينمّ عن أخلاق تعلّم الأبناء احترام آبائهم، والآباء حب أبنائهم.

بيد أن ثمة نصوصاً أخرى.

\* \* \*

لقد بدأ (يسوع) بالشفاء. واختار تلاميذه الاثني عشر. ويقول (مرقس) وقد علم أن أهله جاؤوا يطلبونه: «فجاءت حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه. وكان الجميع جالساً حوله فقالوا له: هو ذا أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك. فأجابهم قائلاً من أُمِّي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أُمِّي وأخوتي. لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي» (مرقس ٣١/٣).

ومن الجائز، عند الاقتضاء، تفسير موقف (يسوع) بملاحظة أن أمه وأخوته جاؤوا بحسب رواية (مرقس) يطلبونه لعرقلة رسالته. ولكن سائر الأناجيل المتقاربة لاتعزو لهم هذا القصد. وعلى الرغم من ذلك فإن جواب (المعلم) هو هو بجوهرة: أُمِّي وأخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله (لوقا ٨/١٩) و(متى ٤٦/١٢). والظاهر أن (يسوع) يعني أن القرابة الجسدية في نظره

ليست ذات أهمية: وإنما المهم هي القرابة الروحية. ولذا فإنه يرفض رؤية أمه وإخوته ويجيب بتهمك رهيب (في إنجيلي مرقس ومتى): ومن أمي؟  
والموقف ذاته في إنجيل (يوحنا)، في عرس (قانا). وعلى الرغم من ذلك فإن (مريم) لا يمكن أن توصف هذه المرة باللاإيمان. ويبدو تماماً أنها تتكل على ابنها ليحقق معجزة. وعلى الرغم من ذلك فقد أجاب (يسوع): «مالي ولك يا امرأة» (يوحنا ٤/٢).

وبعد المثل، يأتي الأمر.

ولما كان يتهيأ للمسير قال له أحد تلاميذه: «يا سيد ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي. فقال له (يسوع): «اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم» (متى ٢١/٨) و(لوقا ٩/٥٩).

وقال آخر: «أتبعك يا سيد ولكن ائذن لي أولاً أن أودع الذين في بيتي». ويبدو أن مثل هذا الرجاء جد مشروع. فلئن وجب في الحق من أجل (الملكوت) أن يفصم الإنسان صلته بكل من يحبهم، أفلا يقتضي العطف البشري أن يودع المرء من يظلوا والديه وأخوته وإن لم يؤمنوا؟ ولكن (يسوع) يجيب، على الرغم من ذلك، جواباً خشناً: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (لوقا ٩/٦٢).

أترى (يسوع) إذن يستهدف تمزيق الأسر وبترو الروابط التي تصل الآباء بالأبناء مثل فصم صلات الزوج بزوجته؟ أجل، وهو ذاته يقول ذلك بوضوح. لقد ذكرنا سابقاً هذه الجملة التي تعلن الحرب الأهلية، ولا مناص من اندلاعها، بموعظته: «أتظنون أنني جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا، أقول لكم، بل انقساماً. لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة. ينقسم الأب على الابن، والابن على الأب، والأم على البنت، والبنت على الأم، والحماة على كنفها، والكنة على حماتها» (لوقا ١٢/٥١).

وينجم عن ذلك أن على تلاميذ (يسوع) أن يتركوا أسرهم كما ترك هو ذويه. فليس من يترك فقط حقولاً وبيوتاً، وليس من يترك فقط زوجته هو الذي

ستكون له حياة أبدية. بل مَنْ يترك «اخوة وأخوات أو أباً أو أمّاً أو أولاداً» لأجل (يسوع) ولأجل الإنجيل (مرقس ١٠/٢٩) و(متى ١٩/٢٩) و(لوقا ١٨/٢٩).  
 ما السبب؟ يجيب (يسوع): «من أحبّ أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحبّ ابناً أو ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني» (متى ١٠/٣٧).  
 ولكن الواقع أن ليس بمباح أن يُحب المرء أولاده أو والديه حتى ولو أحبهم بأقل من حبه (يسوع): فمن الواجب أن يبغضهم:  
 «إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامراته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي» (لوقا ١٤/٢٦).

\* \* \*

### الخلاصة

يقول لنا الإنجيل في نصوص دقيقة: إن الزواج أمر مقدس ويتعذر حلّه. فالله يبارك الزواج الخصب. والله يريد أن يحب الأب ابنه وأن يكرم الابن أباه.

ولكن ثمة نصوصاً ليست بأقل دقة يقول لنا الإنجيل فيها: الزواج أدنى من العزوبة. وعلى الرجل أن يترك امرأته ووالديه وأبناءه. وإنما تركه إياهم شيء قليل. بل يجب أن يبغضهم. وستأتي الأيام التي سيقال فيها: طوبى للعواقر، وللأحشاء التي لم تنجب، والثدي الذي لم يرضع!  
 إن أحد هذين المذهبين الأخلاقيين يقيم الأسرة، والآخر يهدمها.

## الفصل التاسع

### المجتمع والكنيسة

لننتقل من الحياة الخاصة إلى الحياة العامة: إن الأخلاق تظل متناقضة. فالإنجيل يريد مواطنين خاضعين (لقيصر). ولكنه يقرر أن سلطة (قيصر) شيطانية.

إنه يمنع الناس منعاً باتاً من إطلاق حكم، ولكنه يقيم محاكم.

إنه يلغي بحذف الثروة كل الترتبات الاجتماعية القديمة. ولكنه يقبل أن يكون للمرء خدم، بل وعبيد.

إنه يريد ألا يسعى أحد في الكنيسة ليكون هو الأول. ولكنه يقدم (بطرس) و(الرسل).

— ١ —

السلطة السياسية: ١ - ينبغي الرضوخ للسلطة القائمة، ودفع الضرائب، حتى ولو كانت ظالمة. ٢ - ولكن ممالك هذا العالم هي من (الشيطان) ولو كانت شرعية. وسيقضى عليها انتصار (المسيح).

«إنسان شريف الجنس ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع.



وكان أهل مدينته يبغضونه فأرسلوا وراءه سفارة قائلين: لانريد أن هذا يملك علينا. ولما رجع بعدما أخذ الملك قال: أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي» (لوقا ١٩/١٢).

أترى (يسوع) الذي حكى هذه القصة كان يقدم ذلك الملك السامي على أنه طاغية بشع؟ إن الأمر أنأى عن ذلك. فالملك الغاضب يمثل في هذه القصة ملك السماء. والثورة على الأمير هي إذن، في المجال الزمني، كالثورة على الله في المجال الروحي.

الطاعة واجبة - والإنجيل يحدثنا عن طغاة: (هيرودوس)، الرومانيون؛ إن (يسوع) لم ينس بينت شفة، ولم يلمح لحن اليهود على أن يثوروا على هؤلاء الحكام السيئين. إنه يعرف أنه سيعدم بقرار من (بونس بيلاطس). وعلى الرغم من ذلك فإنه مابرح يدعو إلى دفع الضرائب لـ (قيصر).

سأله الفريسيون مرة: «أيجوز أن نعطي جزية لـ (قيصر) أم لانعطي؟» ولكنه أجابهم وهو يعرف رياءهم: «لماذا تجربوني. ايتوني بدينار لأنظره. فأتوا به. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له: لـ (قيصر). فأجاب (يسوع) وقال لهم: أعطوا مالـ (قيصر) لـ (قيصر) وما لله لله» (مرقس ١٢/١٤) و(متى ٢٢/١٥) و(لوقا ٢٠/٢٠).

أما إذا بدا الظلم من عمال (قيصر)؟ وطلبوا أكثر مما يحق لهم؟ لنعطيهم أيضاً أكثر مما يطلبون، بدلاً من الاحتجاج: «ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين» (متى ٤١/٥).

وهذه الأقوال الشهيرة، مهما قيل في شأنها، تنطوي على برنامج سياسي كامل. ذلك أن ما لـ (قيصر) ليس بالبداية الدينار وحده. بل إن الدينار ليس لـ (قيصر) إلا من حيث أن (قيصر) سكه على صورته. إنه ليس ملكه بالمعنى المألوف للكلمة، وإنما هو رمز سيادته. وعلى هذا فإن تصريح (يسوع) يدل بجلاء على أن للحكام حقوق سيادة وأن من الواجب احترام هذه الحقوق.

ان (قيصر)، في نظر اليهود كافة، وفي نظر (يسوع) ذاته يمثل سلطة فرضت نفسها بالقوة وحدها على أبناء اسرائيل. ولكنها، بهذا الاعتبار، هي سلطة قائمة. ولذا فإن من الواجب إطاعة السلطة القائمة، أية سلطة. بل ليس بذى شأن أن يكون (قيصر) وثنياً.

وقد نتساءل عن الحد الفاصل بين مال (قيصر) وما لله. إن (يسوع) يكتفي في هذه النقطة بقول إن مملكته «ليست من هذا العالم». وقد أجاب (بيلاطس) قائلاً: «أنت تقول إنني ملك. لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لاشهد الحق» (يوحنا ١٨/٣٣).

إذن، ينبغي إطاعة الملوك، إطاعة (قيصر) في شؤون «هذا العالم» ويجب إطاعة الله في شؤون «الحقيقة». وليس من السهل تطبيق هذه الجملة على الدوام. ولكن التمييز جلي بين الروحي، وهو مجال الله، والزمني، وهو مجال السلطة القائمة.

\* \* \*

نخلص من ذلك، بالطبع، إلى أن السلطة السياسية هي سلطة شرعية. ولكن (يسوع)، من ناحية أخرى، يصف بلاط الملوك بأنه مقام الترف والميوعة.

«هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك» (متى ١١/٨) و(لوقا ٧/٢٥).

أما العشارون، وهم جباة الضرائب، فإنهم حقيرون من حيث وظيفتهم يقال: «العشارون والزواني» (متى ٢١/٣١).

ولكن، أخيراً، وبوجه خاص، إن ممالك هذا العالم كلها من عمل الشيطان.

إن في هذا الرأي غلواً كبيراً. ولكن الإنجيل يعرب عنه بوضوح تام. ويكفي أن نعيد قراءة مشهد غواية (المسيح). ثم أصدده ابليس إلى جبل عالٍ

وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان وقال له ابليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إليّ قد دُفع وأنا أعطيه لمن أريد. فان سجدت أمامي يكون لك الجميع» (لوقا ٤/٦) و(متى ٤/٨).

ومن الطبيعي أن يرفض (يسوع) عرض (ابليس) ولكنه لم يشك لحظة في مقال (الغاوي): أعني أن سلطان الممالك والمجد قد أعطي لـ (ابليس) وأن في وسعه أن يعطيها لمن يشاء. ومن ناحية أخرى، لا يتحلى مشهد الغواية بمعنى لو أن (ابليس) قال الحقيقة وقدم عرضاً واقعياً. إذن، إن السلطة السياسية شيء شيطاني. وأن الملوك والرؤساء وأي قابض على هذه السلطة هما عملاء (ابليس)، أتباعه: وهم يمتحون منه العزة والروعة. ولذا نجد (يسوع) يصرح عندما جاء قواد الجند لاعتقاله باسم السلطة القائمة: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لوقا ٢٢/٥٣). فالسلطة السياسية التي توجه الحوادث منذئذٍ توجههم باسم (ابليس)، مادامت شيطانية).

ويتأكد هذا الرأي بقوة في إنجيل (يوحنا): إن (ابليس) هو «رئيس هذا العالم» (يوحنا ١٢/٣١ و ١١/٦). وهو أعظم عدو (للمسيح)، سيد العالم، وهو مصدر كل سلطة سياسية<sup>(٥)</sup>.

وعندما يخاطب (بيلاطس) (المسيح) بقوله: «أست تعلم أن لي سلطاناً أن أصليبك وسلطاناً أن أطلقك؟» أجاب (يسوع): «لم يكن لك علي سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق. لذلك الذي سلمني إليك له خطية أعظم» (يوحنا ١٩/١١).

وقد أبان الأستاذ (دولافوس) بجلاء أن هذا الجواب يتضمن تأكيدين: الأول يخبرنا أن (بيلاطس) يستمد سلطته من علي، أي من كائن يعلو على البشر، من كائن وكيل، وأن من الواجب إطاعته. والثاني يخبرنا أن هذا الكائن الذي هو من علي هو الذي سلم (يسوع) إلى (بيلاطس)، وكيه<sup>(٦)</sup>.

إن هذا الكائن «من علي» ليس هو الله: فمن يجروء على أن ينسب لله

خطيئة؟ وهو ليس (يهوداً): مَنْ سيقول أن (يهوداً) هو «مِن علي»؟ إنه الشيطان، رئيس هذا العالم، صانع موت (يسوع) (يوحنا ٣٠/١٤).

يتضح إذن أن الشيطان هو القابض على السلطة السياسية في نظر الإنجيل الرابع ونظر مؤلفي قصة غواية (المسيح). أما (بيلاطس) و(قيصر) والآخرين فإنهم ليسوا سوى وكلاء (ابليس).

وإذ ذاك لامناص من النتيجة الآتية: أتكون إطاعة (بيلاطس) وإطاعة (قيصر)، وإطاعة أي رئيس زمني آخر، إطاعة (ابليس)؟

ما سبيل الإفلات من أسر هذه الطاعة البشعة؟ بطرد الشيطان من هذا العالم، بتنظيم عالم خالي من الملوك ومن سائر الرؤساء. وقد أعلن (يسوع) في إنجيل (يوحنا) عن هذه الثورة الضخمة بكلمات حازمة سينجزها: «الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يوحنا ٣١/١٢). إن طرد رئيس هذا العالم خارجاً يعني إلغاءً فورياً لجميع السلطات السياسية الصادرة عنه: (قيصر)، (بيلاطس)، وسائر وكلاء الشيطان الذين سيشهدون انهيار نفوذهم.

ويقتصر الإنجيل (الرابع) على إعلان هذا الانقلاب المعجز من دون أن يقدم عنه أي وصف دقيق. ونحن نجد في إنجيلي (لوقا) و(متى) إشارة عملية: لن يكون بين تلاميذ (المسيح) ملوك ولأرؤساء.

يقول (يسوع): «ملوك الأمم يسودونهم». ثم يضيف بتهمك خفي: «والمتسلطون عليهم يُدعون محسنين»<sup>(\*)</sup>. ولكن مثل هذا التنظيم ينبغي ألا يوجد بين التلاميذ: «وأما أنتم فلستم هكذا» (لوقا ٢٢/٢٥). «أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هكذا فيكم» (متى ٢٠/٢٦).

(\*) إن التهمك بديهي. فلو أن يسوع كان ينظر إلى الملوك وإلى رؤساء الأمم نظرته إلى محسنين حقيقيين لامتنع فهم قوله بعدئذ: «وأما أنتم فلستم هكذا». أو إنه كان من الواجب القول بأنه يحظر على تلاميذه أن يكونوا محسنين.

إن أحد مذهبي الأخلاق المائلين في الإنجيل كان يعطي الله أمور الروح، ويعطي لـ (قيصر) أمور الدنيا. وهذا المذهب يريد خضوع المسيحيين في شؤون الروح لله، لأن ما يتصل بهذا العالم هو لـ (قيصر).

والمذهب الآخر يعلم أن كل سلطة سياسية هي من الشيطان، وأن (قيصر)، بالتعريف، هو عميل الشيطان. وهذا المذهب يدعو لثورة ضخمة ويعلمها وهي ستطرد الشيطان من هذا العالم وتخلع (قيصر) عن عرشه. فمن جهة أولى روح الخضوع، ومن جهة أخرى روح الثورة.

— ٢ —

العدالة الإنسانية: ١ - يعترف (يسوع) بالمحاكم القائمة ويقيم محكمة جديدة. ٢ - يقول (يسوع) للناس: لاتصدروا حكماً!.

يؤيد (يسوع) في «الموعظة على الجبل» وجود المحاكم القائمة من حوله. «وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال رَقاً يكون مستوجب الجمع» (متى ٥/٢٢).

وفي إنجيل (لوقا) أمثلة تفضح الحاكم الصالح الذي يدفعه الكسل إلى رفض الحكم بالعدل - ولذا فإن (يسوع) يريد أن ينهض القاضي بواجبات منصبه (لوقا ٤/١٨).

ولكن يوجد أكثر من ذلك. ففي إنجيل (متى) نجد (يسوع) ينشئ هو نفسه أصول مرافعة ومحكمة خاصة بالمسيحيين.

«وان أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما إن سمع منك فقد ربحت أخاك:

«وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحداً أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة.

«وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة، وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار» (متى ١٥/١٨).

إذن، إيضاح بالحسنى، ثم احتكام، وأخيراً حكم رسمي تطلقه الطائفة. وبذا تنتظم عدالة مسيحية.

\* \* \*

ولكن من ذا الذي سيقف أمام هذه المحكمة؟

لقد رأينا أن على المسيحي الذي لطمه أخوه على خده ألا يشكوه إلى المحكمة بل أن يمدَّ له الخد الآخر.

والمسيحي الذي يريد أحد اللصوص أن يسرق ثوبه عليه أن يترك له الرداء أيضاً بدل تقديم شكوى ضده.

وعلى المسيحي الذي يشتمه أحد الناس ألا يعفو عنه سبع مرات، بل سبعين مرة سبباً.

وإذا كان الحاكم مؤمناً لم يكن له الحق في أن يدين أحداً: لأن من الواجب أن يكون بلا خطيئة من يرمي الحجر الأول.

لم نتحدث عن حجارة؟ إن من أراد أن يكون مسيحياً وجب عليه أن يمتنع عن إصدار حكمه على أي شخص: «لاتدينوا لكي لاتدانوا. لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم. ولماذا تنظر القذى في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفتن لها. أم كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك وها الخشبة في عينك. يا مرأي! اخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك» (متى ١/٧).

إذن، مثلما يجب أن يكون المرء بلا خطيئة حتى يدين، كذلك فإن من الواجب ألا يكون في عينه خشبة ولا قذى حتى يحكم.

يقول (يسوع) في إنجيل (لوقا) بإيجاز: «لاتدينوا فلا تدانوا» (لوقا ٦/٣٧).

وعلى هذا النحو نجد من ناحية أولى الأمر الآتي: ادينوا! ومن ناحية أخرى: لاتدينوا!

### — ٣ —

المراتب الاجتماعية: ١ - إن المسيحي الملزم ببيع جميع أمواله لا يستطيع أن يشغل سوى أدنى منزلة في الترتب الاجتماعي. ٢ - ولكن الإنجيل يقبل أن يكون للمرء خدام، وأن يعاملهم بهذه الصفة.

«بغ ما تملك وأعطه للفقراء». إن تطبيق هذا الأمر يحول على الفور دون قيام ترتب اجتماعي بين المسيحيين.

أجل، إن النسب لا يمكن بالبداهة أن يكون مصدر تمايز بين الناس. والولادة الوحيدة التي يمكن اعتبارها هي الولادة الروحية التي تجعلنا، بالنار والماء، أبناء الله.

وعلى الصعيد السياسي لامجال للترتب. وليس في مكنة (قيصر) وعملاء (قيصر) أن يرقوا فوق عامة البشر، بل إنهم يسقطون إلى ما دونهم لأنهم من الشيطان.

والثروة وحدها يمكن أن تنجب بعض الفوارق بين الناس: ولكن الثروة بما أنها وزر ظالم يجب الإفلات من أسرته، فإن المسيحي، بدل أن يتطلع لأي سمو، لن يستطيع أن يشغل إلا المنزلة الأدنى في المجتمع.

ويصرح (يسوع) تصريحاً منطقياً: «إذا أراد أحد أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل» (مرقس ٩/٣٥). وكذلك: «من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً» (متى ٢٠/٢٧).

إذن، في عالم سيكون الناس فيه كلهم مسيحيين، لا يمكن أن يستمر أي ترتيب اجتماعي. إن أحداً لن يطلب «المتكأ الأول في الولايم» ولا «التحيات في الأسواق» (متى ١٣/٦). ولما كان الجميع فقراء على قدر سواء، فلن يكون ثمة رؤساء ولا تابعين، أسياد ولا خدام. وعوضاً عن أن يرقى كل واحد فإنه سيسعى للإنحدار. لن يكون على الأرض إلا وضاء، يخدمون وضاء.

\*\*\*

ولكن إلى جانب هذه الأخلاق القائلة بالمساواة في الزهد، ينطوي الإنجيل على أخلاق أخرى تقرّ كل الإقرار الترتب الاجتماعي القديم، بل وتقرّ الأفكار المبيّنة عن الطبقات الحاكمة.

ففي كل خطوة نجد في الأناجيل المتقاربة إشارة إلى أسياد وخدم. الزارع يخاطب عبده (متى ١٣)، والمسافر يوزع على عبده أعمالهم (مرقس ١٣/٣٤) والكترام يرسل «عبده» ليأخذ أثماره (متى ٢١/٣٤).

ولا يقتصر الإنجيل على الإحجام مطلقاً عن لوم هؤلاء الأسياد لأن لهم خدماً وعبداً وعلى استخدامهم، بل إنه يعترف بأن ثمة واجبات تقع على عبيد رجل تجاهه. فمن الواجب أن يكونوا أمناء، وأن يكونوا متيقظين: طوبى لذلك العبد الأمين الذي سيجد معلمه ينهض بعمله بأمانة (لوقا ١٢/٤٣). وتعبساً للعبد الخبيث الكسول، «للعبد البطال»: إن معلمه سيطرحه إلى الظلمة الخارجية (متى ٢٥/٣٠).

لاريب في أن السيد، السيد الصالح، سيحسن معاملة عبده. وفي البيت الذي غادره الابن الضالّ يلقي الأجراء «خبزاً» أكثر مما يحتاجون إليه (لوقا ١٥/١٥).



١٧). ولكن ثمة نقطة مهمة لأنها تنم عن سلطة الأخلاق التطبيقية، وهي أن (السيد) لا يحسب نفسه ملزماً بعرافان فضل العبيد الذين يجيدون عملهم. انهم أتباعه. ومن البسيط كل البسيط أن يخدموه قبل أن يخدموا أنفسهم.

يقول (يسوع): «ومن منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له ادخل من الحقل، تقدم سريعاً واتكئ؟ بل ألا يقول له: إعدِد ما أتعشى به وتمنطق واخدمني حتى آكل وأشرب وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت؟ فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به؟» (لوقا ١٧/٧).

كيف نقيم اتساقاً بين هذه الأخلاق «البرجوازية»، بل الأكثر من برجوازية، وبين تلك التي رأيناها سابقاً؟ هناك، كان السيد يتخذ من نفسه خادم خادمه حتى يحظى بالسما. وهنا نجد يجلس ويتكئ إلى مائدته ويقول لعبده: اخدمني! وعندما يخدمه لا «يقرّ له بالعرافان» فمن خدمه إنما قام بما يملكه عليه منصبه.

وهذا الطراز من الفكر يظهر في الإنجيل غير مرة: ليس «العبد أفضل من سيده» (متى ٢٤/١٠) «ليس عبد أعظم من سيده» (يوحنا ١٥/٢٠).

وهناك سمة «مباغثة» على نحو أعظم: ليس العبد صديقاً. وعندما شعر (يسوع) بدنو نهايته خاطب تلاميذه قائلاً: «لا أعود أسمىكم عبداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. لكني قد أسمىكم أحياناً لأنني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يوحنا ١٥/١٥).

وأخيراً، يمضي (يسوع) حتى إلى اتهام عبيده الملتزمين بوجه عام بأنهم يعوزهم الإخلاص. يقول: «الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. وأما الذي هو أجير وليس راعياً الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلاً ويترك الخراف ويهرب فيخطف الذئب الخراف ويبدها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف» (يوحنا ١٠/١٢). وقد أصاب الأستاذ (لوازي) في قوله: «من الثابت أن تلك ليست حال جميع الأجراء» (الإنجيل الرابع ص ٣٢٤). ولا يمكننا أن نرى في هذا التصريح سوى صدى تلك الجملة الجاهزة التي يأخذ فيها الأسياد،

بوجه عام، على خدامهم فقدان إخلاصهم.

ولنلاحظ أخيراً أن الإنجيل لا يذكر جملة احتجاج واحدة على الرق: إن العبد المذكور سابقاً والذي يتمنطق ينظر إلى سيده وهو يأكل، هذا العبد ليس بإنسان حرّ، بل إنه عبد.

#### — ٤ —

الكنيسة: ١ - يشغل (بطرس) و(الرسل) منزلة بارزة في الكنيسة. ٢ - إن أحداً من المسيحيين لا يمكن أن يكون «أول»، لا المعلم، ولا العليم.

كما يوجد ترتب في المجتمع حيث يكون إنسان سيّداً والآخر عبداً، كذلك سيكون ترتب في الكنيسة: إن (بطرس) والرسل سيكونون رؤساء.

يقول له (يسوع) في إنجيل (لوقا): «ثبت اخوتك» (لوقا ٢٢: ٣٢). ويكرر في إنجيل (يوحنا) القول ثلاث مرات: «إرغ عني... إرغ غنمي.. إرغ غنمي» (يوحنا ١٦/٢١ وما بعد). ولذا فإن (بطرس) سيغدو راعي تلاميذ المسيح. ومن العسير أن نتصور أن الراعي ليس ذا سلطان على قطيعه.

ومن ناحية أخرى، إننا جميعاً نعرف المقطع الشهير من إنجيل (متى): «وأنا أقول لك أيضاً أنت (بطرس) وعلى هذه الصخرة ابن كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات. وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السموات» (متى ١٦/١٨).

صحيح أن النص لا يذكر أن سيكون لـ (بطرس) خليفة، وأن هذا الخليفة سيتمتع بامتيازاته ذاتها. ولكن من الثابت جداً أن النص يقول إن الكنيسة ستبنى على (بطرس)، وأن (بطرس)، من ثم، سيشتغل بين المؤمنين منزلة رفيعة لا يمكن

أن يطمح إليها أي شخص آخر.

ثم يليه (الرسل) الذين سيشغلون هم أيضاً مكانة متميزة في الكنيسة. فهم لن يكونوا «مكرّسين بالحقيقة» و«مزودين بقوة عليا» وحسب، بل إنهم سيتمتعون بسلطات خاصة: سيكون لهم أن يغفروا الخطيئة أو يبقوها (يوحنا ٢٣/٢٠) وقد قال لهم (يسوع) كما قال إلى (بطرس): «كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء» (متى ١٨/١٨).

يتضح من هذه النصوص أن الكنيسة التي أسسها (يسوع) هي كنيسة من النمط الملكي والأرستقراطي: ففي الأعلى: (بطرس) و(الرسل). وفي الأدنى سواد المؤمنين.

\* \* \*

بيد أن التلاميذ كانوا يتبادلون الحديث وهم في الطريق إلى (كفر ناحوم). ولما وصلوا البيت سألهم (يسوع): «بماذا كنتم تتكلمون بينكم في الطريق؟». ولكنهم سكتوا لأنهم «تجاجوا في الطريق بعضهم مع بعض في مَنْ هو أعظم. وإذا ذلك جلس (يسوع) ونادى الاثني عشر وقال لهم... ماذا؟ أن يكون (بطرس) هو الأول، هو الأعظم؟ أن يكون هو الذي يرعى القطيع؟ كلاً... قال لهم: «إذا أراد أحدكم أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل» (مرقس ٩/٣٣ وما بعد).

من المحال إذن أن تتوافر بين الاثني عشر أية أولوية. ولاريب في أن عبارة (يسوع) ذات مدى عام. إنه لا يقول: إذا أراد أحد منكم أن يكون الأول، بل اكتفى بالقول: إذا أراد أحد... وعلى هذا فإن الصيغة تنطبق على جميع المؤمنين. ولكن من الجلي، بالاستناد إلى ماسبق، أن (يسوع) قد فكر في الاثني عشر أولاً، وفيما كانوا يتحدثون عنه في الطريق.

ومرة أخرى أيضاً، عندما طلب (يعقوب) و(زبدي) إلى (يسوع) أن يجلس أحدهما عن يمينه في (الملكوت) والآخر عن يساره قال: «أنتم تعلمون

أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً» (متى ٢٥/٢٠) و(لوقا ٢٢/٢٥).

إن العبارة دقيقة هذه المرة: لارؤساء بين التلاميذ، لا أولوية. أريد (بطرس) أن يكون هو الأعظم؟ إن عليه ألا يطلق أوامر، بل أن يطيع، أن يخضع للآخرين خضوع عبد لسيده، أن يكون نعجة، لاراعياً.

لارئيس في الكنيسة: ويتسق مع هذا المذهب ألا يريد (يسوع) عرض حالة المسيحي المتهم على (بطرس) و(الرسل)، ولا على أي رئيس، بل على الطائفة بأسرها. فجملة الأخوة المتساوين هي وحدها التي ستدين المتهم أو تبرئه، تغفر خطيئته أو تبقى عليها.

أنقول هل ينتج عن امتناع حق إصدار حكم أو أمر أن يباح لبعض المسيحيين على الأقل أن يكونوا «سادة» بالمعنى الروحي للكلمة، ويعلمون الآخريين فقه دينهم؟

إن (يسوع) يحرص على تنبيهنا للاحتراز من هذا اللبس. وقد خاطب الجموع وتلاميذه بقوله: «وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لأن معلمكم واحد (المسيح) وأنتم جميعاً أخوة. ولاتدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات.

ولاتدعوا معلمين لأن معلمكم واحد (المسيح)» (متى ٢٣/٨ وما بعد).

وبما أن الكاثوليك يستعملون اليوم ألقاب «أب» و«دكتور»، فإن مفسريهم يلقون عناءاً كبيراً في تمويه معنى كلمات (يسوع). ولكن كيف يمكن حجب البدهة الدقيقة؟ إن (يسوع) لا يريد «معلمين» ولا «دكاترة» ولا «آباء» مثلما لا يريد في كنيسته رئيساً يأمر. ومن يأخذ هذه الألقاب أو يقبلها يتخطى حقوق الله: ذلك أن ليس لنا سوى معلم واحد، ونحن جميعنا دونه أخوة، أي متساوون.

لقد شادت الأخلاق الأولى كنيسة ملكية وأرستقراطية. وأسس

الأخلاق الأخرى كنيسة ديمقراطية قوامها المساواة.

\* \* \*

يتضح إذن أن الأخلاق المتصلة بالمجتمع وبالكنيسة ليست بأقل تناقضاً من الأخلاق المتصلة بالأسرة.

إن (يسوع) يدعو للخضوع إلى السلطات القائمة، ويقبل وجود محاكم، ويؤيد ضروب الترتب الاجتماعي القديم، ويعطي كنيسة رؤساء. ولكن (يسوع) يدعو للثورة التي ستقلب السلطات القائمة، وتحظر على المسيحيين إصدار حكم، وتمنعهم من أن يكونوا سادة ورؤساء سواء في السماء أو في الكنيسة.

فهو يدعم البناء الاجتماعي العتيق بيد، ويسعى لهدمه باليد الأخرى.

## الفصل العاشر

### لاتوجد أخلاق إنجيلية

لنوجد حصيلة ما تقدم من دراستنا.

إنها حصيلة بسيطة

لا أخلاق إنجيلية

فمن جهة أولى، توجد في الإنجيل أفكار متناقضة تتصل بما ندعوه اليوم الأخلاق النظرية.

ومن جهة أخرى يوجد مذهباً أخلاق عملية.

إن الأفكار المتناقضة لا يمكن إرجاعها إلى مذهبين متعارضين، ولكن متسقين: فهي تصدر في نقطة من النقاط عن نظريتين وتصدر في نقطة أخرى عن نظريات ثلاث.

ولكن التعاليم العملية تتوزع بدقة بين فئتين: وهي تشكل مذهبين لكل منهما مبدؤه الخاص: الأول يدعو إلى الفرع من العالم، والآخر يحترم العالم.

التناقضات النظرية: ١ - نظريات متناقضة في موضوع الطقوس والإيمان والحرية والجزاء الأخلاقي. ٢ - هذه النظريات المتناقضة لاترجع إلى مذهبين.

هناك مذاهب ثلاثة في مجال علاقات الأخلاق بالطقوس: الأول يؤكد

استقلال الأخلاق عن الطقوس ولا يقرّ سوى الرجس الأخلاقي. والثاني يؤيد طقوس التطهير الواردة في (الشريعة) الموسوية القديمة دون أن يدخل عليها أي تعديل. والثالث يقيم طقوساً جديدة.

وفي مجال علاقات الأخلاق بالإيمان يوجد مذهبان: الأول يؤكد رجحان الأخلاق وقرّ خلاص اليهود ويعلن أن الإيمان لايقود إلى الخلاص إلا بالأعمال. والمذهب الآخر يؤكد رجحان الإيمان، ويدين اسرائيل، ويعلن أن مَنْ يؤمن يخلص، ومَنْ لا يؤمن يهلك.

وثمة فيما يتصل بالمسؤولية والحرية مذهبان: الأول يعلن أن الناس أحرار، وأنهم يسمعون الكلام جميعاً، وأن في وسعهم وحدهم العمل به، وأن اختيارهم سيجعلهم أبرياء أو آثمين. والمذهب الآخر يعلن أن الناس كافة لا يسمعون الكلام، وأن الله يقصد عمى بعضهم، وإنارة بصيرة الآخرين، وأن المختارين ليسوا هم الذين اختاروا الله، بل إنهم مَنْ أختارهم الله.

وفي ميدان الجزاء توجد ثلاث مذاهب: الأول يعد المؤمن بالخلاص ويمجد اسرائيل الناجية من أعدائها. والثاني يعلن بعث الأجساد، والسعادة الجسمانية، أو العذاب الجسmani. والثالث يقتصر على وعد ببعث روحي محض ينجز منذ الحياة الدنيا، وهو الانتقال من الخطأ إلى الحقيقة.

أترانا نستطيع توزيع هذه المذاهب كلها في منظومتين كبيرتين؟ لا ريب في أن قليلاً من المهارة يجعل من السير الاضطلاع الناجح بذلك. ولكن النتيجة الناجمة على هذا النحو لاتساوي في العادة أكثر من تكلفتها. فمن الأفكار السابقة ما يمكن جمعه جمعاً متناسقاً: مثال ذلك تأييد الطقوس اليهودية، وخلص اليهود الموعود، والنظرة اليهودية لهذا الخلاص. ولكن هذه الأفكار الثلاثة لاتتضمن اختيار الله المسبق بأكثر من تَصْنُفُهَا فكرة الحرية. وكذلك يمكن قبول رجحان الإيمان لدى قبول ضرورة الطقوس، أو دون هذا القبول. ومن الجائز الإيمان ببعث الأجساد دون الإيمان بالحرية الإنسانية، أو على العكس، مع الإيمان بها.

وينجم عن ذلك أن سيكون من العبث الإدعاء بإرجاع جميع هذه الأفكار إلى منظومتين متسقتين. فهي تصطدم بعنف بعضها مع بعض على أرض كل مشكلة نظرية. ولكن الممارك الخاصة التي تضطرم في ميدان الطقوس والإيمان والحزبية لانتشكّل، بمثل هذا القدر، حلقات من صراع عام بين طريقتين متعارضتين في تصور الأخلاق.

## - ٢ -

مذهب الأخلاق العملية: ١ - هناك طائفة أولى من التعاليم تشكل أخلاقاً متسقة تنطلق من مبدأ الفرع من العالم. ٢ - وطائفة أخرى تشكل أخلاقاً مبدؤها احترام العالم.

وإذا ما تصورنا التعاليم المتصلة بالممارسة ألفينا، على العكس، كأنها تتوزع من تلقاء ذاتها بين فئتين.

الفئة الأولى: لا تقتل أبداً، لا من أجل العقوبة، ولا حتى من أجل الدفاع عن النفس. ومن لطمك على خدك فحوّل له الآخر. وإذا أخذ ثوبك؟ فأعط رداءك. لا تستل سيفك أبداً. ما فائدة ذلك؟ وإذا ما اضطهدت فهل فرحاً. وإن انقاذك حياتك يعدل هلاكها. بئ جميع أموالك وأعط ثمنها للفقراء. ليس لك كيس ولا مزود. إن كنت فقيراً فابق فقيراً، وعش مع الفقراء، حيث تجعلون كل شيء مشتركاً بينكم. لا تعمل لكسب رزقك: إن الزنايق لا تعمل. إن كنت عزباً فلا تتزوج: احص نفسك من أجل (ملكوت السموات). وإن كنت متزوجاً فامتنع عن الإنجاب: ها هي ذي الأيام التي تأتي ويقال فيها: طوبى للعواقر! احتقر أسرتك الجسمانية. اترك والديك وأبناءك. أبغضهم. انظر إلى السلطات السياسية نظرتك إلى الشيطان. لا تكن ملكاً، ولا قاضياً، ولا سيداً. ترقب الثورة الكبرى التي ستري انهيار العروش، وهي ستجعل الأغنياء فقراء، والأواخر أوائل. لا تدع أحداً «أباً» ولا «دكتوراً»، حتى داخل الكنيسة ذاتها: ف (يسوع)



وحده هو الدكتور والمعلم، وجميع الناس دونه اخوة ومتساوون.

ألا نرى جميعنا أن كل هذه التعاليم يتسق بعضها وبعض وتشكل «كلاً» يدعو أحدها الآخر. كل شيء جلي. المبدأ: الفرع من العالم.

العالم؟ إنه (المجتمع) الذي ننتمي إليه ونضطلع بمصيره. إنه الأسرة التي يربطنا بها ألف وثاق متين أو ضعيف. إنه الثروة التي تغذي حياة البشر حتى ولو كان توزيعها ظالماً. وهو أخيراً الحياة ذاتها والتي كل ما عداها لاشيء. إن بغض العالم هو إذن، من الناحية المنطقية، بغض (المجتمع)، والأسرة، والثروة، والحياة بالذات.

وهذا البغض للعالم عذب بحركاته، وبصورة موقوتة. والمسيحي لن يندفع نحو غزو العالم الملعون. إنه، على العكس، سيتحمل أسوأ صنوف المعاملة دون أن يجأ بالشكوى. ولكن حقه، وإن لم يكن حقداً فاعلاماً منذ الآن، يظل على الرغم من ذلك، حقداً قوياً: إن من يجسدون هذا العالم، الشيطان، الأغنياء، الملعونون قاطبة، سيُعذبون عندما يحين الوقت. وإنما يتفجر الفرع من العالم، منذ اليوم، صيحات وحشية هنا وهناك: تعساً لكم أيها الأغنياء! تعساً لمن ستكنّ حبالى!... وأيضاً: أبغض امرأتك، وأباك، وابنتك!.

لذا ينبغي الاحتراس، كل الاحتراس، من الاعتقاد بأن هذه الأخلاق، وهي وادعة وحائلة، هي أخلاق زهد صابر. ولا ريب في أن الإنسان الذي سيتحلى بها في هذه الدنيا سيتميز في أعماله باحترام القريب، والعذوبة حيال أعدائه، وأنه ضحية متأهبّ دوماً للصفح والمغفرة. ولكنه، بدل الصبر، يتربق، على العكس، رعشة عنيفة، يتربق نهاية هذا العالم الذي يمقته، وينتظر الانقلاب العظيم الذي سيكون المجتمعات، والأسر، والأغنياء، وأولي النفوذ، ويتيح - أخيراً - (للمسيح) أن يقول: «انتصرت على العالم». وبذا ستزدهر فوق الأطلال ما لانعرف من أعاجيب.

طائفة ثانية من التعاليم: اتباع سيفاً. اعدم المجرمين. إذا هدّد الموت حياتك

فأهرب إلى الجبل. إذا اضطهدت في مدينة فاهرب إلى أخرى. - خذ كيساً ومزوداً. اشتغل لتكسب رزقك. استثمر أموالك بتوظيفها لدى أصحاب المصارف. تصدق: ولكن أحداً لا يطالبك باعطاء كل ماتملك. دع حقلاً لتفوز بمائة حقل، وبيتاً لتلقى مائة بيت. - تزوج وكن مع امرأتك جسداً واحداً. افرح إن أنجبت زوجتك ابناً. أكرم أبك وأمك. أحب أطفالك، وكن متسامحاً معهم. - اخضع للسلطات القائمة. أعط ما لقيصر لقيصر. أحكم على اخوتك. وإذا كانوا عصاة اطردهم. ليخدمك أتباعك. وليجلب لك عبدك وهو متمنطق طعامك. احترم في الكنيسة الرؤساء ورعاة القطيع الذي وهبوا أنفسهم للحقيقة، وهم سادة يحطون عنك خطيئاتك، أو يقونها عليك.

هنا أيضاً، كيف لاندرک أن التعاليم تترايط، وأن مبدءاً مشتركاً يسودها؟ وهذا المبدأ يعارض كل المعارضة مبدءاً الأخلاق الأخرى، وقوامه بوجه الدقة احترام العالم؟

إن السلطات الدينية موجودة. وقد ظلت موجودة منذ القدم والرؤساء السياسيون موجودون. والمحاكم موجودة. وصنوف الترتب الاجتماعي موجودة. والأسرة موجودة: وبدل الثورة على هذه الوقائع، علينا أن نحترمها. وإن العالم يحيا بمن هم مواطنون صالحون، ومعلمون صالحون، وعبيد صالحون، وآباء صالحون، وأبناء صالحون: فلنكن هؤلاء كافة. والعالم يحيا كذلك بلا ريب، يحيا بالجهد الدؤوب الذي ينفقه من يعملون ويكسبون رزقهم: فلنعمل لكسب رزقنا. أجل، إن عالماً آخر سيأتي بلا ريب، وهو عالم أعدل، وأعذب، وأفضل: ولكن الذين سيسهمون فيه هم الذين يحترمون في هذا العالم النظام ويعملون للحفاظ عليه.

والحق أن هذا المذهب الأخلاقي الثاني هو الذي يمكن أن ندعوه، بوجه من أوجه الاعتبار، أخلاق الصبر، لأنه يتكيف والمسيرة العامة للعالم الذي يتعلق به. ولكن هذا الصبر صبر فاعل مادام يجعل الإنسان مواطناً نافعاً، رب أسرة، عاملاً.

وفي الأحوال كلها، يبقى ثمة واقع لا يطاقه الشك: إن هذه الأخلاق تعارض بدقة معارضة عنيفة الأخلاق المرتعة التي حدّناها قبل هنيهة. فإذا ما اصطدمت التعاليم، فذاك يرجع إلى أن المبدئين يتناقضان.

نخلص إذن إلى أن تعارض النظريات يؤدي إلى مذهبين أخلاقيين متناقضين. فهل يمكن رفع هذا التناقض؟ وإن امتنع ذلك فهل يمكن تفسيره؟

## الفصل الحادي عشر

### بعض محاولات إقامة الوحدة

على الرغم من أن الباحثين يتحدثون، بوجه عام، عن «أخلاق إنجيلية» فإن التناقضات النظرية والعملية التي يحفل بها الإنجيل قد لا تستحوذ على انتباه القراء المتعجلين، وبالحرى اللاهوتيين والمؤرخين والمفسرين.

لذا بذل الباذلون، منذ بعيد، جهودهم للتخفيف من هذه التناقضات، إن لم نقل لحذفها.

وهذه الجهود قميئة بالاحترام. وهي في الغالب بارعة ونافعة. ولكنني أود أن أظهر خلوها من القيمة على الصعيد العلمي.

— ١ —

طريقة اللاهوتيين: ١ - بعض أساليب حذف التناقضات. ٢ - صعابها. ٣ - إنها خالية من القيمة من وجهة النظر العلمية.

يعتنق اللاهوتيون المرغمون على أن يقدموا للمؤمنين قاعدة جلية بارجاع النصوص إلى الوحدة، يعتقدون الطريقة التالية: حينما تتناقض النصوص تناقضاً حرفياً يبحثون عن الروح التي يقولون إنها واحدة.

فماذا تراهم فاعلون لبلوغ مآربهم؟ إنهم يضعون على المستوى الأول النصوص المؤيدة لمذهبهم تاركين لها ملء معناها (أي الأخلاق التي تعلمها الكنيسة آنئذ) ويتملصون من النصوص الأخرى بـ «شرحها».

وهم في سبيل هذا الشرح يستعملون سبلاً واثقة.

إما أن يفسروا معنى كلمة، أو جملة، ويوضحوا دلالتها الخام وكلما مضوا في بيانهم استولى الغموض على البدهاة ذاتها وفزّ المعنى الذي كان يفرض نفسه.

وإما أن يعلنوا أن في النص الذي تبدو دقته، في بادئ الأمر، مزعجة، أن فيه «معنى مضمرًا وبديهيًا»، وأن هذا المعنى المضمر (وهم يملكونه) يجعل النص يقول عكس ما يبدو من دلالاته.

وإما أن يذهبوا إلى أن من الواجب الإحجام عن فهم الصيغة المزعجة فهماً «حرفياً»: فهي عندهم مجاز، طراز من طراز التعبير، صورة مضحّمة، غلو.

وإما، أخيراً، أن يفترضوا، في حالات اليأس، أن الكاتب الإنجيلي لم يعرف كيف يعبر، وأنه «تعثر» قليلاً في إنشائه، ولذا نجدهم يتفضلون هم بالرجوع إلى المصدر الذي استقى منه وإذ ذاك يستعيضون هم عما تعثر فيه بما كان عليه أن يذكره.

وعندما يبرع أحدهم باللعب باثنتين أو ثلاث من هذه السبل تتلاشى التناقضات، وتخفّ التعارضات، وترجع الوحدة للظهور.

\*\*\*

أتريدون بعض الأدلة على ذلك؟

إنني لن أسأل مفسري عصر الآباء أو العصر الوسيط، وهم غرباء عن مناهجنا الإنتقادية. بل أسأل كتاباً كاثوليكين معاصرين، وبعضهم، مثل الأب (لاكرانج)، من العلماء الأفذاذ البارعين.

إليكم الجملة الشهيرة التي تؤيد (الشرعية) الموسوية: لا يفنى حرف ولا نقطة من (الناموس). وقد سأل الأب (لاكرانج): كيف نؤفق ذلك مع إلغاء الشرعية الموسوية؟ والحق أن الأمر يبدو عسيراً. ولكن الأب (لاكرانج) يجيب بهدوء لا يفوقه هدوء: «ذلك أن (يسوع) لم يكن يستهدف القانون الأخلاقي الذي لا يزول» (القديس متى ص ٩٤). فكيف تسنى للمفسر أن يعرف قصد (يسوع) وأنه حين يقول (الناموس) إنما يعني جزءاً من (الشرعية)، الجزء الأخلاقي؟ إن المعنى المضمر الرهيب أمر بديهي.

وفي إنجيل (متى) يعلن (يوحنا المعمدان) أن عماد (يسوع) لن يكون بالماء. وعلى العكس، يطرد إنجيل (يوحنا) من الملكوت كل من لا يولد ولادة جديدة بالروح و«بالماء». فكيف نحذف هذا التناقض؟ وبما أن الكنيسة قد اعتنقت في الواقع العماد بالماء، فإن الأب «ابلامي» Abbe Bellamy يكتب بهدوء: «لأشياء يمنع الاعتقاد بأن الله لما يكشف النقاب بعد عن جميع الطقوس المقومة للعماد للقديس (يوحنا المعمدان) الذي كان في وسعه آنذاك أن يتكلم كلاماً لا يخلو من الغموض». وبعبارة ثانية، من «المضمر» أن (متى)، وهو يذكر قول (المعمدان)، يستشهد به على أنه مثل عما لا ينبغي الإيمان به.

ألا يكفي هذا التفسير؟ إليكم تفسيراً آخر: عندما يقارن (المعمدان) عماده وهو بالماء بعماد (يسوع) وهو الذي سيكون بالنار وبالروح، فهذه المقارنة لاتتناول قوام الطقوس، بل نجوعه وحسب: ذلك أن (يوحنا) يعني أنه «بقدر ما أن تأثير النار يبدئ تأثير الماء، فإن عماد (يسوع) سيكون أعلى من عماده لتطهير الروح من رجسها»<sup>(\*)</sup>. وبكلمة وجيزة، النار هي الماء، وإذ ذاك يتضح كل شيء.

(\*) معجم اللاهوت (مادة: العماد/ث ١٧٠). أننا نعلم بصدد مسألة العماد جملتي إنجيل (يوحنا) المتناقضتين أشد التناقض: «ويعد هذا جاء (يسوع) وتلاميذه إلى أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يعمد» (يوحنا ٣/٢٢)، و«مع أن (يسوع) ←

إن إنجيل (يوحنا) يفسر تفسيراً مادياً طقس الأوخارستيا (القربان المقدس): «جسدي مأكّل حق ودمي مشرب حق» (يوحنا ٦/٥٥) ولكن هذا الإنجيل ذاته يجعل (يسوع) يقول بعد قليل: «الجسد لا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يوحنا ٦/٦٣). أريدو ذلك متناقضاً؟ لنطمئن: إن تفسيراً أول كاثوليكيّاً يتقدم ويعلمنا: إن كلمة جسد في الجملة الأولى تعني الجسد. ولكن كلمة جسد في الجملة الثانية تدل مجازاً على «عواطف الطبيعة الإنسانية». وبهذا يزول التناقض (\*). ويأتي مفسر كاثوليكي آخر وهو الأب (كالم) Calmes ويقول: «عندما يعلن (يسوع): «الكلام الذي أقوله لكم روح وحياة» فإن لفظ (كلام) لا يدل، (كما قد يخطر في البال)، على كلام (المسيح) بل على «الأشياء المقولة» (\*\*). وكل شيء يصبح نظامياً.

إننا نعرف، عن ظهر قلب، الجملة الجميلة في الإنجيل الرابع: «تأتي الساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق». (يوحنا ٤/٢٣). إن هذه الجملة وحدها تلغي كل الطقوس، فكيف نوفقها مع الجمل التي تقيم في الإنجيل الطقوس أو تؤيدها؟ يجيب الأب (كالم): إن كلمات «بالروح والحق» إنما تهدف إلى الدلالة على «كلية الطقس». والجملة الشهيرة تعني إذن أن خصوصية (الشريعة) القديمة ينبغي أن تفسح المجال أمام العبادة الكلية. ولكن من المعلوم أن هذه العبادة الكلية قد يكون لها «معابدها، وقرايينها، وحفلاتها». ويكفي لذلك أن نقرأ أن «العبادة الروحية» تدل على «عبادة مادية كلياً» (\*\*).

← نفسه لم يكن يعتمد بل تلاميذه» (يوحنا ٤/٢). وربما بدا أن التوفيق محال بين القولين. خطأ. فالأب (كالم) يكتب بكل تؤدة بصدد الجملة الأولى: «إن فعل العباد المعزوة نحوياً إلى (يسوع) إنما يرجع في الواقع إلى تلاميذه» (ص ١٩٤) وهكذا!..

(\*) معجم اللاهوت مادة أوخارستيا ج ١٠٠٧ .

(\*\*) كالم: ص ٢٦١ .

(\*\*\*) انظر كالم ص ٢٠٩ .

يقول الإنجيل الرابع: «إن اليهود لم يقدرُوا أن يؤمنُوا لأن (اشعيا) قال أيضاً: «قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم» (يوحنا ١٢/٤٠). فكيف نوفق هذه النصوص مع تلك التي تقول إن اليهود إن لم يهتدوا فذلك نتيجة خطيئتهم؟ يقول الأب (كالم) حرفياً: «ينبغي تلطيف هذه العبارات على نحو يمكننا من أن نعزو لها معنى يقبل الإنسجام مع مذهب الإنجيل». وعلى هذا فإن السبب الوضعي لهذا العمى هو كله لدى اليهود. وما الله سوى سببه السلبي من حيث أنه لم يمنعه. (القديس يوحنا ص ٣٦٢).

وبقول وجيز: «لم يقدرُوا أن يؤمنُوا» تعني «لم يريدوا أن يؤمنُوا» وتدل إن الله أعمى اليهود، يعدل قول: إن اليهود أعموا أنفسهم. وعندما «نلطف» العبارات على هذا المنوال تتلاشى كل صعوبة.

\*\*\*

أيود القارئ بعض أمثلة عن «التفسيرات» المتصلة بالأخلاق العملية؟

يقول (يسوع): «وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر لا يجلس أولاً ويتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً» (لوقا ١٤/٣١). أجل، يبدو من الغريب أن يتحدث (يسوع) بمثل هذه البساطة عن ملك «يذهب للحرب» في إثر تلك الجمل الكثيرة التي تتحدث عن صانعي السلام وعن الودعاء. فماذا يفعل الأب (لاكرانج)؟ إنه يقول: «يبدو أن بلاد هذا الملك بلاد محتلة» (القديس لوقا ص ٤١١). والجملته تبدو نابية عن الكلمة المشهورة: «كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون» (متى ٢٦/٥٢). صبراً! يقول الأب (لاكرانج): «إذا قبلنا أن (يسوع) يرسم هنا، بوجه عام، سمات وضع شديد القتام حيث يكون القول الفصل للسيف على الدوام، دون أن ينصح (رساله) باستخدامه بحال من الأحوال، فإنه قد استطاع بيان أن مما يتميز به هذا الوضع هو ضرورة اللجوء إلى السيف من أجل الحياة، إذا لم يكن للمرأة مال ولا مؤن». ليفهم من يقدر على الفهم! ويرد الأب (لاكرانج) قائلاً



دون أن يضحك (أو على الأقل دون أن نراه يضحك): «إن الجملة حين نفهمها على هذا النحو واضحة كل الوضوح» (القديس لوقا ص ٥٥٧).

وعندما دعت أم (يسوع) ابنها لم يلحق بها وقال: «ومن أمي وأختي؟» (مرقس ٣/٣٣). وقد يقول قائل: إنها شتيمة خطيرة. ولكن الأب (لاكرانج) (وهو يستند هذه المرة إلى سلطة القدامى) يقول: «إن (الآباء) قد لاحظوا أن هذا الجواب لا ينطوي على أية شتيمة لذويه، ولا على ما ينافي الواجبات التي تفرضها شريعة الله» (القديس مرقس ص ٧٠).

يقول (يسوع): «لا تدينوا». ونجده في أمكنة أخرى يؤيد وجود المحاكم، أو يقيم محاكم. تناقض؟ كلا. إن الأب (لاكرانج) يكتب بصدد الأمر الأول: «ليس الأمر بالبدهة أمر أحكام يطلقها المرء داخل نفسه، أو في نطق دون تفويض» (القديس لوقا ص ١٩٧). فإذا قلنا هذا التحديد «البديهي» زال التناقض.

يقول (يسوع): «وأما أنتم فلا تُدعوا سيدي لأن معلمكم واحد (المسيح) وأنتم جميعاً أخوة. ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات ولا تُدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح» (متى ٨/٢٣ وما بعد). وهذا القول يعارض النصوص التي توجب أولوية (بطرس) و(الرسول) (وهذا يغيّر العرف الكاثوليكي المائل في دعوة البابا «الأب المقدس جداً» وإقامة دكاترة). وعلى ذلك فإن البروتستانت يستشهدون طوعاً بهذا النص في مناقشتهم الكنيسة الرومانية. يقول الأب (لاكرانج): «إنه لوم فريسي يطرح حالات حرفية بأكثر من حالات الروح». إن المسيحيين الأوائل «فهموا حق الفهم أنه ينبغي ألا نأخذ هذه الآراء على علّاتها مأخذاً حرفياً» (القديس متى ص ٤٤٠).

في وسعي أن أضيف إلى هذه الأمثلة عدداً لا يحصى من أضرابها. ولئن مضيت إلى كتب «اللاهوت الأخلاقي» ألفيت، دون عناء، مؤلفين متميزين بالبراعة. من ذلك عبارة: «أحب قريبك كما تحب نفسك» تعني: «أحب

قريبك بأقل مما تحب نفسك» (لأن كلمة كما إذا فهمنا حق الفهم دلت على معنى المشابهة دون المساواة). ومن الممكن أن نفظن للجمل التي تصعق الرياء وهي تبيح التضييق العقلي، ونجد الأمر القائل: «أعط ما لقيصر لقيصر» وهو يبيح الغش الضرائبي<sup>(\*)</sup>.

إن المؤلفين الذين ألححت إليهم هم باحثون وقورون ومعتدلون، وأنا أشعر لدى المقارنة بأني أسيء إليهم إذا قارنتهم بأصحاب الفتاوي. زد على ذلك أن الكاثوليك ليسوا وحدهم الذين يستعملون هذه الطريقة اللاهوتية. وإن البروتستانت ليلجأون إليها عند الاقتضاء. أما المفكرون الأحرار فإنهم بلا ريب لا يفسرون النصوص لينتزعوا منها معنى مبالغاً، بل لم يتفق لهم في أغلب الأحيان الاستشهاد بالنصوص التي تروقهم وإهمال سواها.

\* \* \*

إن مثل هذه الطريقة لاتبقي على أي تناقض. ومن الممكن التوفيق بين (أبيقور) و(أفلاطون)، وبين كتابي «المحاكاة» Imitation و«كاركانتوا» (Gargantua)، وعلى هذا النحو يصار إلى توفيق جميع النصوص المتناقضة في الإنجيل لاستخلاص أخلاق كاثوليكية ومحافضة، أو لاستخلاص أخلاق ديمقراطية، أو أخلاق اشتراكية، بحسب الرغبة. فمنذ اللحظة التي يمنح المرء فيها نفسه الحق في اختيار بعض الجمل والتخلص من جمل أخرى، إما

(\*) أجزى لنفسي إحالة القارئ على دراستي عن «الفتوى المسيحية المعاصرة» (دار نشر الكلمة ١٩١٣) ولاسيما ص ٣٨ وما بعد وص ١٣٦ وما بعد.

وعلى هذا النحو فإن الأستاذ (كوكول) Goguel صاحب الدراسات المتينة جداً في الغالب يكتب، بالرغم من ذلك: لا يمكننا أن نفهم فهماً حرفياً تصريحاً من طراز ما يلي: «إن كان أحد يأتي ولايبغض أباه وأمه... الخ (مرقس ١٩/٢٦) لماذا؟ لا يمكن الفهم الحرفي؟ «لايتسق» والانطباع العام الناجم عن تعليم (يسوع) ومع (مرقس) (٦/٧ - ١٣). ولاريب في أن «اللاتساق» يضمحل بفضل مثل هذه الطريقة (كوكول: «ملاحظات على أخلاق يسوع» في المجلة الفلسفية ١٩٢٣ ج ٢ ص ٢٧٨ وما بعد).

بتجاهلها، وإما بتفسيرها، لأشياء يغدو أيسر من إقامة الوحدة بين المذاهب. بيد أن من يعتنق وجهة نظر العلم يدرك أن هذا الطراز من الجهود يمثل تحدياً لكل طريقة علمية سليمة، وهل يحتاج ذلك إلى بيان؟

إن شارح الإنجيل إنما يختار، باسم تفضيله الشخصي، تصريحاً معيناً ليتألق في النور، ويختار نصاً آخر ليغرقه في الظلام، فيحفظ للنص الأخير معناه، ولكنه يقلب عن التصريح الأول معناه. فالشارح هو إذن صانع وحدة المذهب الوحيد الذي يقيمه إذ ذاك ويروق له أن يعمده بنعت الإنجيل: وهو في الواقع من صنعه.

أجل، إن لهذا المذهب شأوه بهذا الوجه من أوجه الاعتبار:

أخلاق (القديس أوغسطين)<sup>(٢٤)</sup> Augustin، أخلاق (القديس توما<sup>(٢٥)</sup>) St. thomas D'Aquin الاكويني، أخلاق (بوسويه)<sup>(٢٦)</sup> Bossuet، أخلاق (روسو)، أخلاق (لامنه)، أخلاق (سان سيمون)، وهي كلها أبنية جميلة. ولكن مجرد ادعائها كلها أنها إنجيلية يكفي ليحمل على القول إن أيّاً منها ليس كذلك تماماً.

إن القاعدة الكبرى التي تسود الطريقة العلمية هي احترام الحادث احتراماً رقيقاً. وهو في دراستنا احترام النصوص. وهذه القاعدة الأساسية المطلقة إنما يخالفها كل من يسلم عن جملة من الجمل أدنى قدر من معناها الجلي ليجعلها ترضخ لمذهب مبيت. وليس في مكنة أي حرص على الوحدة أن يسوغ غير ذلك. وما قيمة وحدة كاذبة تُنال على حساب الوقائع؟ إن أنبل رغبة أخلاقية لاجتياز لأي عالم أن يمس معنى نص من النصوص.

إنني أفهم أن هذا القانون، قانون العلم، لا يمكن أن يقيد اللاهوت. وأن الأهداف المختلفة تقابلها طرائق مختلفة. ومن البديهي أن العلم بالمعنى الذي نقصده هو أمر ثانوي جداً في نظر من يملك الحقيقة سلفاً بطرق أخرى. وعلى هذه فلسفة أرمي إلى نقد اللاهوتيين الذين يمشون، باسم يقين أعلى من كل يقين علمي، إلى توحيد الأخلاق الإنجيلية بإثارة حدة النصوص أو بتشويهها.

ولهم الحق بذلك من وجهة نظرهم. ولكن طريقتهم من وجهة النظر العلمية لا يمكن حتى أخذها بعين الاعتبار. فلا شيء يسوّغ الإساءة إلى واقع هو واقع الإساءة إلى النص.

ومن هنا يتضح سبب أنني لن أت مهل فترة أطول أمام الجهود التي بذلها اللاهوتيون بغية القضاء على التناقضات الأخلاقية في الإنجيل. فمن يشعبذ بمعنى النصوص يجد أن التصريحات التي أشرنا إليها سرعان ما تكفّ من التناقض: أما في نظر العلم فإنها متناقضة.

## — ٢ —

محاولات أخرى لإقامة الوحدة: ١ - القول إن للمذهبيين الأخلاقيين مبدءاً مشتركاً. ٢ - أحد المذهبيين الأخلاقيين يخاطب النخبة والآخري جميع المواطنين. إن هاتين النظريتين تصطدمان بالنصوص.

ولقد حاول الباحثون إقامة الوحدة بطرق أخرى.

قالوا: لنوقف المناقشة. لاريب في أن الإنجيل ينطوي على أكثر من تناقض. ولكنه في الوقت ذاته ينطوي على مبدءاً مشترك يسوده كله: ولما سأل أحد (الدكاترة) (يسوع) عن أعظم أمر في (الشريعة) أجابه قائلاً: «تحب الله من كل قلبك، وقريبك كنفسك». وإذ ذاك ما شأن التناقض في هذه المسألة أو تلك من المسائل العملية؟ فذاك هو الأمر الأعظم. وهو أمر مطلق. وينبغي الرجوع إليه كلما ظهرت حالة ريب: إنه وحده هو القانون.

هذه النظرية ذائعة اليوم كل الذبوع. ولكن ما قيمتها؟

لنفرض أننا نتخذ «مبدءاً مشتركاً» جواب (يسوع) «للدكتور» (على الرغم من أن في وسعنا، بمثل هذا الاعتبار، أن نتخذ صيغاً إنجيلية أخرى، ومثلاً الصيغة القائلة: «مَنْ يُؤمن له الحياة الأبدية» أو «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية») فعندما نعتنق هذا الإختيار نحصل على وحدة لفظية. وبعدئذٍ؟

إن الصيغة القائلة ذاتها: «أحب الله وقريبك» قد توائم الأخلاق الفيثاغورية<sup>(٢٧)</sup>، وأخلاق (فولتير) Voltaire، وأخلاق (روسو): أفنقول: إن هذه المذاهب الأخلاقية كلها متماثلة؟ وعلى ذلك نجد أن الجملتين اللتين تتألف منهما هذه الصيغة إنما متحهما (يسوع) من «العهد القديم»: أترانا نقول لا توجد أخلاق إنجيلية وأن «العهد القديم» قد قال سلفاً كل شيء؟

الحق أن هذه الجمل العامة يمكن أن توجد متشابهة في منطلق مذاهب أخلاقية متباينة كل التباين. «أحب الله»: حسن جداً! ولكن أي اله؟ إن المسألة كلها هنا. «أحب قريبك»: رائع! ولكن كيف أحبه؟ تلکم هي المشكلة. وإن روح المذهب الأخلاقي بأسره لتتبع الإجابة عن هذين السؤالين.

لقد اتفقت لنا الإشارة إلى أن في الإنجيل، من الناحية الأخلاقية، إلهين: اله الوداعة والمغفرة الذي لم يرسل ابنه ليدين العالم، بل ليخلص العالم معه، الإله الرحيم الذي يجعل شمس تشرق على الأبرار والأشرار، إله التواضع الذي يتأنس ويدير خده للطمه ويحيا في الفقر ويموت على الصليب. وهناك الاله الغني والقادر الذي يحكم عبده ويخشوه، وهو يبید أعداءه، ويبشّر الأمم بمصائب وبهدم (أورشليم)، وهو يدين الخاطئين ويرسلهم إلى الظلمة الخارجية حيث الدموع وصرير الأسنان.

يقولون لنا: تشبّهوا بالإله. ولكن بأي هذين الإلهين؟ إن جملة سلوكنا الأخلاقي تتبدل تبع محاكاتنا هذا الإله أو ذاك.

والحال ذاتها فيما يتصل بالأمر الآخر: «أحب قريبك»... هذا قول سريع، ولكن كيف نحبه؟ أيجب علينا بسائق الحب احترام حياة اخوتنا ونجدتهم والعفو عن الأشرار وتقديم خدنا لهم ومنحهم أموالنا كلها، أم يجب علينا بسائق الحب، إعدام المجرمين، واستلال السيف، وحمل عبيدنا على التمنطق لخدمتنا؟ أيجب علينا، بحافز الحب، أن نحب، بالمعنى المؤلف للكلمة، الزوجة، والأبناء، والأخوة، والأخوات، والوالدين؟ أم أن علينا، بدافع الحب، أن نتركهم و«نبغضهم»؟ إن أحد مذهبي الأخلاق الماثلين في الإنجيل يدفعنا في اتجاه، والآخر في الاتجاه الآخر.

إنني أفهم تماماً أن قليلاً من البراعة يجعل من اليسير تبيان أن بغض المرء ذويه هو حبه إياهم حباً حقيقياً، وأن هجر الرجل زوجته هو الوسيلة المثلى ليكون وإياها جسداً واحداً، وأن اعدام المجرمين هو في الواقع إسداء خدمة لهم. ولكن هذه المفارقات الصغيرة المستعملة لاتقدر على أن تجد محللاً لها في نطاق بحث جاد. ولذا ليس في مكنة الوحدة الخادعة لصيغة من الصيغ أن تخفي عن أنظارنا التناقضات الأخلاقية التي يحفل بها الإنجيل.

نظرية أخرى: لئن كان في الإنجيل مذهبان أخلاقيان فذلك لايرجع إلى أن (يسوع) يناقض نفسه بل إلى أن ثمة فارقاً بين ما يوصي به ومايلزم به. فالأخلاق التي تنشد الامتناع التام والإحجام هي أخلاق يقترحها الله على النخبة، ولكنه لايلزم بها عامة البشر. أما الأخلاق الأخرى، وهي أقل رفعة وسمواً، فإنها لاتمثل المثل الأعلى، بل الحد الأدنى: إن واجباتها مقتضبة، وتنازلاتها تبلغ الحد الأقصى.

وهذه النظرية تلقى ذيوماً مذهلاً في تاريخ الشعوب المسيحية: فقد طُلب من رجال الدين، ولاسيما من الرهبان، التقيد بأخلاق الامتناع تقيداً صارماً. وطلب من السواد مراعاة الأخلاق الأخرى. فمن جهة أولى، وُجد بعض مؤمنين متميزين امتنعوا عن كل قتل، ولم يملكوا شيئاً، وتركوا أسرهم، وأحجموا عن تأسيس أسر جديدة، وظلوا بمنأى عن المعارك السياسية. ومن جهة أخرى، وُجد أناس ثابروا في إثر (المسيح) على العيش كما ينبغي لهم من خوض معارك، وإعدام مذنبين، ومن العمل والكفاح في سبيل المال وتأسيس أسر وتنظيم المجتمع.

ولكن لسوء حظ أنصار هذه النظرية من المحال دعمها بأي نص من نصوص الإنجيل.

ولو أن (يسوع) الإنجيل أراد أن يقدم للناس مذهبين في الأخلاق، أحدهما خاص بالنخبة، والآخر بالجمهور، لكان أبان ذلك بوضوح. «ليس في

هذه الفكرة أي إرهاف يتعذر تفسيره: وهل أبسط من أن يقول مثلاً للشباب الغني: بـع كل ما تملك، أو يقول، على الأقل، بـع نصف ما تملك، أو ربه، أو عشره؟ وما أبسط أن يقول لغيره: إبـغض أبـاك وابـنك - أو يقول، على الأقل: لاتـدع العواطف الشهوية تستولي على روحك بأسرها.

بيد أن (يسوع) لايقول شيئاً من هذا القبيل.

فهو لا يحرص حين يطلق أمراً ينطوي على بعض قسوة، لا يحرص على أن يضيف، كما في «الاشعار الذهبية» للفيشاغوريين: «... إذا استطعت لأن الممكن يجاور الضروري». بل إنه يعلن بصراحة مطلقة أن من الواجب التقيد بإطاعة الأمر، وأن من لا يطيع ذلك يطرد من (الملكوت): لا تستل السيف لتلا تهلك به. لا تحاول إنقاذ حياتك حتى لاتفقدھا. إغفروا وإلا فلا يُغفر لك. لا تنقل لأخيك: يا معتوه! وإلا أصبحت مداناً بنار جهنم. لا تكن غنياً، وإلا فإنك «ستجوع». بـع كل ما تملك وإلا حرمت من ملكوت السموات. ابغض امرأتك ووالديك وأطفالك، وإلا فلن تكون «للمسيح» تلميذاً. لا تحاول أن ترفع من نفسك حتى لاتصبح الأدنى.

إن هذا واضح كله: فالأمر ليس أمر مثل أعلى ينبغي التطلع إليه، بل مثل أعلى لسنا ملزمين ببلوغه. إن الأمر أمر تعاليم موجهة للجميع دون أن تتسع أية كلمة منها لقبول أي تضيق. من قاوم فإنه سيُدان. ولا يقتصر ذلك على مخالفة أكثر النصوص دقة ومخالفة روحها معاً، بل إنه يسلك عن الأخلاق الرفيعة كل ما يجعلها رقيقة.

لنتقل إلى المذهب الآخر، المذهب الذي يعلم احترام العالم. فأين يقدم (يسوع) هذا المذهب على أنه أخلاق من الدرجة الثانية، نوع من الحل الأسوأ الجدير بالعامه؟ إنني أفهم أن هذا المذهب لا يتجلى في صيغ مبهرة كالصيغ السابقة لأنه هو ذاته مذهب أقل إبهاراً. ولكنه لا يخجل البتة في أن يكون على نحو ما هو عليه. إنه يأمر، ويتوقع إطاعة أوامره. بل إنه يوحى بصفحات ممتعة.

لنأخذ مشكلة الحياة الإنسانية؟ إن (يسوع) يعرب عن رأيه بعبارة

صريحة: اشتروا سيوفاً. وبعبارة صريحة أيضاً يؤيد قانون قتل الناس بعضهم بعضاً. ينبغي قتل كل من يشتم أباه أو أمه. وبعبارة صريحة كذلك يقول: إذا اضطهدهم في مدينة فاهربوا إلى مدينة أخرى. وليس الأمر أمر تنازلات. بل هي أوامر.

وعلى صعيد الثروة؟ إنها جملة قوية معزوة إلى الله، وهي تتصل بحق التملك. «أليس مباحاً لي أن أفعل ما أريد بما أملك؟» إنه حكم مبرم يقضي بطرد العبد المذنب الذي لم يضع أموال سيده في المصرف وقذفه إلى الظلمة الخارجية. وهذا تصريح رسمي يعد التلاميذ بريح مادي، بيوت وحقول، لقاء هديهم.

أما في مجال الأسرة؟ فإن الله نفسه هو الذي أمر بالزواج، وأمر بإكرام الأب والأم. وفي دنيا المجتمع؟ إنها جملة بارعة، ولكنها قاطعة، تلك التي تأمر بدفع الضرائب. وإنه بأمر دقيق من (يسوع) تقام المحاكم المسيحية ويقام الحرمان. وهذا الأمر يجعل (بطرس) رئيس القطيع.

وأخيراً، إذا كانت أخلاق الامتناع توحى بخواطر قوية تظل منقوشة في الذهن، فإن الأخلاق الأخرى تحسن الإعراب عن ذاتها بحكايات عذبة مؤثرة: أجل إن (أب) الابن الضال لا «يبغض». إنه يجهل الأخلاق الجافة التي تجعل هذا الحق قانوناً. وعلى الرغم من ذلك فمن يجسر على الزعم بأن قصته، حتى ولو نظرنا إليها من وجهة النظر الإنسانية وحدها، لاتنم إلا عن رأي أخلاقي وضيع جدير بالعامّة، عن شيء ما عادي لا يحظى باهتمام النخبة؟

هذا «التفسير» الثاني، كما ترى، لا يستطيع مواءمة الحوادث فليس في الإنجيل بالفعل مبدأ يسود مذهبي الأخلاق. وكذلك لا توجد أخلاق خاصة بالنخبة وأخرى خاصة بالعامّة. (وإلى جانب الفوارق النظرية) يوجد مذهبان يتجهان كلاهما إلى الجميع، ولكنهما يتناقضان.



محاولة تفسير أخيرة: إن التناقض يتلاشى إذا نظرنا إلى كل إنجيل وحده. ١ - التناقضات في الإنجيل الرابع. ٢ - التناقضات في الأناجيل المتقاربة.

يبقى اعتراض من نوع آخر.

سيقال: من البراعة المسرفة أن ننظر إلى الأناجيل الأربعة على أنها كل، وأن نمتح من هنا وهناك، ونرصف الصيغ المختارة بعضها إلى جانب بعض. ألا تنبثق التناقضات بكل بساطة عن أن لكل مؤلف إنجيلي مايفصل من الناحية الأخلاقية؟ أفلا تضحل هذا التناقضات إذا درسنا هذه الأناجيل فنفصل أحدها عن الآخر بدل اعتبارها جملة واحدة.

لاشيء أكثر معقولة، بصورة مسبقة، من مثل هذا الاعتراض.

قلت فيما سبق لماذا كنت أنظر في القسم الأول من هذه الدراسة إلى الأناجيل الأربعة نظرتي إلى كتلة واحدة. ولكن قد يتفق أننا نرى التناقضات تتلاشى عندما نفرق هذه الجملة.

بيد أن فحص النصوص لا يؤيد مثل هذا الاتجاه.

إن الإنجيل الرابع يتميز عن الأناجيل المتقاربة بصبغته العامة، ويمتد ذلك إلى وجهة النظر الأخلاقية. إنه من صنع كاتب نظري يعنى بالمشكلات الفلسفية أكثر من عنايته بالمشكلات العملية. ولذا فإنه يعلمنا أسوأ تعليم عن المذهب بالمعنى الصحيح، عن التعاليم المتصلة بالحياة، وبالملكية، وبالأسرة. ولكن مؤلف الإنجيل الرابع يناقض نفسه في كل لحظة أشد التناقض في المجال النظري الذي يقتصر عليه.

وينفرد إنجيل (مرقس) عن الأناجيل المتقاربة بأنه يحدث الانطباع، بادئ ذي بدء، بأنه واحد غيرها، ولكن ذلك يرجع بكل بساطة إلى أنه يضم عدداً أقل جداً من الصفحات المتصلة بالأخلاق. لاتوجد «موعظة على الجبل»

والأمثال المضروبة قليلة. وبوجه الإجمال، صورة فقيرة جداً عن الأخلاق المعزوة إلى (يسوع). ولكن ذلك لا يمنع من أننا نجد تناقضات خطيرة في التعاليم التي يذكرها (مرقس).

وهذه التناقضات تنفجر في كل صفحة من صفحات إنجيلي (متى) و(لوقا) وفي كل نقطة. فالتعاليم، كما نعرف، كثيرة. وكذلك الأمثولات. ولكن كلما كثرت المعلومات كثر اصطدام بعضها ببعض.

وهذا ما سيظهر من اللائحتين التاليتين. الأولى تحتوي نصوصاً متناقضة في الإنجيل الرابع تتصل ببعض مشكلات الأخلاق النظرية، والثانية تحتوي نصوصاً متناقضة في الأنجيل المتقاربة مما يتصل ببعض مشكلات الحياة العملية.

## ١ - تناقضات إنجيل (يوحنا):

### (١) مع العهد القديم، وضده

جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص (٨/١٠)  
... الخلاص هو من اليهود (٤/٢٢).

### ٢ - الأخلاق والطقوس

الله روح. والذين يسجدون له في الروح والحق ينبغي أن يسجدوا لله (٢٤/٤).  
إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله (٥/٣).

تأتي الساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب والحق (٢٣/٤).  
إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم (٥٣/٦).

أما الجسد فلا يفيد شيئاً (٦٣/٦)  
من يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية (٥٤/٦).

الكلام الذي أكلمكم به هو روح  
وحياة (٦٣/٦)

لأن جسدي مأكّل حق ودمي  
مشرب حق (٥٥/٦).

### ٣) الأخلاق والإيمان

وصية جديدة أنا أعطيتكم أن تحبوا  
بعضكم بعضاً (٣٤/١٣)

هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي  
هو أرسله (٢٩/٦).

### ٤ – الحرية والمسؤولية

لو كنتم عمياناً لما كانت لكم  
خطيئة (٤١/٩)

لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا  
قولي. أنتم من أب هو ابليس...  
(٤٣/٨ ، ٤٤)

لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم  
تكن لهم خطيئة (٢٢/١٥)

لم يقدرُوا أن يؤمنوا لأن (أشعياء)  
قال أيضاً.. «قد أعمى عيونهم  
وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا (١٢/  
٣٩ ، ٤٠).

### ٥) الدينونة

لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين  
العالم بل ليخلص به العالم (٣/  
١٧)

الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى  
كل الدينونة للابن (٢٢/٥).

### ٦) البعث الروحي والبعث الجسدي

من يسمع كلامي ويؤمن بالذي  
أرسلني فله حياة أبدية. قد انتقل  
من الموت إلى الحياة (٢٤/٥)

... وأنا أقيمه في اليوم الأخير  
(٥٤/٦)

يتضح إذن أننا حين ننظر إلى الإنجيل الرابع وحده نجد أكثر الأناجيل رفضاً قاسياً للـ «العهد القديم»: «جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص». ولكن هذا الإنجيل هو أيضاً الذي يؤكد أن «الخلاص هو من اليهود» وهو الذي يعلن في صيغة متألفة ظهور ديانة روحانية محضة. ولكنه هو كذلك الذي يعلن أن من دون العماد بالماء ودون أكل الجسد يمتنع الخلاص. ويبدو أنه يرجع الشريعة الأساسية إلى شريعة المحبة.

ولكنه في الوقت ذاته يبدو أنه يرجع المحبة إلى الإيمان. وهو يبين أن لاختيئة حيثما يوجد عمى. ولكنه يدين اليهود الذين لا يقدرّون على الإيمان لأنهم عميان. وهو يقول إن ستكون دينونة وسوف لا تكون ويصرح أن مَنْ يؤمن فقد بُعث سلفاً وأن له سلفاً الحياة الأبدية ويصرح أنه سيبعث في اليوم الآخر.

لننتقل إلى التناقضات الأخلاقية في الأناجيل المتقاربة: وقد رأيت اجتناب الإطالة بالاعتصار على ذكر بعض الجمل المتصلة بالأخلاق العملية.

## ٢ - التناقضات الأخلاقية في الأناجيل المتقاربة

### (١) - الحياة الإنسانية

#### آ - القتل

أنت تعرف الوصايا.. لا تقتل (مرقس ١٠/١٩)

ماذا يفعل صاحب الكرم. يأتي ويهلك الكرّامين (مرقس ٩/١٢)

ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص (لوقا ٩/٥٥)

لأنه يكون ضيق عظيم على الأرض وسخط على هذا الشعب ويقعون بقم السيف (لوقا ٢١/٢٣)

## ب - الحرب

لاتظنوا أنني جئت لألقي سلاماً  
على الأرض. ماجئت لألقي  
سلاماً بل سيفاً (متى ٩/٥)

يشبه ملكوت السموات إنساناً  
ملكاً صنع عرساً... (وهذا الملك)  
أرسل جنوده وأهلك أولئك  
القاتلين وأحرق مدينتهم (متى  
٧ ، ٢/٢٢)

ومن ليس له (سيف) فليبع ثوبه  
ويشتر سيفاً (لوقا ٣٦/٢٢)

طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء  
الله يدعون (متى ٩/٥)

ردّ سيفك إلى مكانه لأن كل  
الذين يأخذون السيف بالسيف  
يهلكون (متى ٥٢/٢٦)

أحبو أعداءكم... (لوقا ٢٧/٦)

## ج - عقوبة الإعدام، الدفاع المشروع عن النفس

موسى قال... من يشتم أباً وأماً  
فليمت موتاً (مرقس ١٠/٧)

وأنا أقول لكم إن كل من يغضب  
على أخيه باطلاً يكون مستوجب  
الحكم (متى ٢٢/٥)

يأتي سيد ذلك العبد في يوم  
لا ينتظره فيقطعه (متى ٥٠/٢٤)

لا تقتل (مرقس ١٩/١٠)

لاتدينوا لكي لاتدانوا (متى ١/٧)

وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر  
بل من لطمك على خدك الأيمن  
فحوّل له الآخر أيضاً (متى ٥/  
٣٩)

## د - الرفافة

ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما  
رآه تحنّ فتقدم وضمّ جراحاته  
وصبّ عليها زيتاً وخبثاً (لوقا  
٣٣/١٠)  
قال يا أبي (ابراهيم) ارحمني  
وأرسل (لعازر) ليبلّ طرف اصبعه  
بماء ويبسّرد لساني.. ولكن  
(ابراهيم) يقول.. بيننا وبينكم  
هوة عظيمة قد ثبتت... (لوقا  
٢٤/١٦ ، ٢٦).

## هـ - احتقار الحياة

لاتخافوا من الذين يقتلون الجسد  
ولكن النفس لا يقدرّون أن يقتلوها  
(متى ١١/٥)  
ومتى طردوكم في هذه المدينة  
فاهربوا إلى الأخرى (متى ١٠/  
٢٣)  
وسوف تسلّمون... ويقتل منكم  
(لوقا ١٦/٢١)  
ولكن شعرة من رؤوسكم لاتهلك  
(لوقا ١٨/٢١)

## ٢ - خيرات هذا العالم

### آ - الثروة وملكوت الله

إن مرور جمل من ثقب ابرة أيسر  
من أن يدخل غني ملكوت الله  
(متى ٢٤/١٩)  
جاء رجل غني من الرامة اسمه  
(يوسف) وكان هو أيضاً تلميذاً لـ  
(يسوع). (متى ٥٧/٢٧).

### ب - الصدقة

بغ كل مالك ووزع على الفقراء  
(لوقا ٢٢/١٨)  
أنا يا رب أعطي نصف أموالي  
للمساكين.. فقال له (يسوع):  
اليوم حصل خلاص لهذا البيت  
(لوقا ١٩/٨ ، ٩).

## ج - النزاهة

فمدح السيد وكيل الظلم إذ  
بحكمة فعل... وأنا أقول لكم  
اصنعوا لكم اصدقاء بمال الظلم  
(لوقا ٨/٩)

أنت تعرف الوصايا: ... لاتسرق  
(لوقا ٢٠/١٨)

## د - الاهتمامات المادية

لا تحملوا شيئاً للطريق، لاعصا  
ومزوداً ولا خبزاً ولا فضة (لوقا  
٣/٩)

لكن الآن من له كيس فليأخذه  
ومزود كذلك... (لوقا ٣٦/٢٢)

ليس أحد ترك بيتاً أو اخوة أو  
أخوات أو أباً أو أمماً أو... إلا  
ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا  
الزمان بيوتاً... وحقولاً.. (مرقس  
٢٩/١٠)

ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى  
ملكوت الله (مرقس ١٠/٢٣)

اعملوا لكم أكياساً لاتغنى، وكنزاً  
لاينفذ في السموات (لوقا ١٢/١٢)

أو أية امرأة لها عشرة دراهم إن  
أضاعت درهماً واحداً لاتوقد  
سراجاً وتكنس البيت وتفتش  
باجتهاد حتى تجده (لوقا ١٥/٨)

## هـ - العمل

انظروا إلى طيور السماء إنها  
لا تزرع ولا تحصد... تأملوا زنايق  
الحقل كيف تنمو لاتتعب  
ولا تغزل (متى ٦/٢٦ ، ٢٨)

لماذا وقفتم ههنا كل النهار  
بظالين؟ اذهبوا أنتم أيضاً إلى  
الكرم (متى ٦/٢٠ ، ٧)

طوبى لأولئك العبيد إذا جاء  
سيدهم يجدهم ساهرين!... (لوقا  
٣٧/١٢)

وأما (مرثا) فكانت مرتبكة في  
خدمة كثيرة.. قال لها الرب:  
(مرثا)، (مرثا)، أنت تهتمين  
وتضطربين لأجل أمور كثيرة!  
(لوقا ٢٠/٤٠ ، ٤١)

## و - التجارة

... ومضى الذي أخذ الخمس  
وزنات وتاجر بها فربح خمس  
وزنات أخرى... فقال له سيده  
نعماً أيها العبد الصالح والأمين...  
(متى ١٦/٢٥ ، ٢٣)

دخل (يسوع) إلى هيكل الله  
وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون  
ويشترون في الهيكل... وقال  
لهم: مكتوب بيتي بيت الصلاة  
وأنتم جعلتموه مغارة لصوص  
(متى ١٢/٢١ ، ١٣)

## ز - الإقراض بفائدة

أيها العبد الشرير... لماذا لم تضع  
فضتي على مائدة الصياغة؟  
فكنت متى جئت استوفيتها مع  
رباً (روقا ١٩/٢٢ ، ٢٣)

وإن أقرضتم الذين ترجون أن  
تستردوا منهم فأني فضل لكم؟  
فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة  
لكي يستردوا منهم المثل (لوقا ٦/  
٣٤)

## ح - التكريز بالإنجيل والمال

لأن الفاعل مستحق طعامه (متى  
١٠/١٠)

مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا (متى  
١٠/٨)



## ٣ - الأسرة

### آ - الزواج

- يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات (متى ١٢/١٩)
- يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بأمراه (متى ٥/١٩)
- لأنهم متى قاموا من الأموات لا يزوجون ولا يزوجون (مرقس ٢٥/١٢)
- ولكن من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله (مرقس ٦/١٠)
- إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامراه.. فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً (لوقا ٢٦/١٤)
- كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني (لوقا ١٨/١٦)

### ب - الأمومة

- هو ذا أيام تأتي يقولون فيها: طوبى للعواقر وللبطون التي لم تلد (لوقا ٢٩/٢٣)
- امراتك (اليصابات) ستلد لك ابناً... ويكون لك فرح وابتهاج (لوقا ١٣/١ ، ١٤)

### ج - الوالدان والأبناء

- فأجابهم قائلاً: من أمي وأختوتي؟ (مرقس ٣٣/٣)
- أنت تعرف الوصايا... أكرم أباك وأمك... (مرقس ١٩/١٠)
- إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه... لا يقدر أن يكون لي تلميذاً (مرقس ٢٦/١٩)
- أنت تعرف الوصايا... أكرم أباك وأمك (لوقا ٢٠/١٨)

قدموا العجل المسنن واذبحوه  
فأكل ونفّرح لأن ابني هذا كان  
ميتاً فعاش (لوقا ٢٣/١٥)

إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض  
أباه وأمه وامراته وأولاده... فلا  
يقدر أن يكون لي تلميذاً (لوقا  
٢٦/١٤)

## ٤ - المجتمع والكنيسة

### آ - السلطة السياسية

أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا  
أن أملك عليهم فاتوا بهم إلى هنا  
اذبحوهم قدامي (لوقا ٢٧/١٩)

ملوك الأمم يسودونهم... وأما أنتم  
فلستم كذلك (لوقا ٢٥/٢٢ ،  
٢٦)

أعطوا ما لقيصر لقيصر، وماله  
لله.. (لوقا ٢٥/٢٠)

وأراه ابليس جميع ممالك المسكونة  
في لحظة من الزمان: وقال له  
ابليس لك أعطي هذا السلطان  
كله وبعدهن لأنه إلي قد دُفع  
(لوقا ٤/٥ ، ٦).

### ب - السلطة القضائية

وإن أخطأ أخوك فاذهب وعاتبه..  
(متى ١٥/١٨)

وإن لم يسمعك فخذ معك أيضاً  
واحدًا أو اثنين (متى ١٦/١٨).

لماذا تنظر القذى الذي في عين  
أخيك؟ (متى ٣/٧)

لاتدينوا لكي لاتدانوا (متى ١/٧)

وإن لم يسمع منهم (الجماعة)  
فليكن عندك كالوثني والعشار  
(متى ١٧/١٨)

أما أنا فأقول لكم: لاتقاوموا  
الشر... وأما أنا فأقول لكم:  
أحبوا أعداءكم (متى ٣٩/٥ ،  
٤٤)

كل من يغضب على أخيه باطلاً  
يكون مستوجب الحكم (متى ٥/  
٢٢)

وإن لم تغفروا للناس زلاتهم  
لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم  
(متى ١٥/٦)

### ج - الترتب الاجتماعي

ليس العبد أفضل من سيده (متى  
٢٤/١٠)

من أراد أن يكون فيكم أولاً  
فليكن لكم عبداً (متى ٢٧/٢٠)

ومن منكم له عبد يحرث أو  
يرعى يقول له إذا دخل من  
الحقل: تقدم سريعاً واتكى؟ بل ألا  
يقول له: أعد ما أتعشى به...  
واخدمني (لوقا ٧/١٧ ، ٨)

بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر،  
والمتقدم كالخادم... ولكني أنا  
بينكم كالذي يخدم (لوقا ٢٢/  
٢٦ ، ٢٧)

### د - الترتب الكنسي

ليس التلميذ أفضل من المعلم (متى  
٢٤/١٠)

وأما أنتم فلا تُدعو سيدي...  
ولاتُدعوا معلمين (متى ٨/٢٣ ،  
١٠)

أنت (بطرس) وعلى هذه الصخرة  
ابن كنيسة (متى ١٨/١٦)

لأن معلمكم واحد... وأنتم  
جميعاً أخوة (متى ٨/٢٣)

\*\*\*

يتضح إذن أن الأناجيل المتقاربة لاتناقض إنجيل (يوحنا) وحسب، بل إن هذا الإنجيل الأخير يناقض بعضه بعضاً، ولكن في جميع النقاط الأساسية يناقض (مرقس) (متى)، ويناقض (متى) (لوقا)، و(لوقا) يناقض (لوقا). ومن الجدير بالملاحظة أن التناقضات ليست خفية، بل جلية. وكثيراً ما تقف النصوص التي يمتنع التوفيق بينها جنباً إلى جنب.

هذه التناقضات الحقيقية، والعميقة، والجلية في كل إنجيل، أترى من المحال تفسيرها؟

## الفصل الثاني عشر

### محاولة تفسير تاريخي

إن تفسيراً أول يتقدم إلينا: إذا كان الإنجيل يحفل بالتناقضات فمرّد ذلك أن مؤلفيه وضعوا فيه، كيفما اتفق، أخلاق (يسوع) وطائفة من الأفكار والتعاليم الغريبة عن هذه الأخلاق.

لقد وعظ (يسوع). ولاريب في أننا لانملك أية مجموعة صحيحة عن خطبه لأن واضعي الإنجيل لم يكثرثوا بقواعد الطريقة التاريخية وقد ذكروا إلى جانب أقواله ألفاً من الجمل التي ظهرت بعد موته وعزوها له بطمأنينة. ولكن لفصل القمحة عن القشة! فنحصل من جهة أولى على أخلاق واحدة بسيطة هي أخلاق (يسوع)، ومن جهة أخرى على أخلاق مختلطة ومتنوعة وهي الأخلاق التي أنتجتها المجتمعات المسيحية بعد موت (المعلم). وليس بمستغرب البتة أن يتناقض هذان المذهبان الأخلاقيان في نقاط كثيرة.

بيد أن هذه النظرية البارعة تتكشف عن نقطة ضعف: فهي تستند إلى فرضية أن (يسوع) قد وُجد، وأنه قد وعظ. ونحن نعرف أن هذه الفكرة موضع نقاش شديد اليوم. وعلى الرغم من ذلك فإذا ثبت أن الأجزاء الأقدم من الإنجيل تحوي أخلاقاً، وأخلاقاً واحدة، فإن الأخلاق تنمّ بوحدها عن يد صانع واحد، الأمر الذي يشكّل دليلاً جاداً يؤيد وجود (يسوع) وجوداً تاريخياً.

ولكن فحص النصوص لا يكشف عن ذلك أبداً.

فمن جهة أولى، يتعذر في حال معرفتنا الحاضرة عزل أخلاق «أولية» داخل الإنجيل واعتبارها أخلاق (يسوع).

ومن جهة أخرى، إن المحاولات التي جرت في هذا المنحى تثير أمام المؤرخ صعاباً بأكثر مما تحلّ من صعاب.

## — ١ —

أخلاق (يسوع): ١ - الصورة التي يقدمها الأستاذ (لوازي) ٢  
- الصورة التي يقدمها الأستاذ (كينيبير) ٣ - اعتراضات على  
الطريقة المتبعة.

يجمع الأستاذ (لوازي)، في كتابه الجميل عن «(يسوع) والتقليد الإنجيلي»، يجمع نتائج بحثه التفسيري العليم ويقدم لنا لوحة إجمالية عن تعاليم (يسوع)، ولاسيما عن تعليمه الأخلاقي<sup>(٧)</sup>.

إن أخلاق (يسوع) لاتزعم الاعتراف إلى تقاليد مدرسة، بل ولا إلى (الشريعة) بالمعنى الدقيق: وهي تعارض تقاليد (الدكاترة) بإبراز صوت الوجدان. «إن (يسوع) يمتح أفكاره من الكنز المشترك في بيئته وعصره. ولكننا لانرى أنه يأخذ عن أي إنسان فيما يتصل بالمراد الذي يمتحه».

إن الأمر الأساسي هو قانون المحبة. فالله يشرق شمسهُ على الأبرار والأشرار. وعلينا أن نقتدي به ونحب الأشرار كما نحب الأبرار. علينا أن نمثّد خدنا الآخر، ونبيع كل ما نملك ونعطي ثمنه للفقراء، وأن نتحرر من كل رباط أرضي ونفلت من «المحاذير الأخلاقية التي قد تنجم عن الاهتمام بالمصالح المادية ومن مضايقاتها»، وألا نبالي باللباس ولا بالشراب ولا بالطعام، وأن ننتظر ظهور (مسيا)<sup>(٢٢٨)</sup>: إذ ذاك ينتقل العادلون المعجبون بالله إلى محل الغبطة المسيحية بينما سيترك الآخرون بلا ريب في حالة موت لاينفي الألم.

ويخلص الأستاذ (لوازي) إلى القول: «إن هذه الأخلاق مصنوعة إذن من شعور عميق بالثقة بالله، ومن تكافل إنساني وحماسة دينية. وهذه المنظومة

منطقية جداً في مثاليتها». وإن ما تنطوي عليه من «مطلق، ومثل أعلى، وممتنع عن التطبيق» إنما يُفسر بمحاثة ظهور (مسيا).

ويذهب الأستاذ (كينيبير) إلى أن (يسوع) «يبدو وهو يلعب بال (شريعة) كيف يشاء». وإن تعليمه يدور حول أمرين أساسيين هما: تحب الله من كل قلبك، وكل روحك، وكل عقلك» و«أصلحوا أنفسكم، غيروا قلوبكم».

لفهم من ذلك: ابدلوا جهداً شخصياً قوياً شطر الخير حتى تنالوا العدالة، وقد تصورهما (يسوع) على أنها جماع أخلاق رفيعة جداً، أخلاق ملأى بالحنان والاحسان. وهذه الأخلاق تطرح مثلاً أعلى للكمال هو الإقلاع عن كل أشياء الدنيا ارتكاساً على حب المال الذي يصرف الإنسان عن الله ويشده إلى الأرض»<sup>(٨)</sup>.

\* \* \*

يتبين لنا أن الخلاصة التي جاء بها الأستاذ (كينيبير) هي أكثر غموضاً وحيطة من خلاصة الأستاذ (لوازي). وهذا واقع هادف. يقول الأستاذ (كينيبير): «إن كل محاولة للوصول إلى دقة أعظم تتعرض لإقحام أفكار في فكر (المعلم) ليست هي من أفكار تلاميذه المباشرين»<sup>(٩)</sup>. ولكن هذين المؤلفين يتفقان في نقطة واحدة: إن الأخلاق العملية لدى (يسوع) هي أخلاق وزهد وتقشف. وهي التي قلنا نحن عنها فيما سبق إن مبدأها هو الفرع من العالم.

ولكن ماهي الطريقة التي اتبعها الأستاذ (كينيبير) والأستاذ (لوازي) حتى انتهيا إلى أن هذه الأخلاق هي أخلاق (يسوع)؟

إن النقد السليم يوجب لتسويغ ما انتهيا إليه أن تكون أخلاق الزهد شاملة، في حال قوة ونقاء، إما في إنجيل (مرقس) أو في الـ (لوجيا) Logia الشهيرة، وهما في نظر عدد كبير من المفسرين كانا مصدرأ متح منهما (متى) و(لوقا)؟ ولو أن أقدم أجزاء الأناجيل المتقاربة كانت كلها لاحتوي إلا على وصايا زهد لأمكن بالبداهة أن نخلص من ذلك إلى أن الحركة المسيحية تستمد أصلها من إنسان دعا إلى هذه الوصايا، وإليها وحدها.

ولكن من ذا الذي يجروء على الزعم بأن أخلاق زهد وتكشف تسطع في إنجيل (مرقس)؟ أولاً، إن الأخلاق بالمعنى الصحيح تشغل في هذا الإنجيل منزلة أدنى منها في سائر الأناجيل المتقاربة. ومن العبث أن نبحت عن تلك الوصايا الشهيرة التي تتألق في كل صفحة من صفحات إنجيل (لوقا) و(متى). إن أقدم الأناجيل هو ذلك الذي يعرب بقدر أقل من القوة والجمال عما كان يجوز اعتباره أخلاق (يسوع).

زد على ذلك أن التناقضات المبدئية الماثلة سلفاً في نص (مرقس) توجد كذلك في سائر الأناجيل. ولاريب في أن (يسوع) يقول: «من أراد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني»، ويقول أيضاً: «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» ويعلن أن الناس عند البعث لايزوجون ولايزوجون، وقد قال: تعساً للحوامل واللاتي يرضعن في تلك الأيام، وهو لا يريد أن يكون بين أتباعه رؤساء ولاملوك: من أراد أن يكون عظيماً فليكن خادماً، ومن أراد أن يصبح أولاً فليكن عبداً. وأخيراً تنبأ لتلاميذه بأنهم سيبغضون ويضطهدون.

وهذا كله يعني، بدقة تكثر أو تقل، أن من الواجب الإنصراف عن الثروة، والأسرة، والسلطة السياسية، والوجاهة الاجتماعية، والحياة ذاتها. بيد أن (يسوع) ذاته، في إنجيل (مرقس)، لا يطلب العفة ولا الخفاء الروحي، بل يعلن أن الله هو الذي يريد الزواج، وأن بطل إحدى الأمثولات يتحدث عن ابنه «الحبيب».

ولكن طرد الأغنياء من السماء فإنه لم يتردد في إظهار أحد الملاك وهو يؤجر كرمه لعمل ويطلب بحصته من الثمار بوصفها حقاً له. ولكن لم يرد ملوكاً ولا رؤساء، فإنه لا يمتنع عن القول: أعط ما لقيصر لقيصر.

ولكن رفض أن يكون المرء سيدياً، وطلب إلى تلاميذه جميعاً أن يكونوا خدماً وعبيداً فإنه بقي يمثل (ابن الإنسان) في إهاب معلم يوزع على خدمه أعمالهم.



ولكن أعلن لأتباعه أنهم سيضطهدون فإنه أوصاهم في الوقت ذاته بالفرار: الذين سيكونون في اليهودية يهربون إلى الجبال!

لم يبق من أخلاق الزهد الزواج، وإنجاب الأولاد، ومحبتهم، والإضطلاع بدور في المجتمع، واستخدام عمال، وقبض دخول، والاستمتاع بالخدمة، والاحتراس من الخطر.

وأخيراً، لكن تحدث (يسوع) في إنجيل (مرقس) عن إله العفو والوداعة، فإنه يتحدث أيضاً، في الأمثلة، عن إله حانق سيأتي ليهلك الكرامين.

إذن؟ أنستطيع غض الطرف عن الأخلاق الثانية للإبقاء على الأخلاق الأولى؟ إن الطريقة ستكون جريئة. وإذا قرأنا نص (مرقس) دون انحياز وجدنا أنه لايجيز، بحال من الأحوال، أن نعزو إلى (يسوع) مذهباً دون الآخر. تبقى الـ (لوجيا).

فإذا رجعنا إليها وجدنا بالبداية جميع الصيغ الشهيرة التي يشير إليها الأستاذ (لوازي) والتي تأمر على نحو دقيق بالزهد التام والمطلق. ولكننا نجد ثمة كذلك، كما رأينا، تصريحات مضادة في كل النقاط. وهذه العناصر المتعارضة في جميع المسائل الرئيسية تتوازن. ولذا بأي حق يمكن إعلان أن الصيغ الأولى وحدها أولية، وأنها وحدها من (يسوع)؟<sup>(\*)</sup>

\*\*\*

ولعل هذا ما جعل الأستاذ (كينيبس) الذي كان يحتاج في سنة ١٩٠٦ إلى سبعة عشر سطرأ لعرض أخلاق (يسوع)، وإذا به يلخصها، بعد مرور ثلاث عشرة سنة في أسطر ثلاثة: «الملكوت يقترب، والتحول العظيم الذي سيطرد من الدنيا الظلم والشر: اصبروا، إذا أردتم أن يكون لكم مكان بين المختارين»<sup>(١)</sup>.

(\*) يلمح الأستاذ (لوازي) إلى وجود رباط بين أخلاق الزهد والفكرة (التي يعزوها إلى يسوع) (القائلة أن «رجعة المسيح» قريبة. انظر في هذه النقطة فيما بعد (الفقرة الرابعة من الفصل الثالث عشر).

لنفرض أن تلكم هي في الواقع الأخلاق الأقدم في الإنجيل. إن من العسير أن نذهب إلى القول إنها تؤلف مذهباً أسراً، وأن وحدتها المتينة تفترض وجود (يسوع).

ففي مثل هذه الصيغة المبهمة لا يمكن القول بالزهد. ولكن ماذا؟ ان الأستاذ (كينيب) لايعزو إلى (يسوع)، هذه المرة، أخلاقاً مشبعة بالعدوثة والحنان والإحسان بل يستعيض عن ذلك بقوله: «إن شيئاً لا يكفل لنا أنه لم يلمح، بادئ ذي بدء، إلى العنف (المسيوي)، إلى الحرب التي ينبغي على (مسيا)، بحسب أكثر الآراء ذيوماً، أن يجلبها إلى العالم»<sup>(١١)</sup>

## - ٢ -

فرضية «أخلاق يسوع» فرضية يصعب البرهان عليها من الناحية العلمية: ١ - إن الأسباب الداعية لقبولها أسباب عاطفية. ٢ - هذه الفرضية تطرح صعاباً جسيمة بدل تفسيرها كل شيء.

والواقع أننا إذا صرنا، باعتماد بعض النصوص، إلى تخيل (يسوع) من دم ولحم فلا شيء يكون أسهل من أن نتصور نبياً متحمساً يدعو لخلاص إسرائيل ويعلنه. وعضواً أن يحضّ الناس على أن يحيوا حياة وداعة عذبة نجده لا يكفّ عن التنبؤ بحروب رهبة وببشاعة الدمار، ويخاطب تلاميذه قائلاً: بيعوا أرديتكم واشتروا سيوفاً. فهو رسول الله القوي الذي سيخضع الأمم على أقدام إسرائيل.

ولما أثار هذا الكلام قلق (بونس بيلاطس) عمل على صلبه. وكان تلاميذه في بادئ الأمر ينتظرون نوعاً من رجوعه رجوعاً معجزاً. ثم تغير كلامهم شيئاً بعد شيء عندما مرّت الأيام: كلا، إن نبههم لم يكن رجل عنف، بل كان رسول عدوثة وسلام. كلا، إنه لم يكن يدعو الناس إلى حرب التحرر، بل كان يدعوهم إلى الإفلات من الشر بالتوبة.

قد تقولون: إنها قصة؟ وأنا أفهم ذلك على هذا المنوال. إنها قصة محضه تماماً، ولكنها ليست أكثر سدىً من تلك التي تقدم لنا (يسوعاً) حقيقياً جالباً للبشر مذهب زهد مطلق. وإن ألعاب الفكر هذه ألعاب يسيرة كلها، وفاتنة. ولكن إذا شئنا أن يكون للعلم نصيب وجب علينا أن نغزل الأجزاء الأقدم من الإنجيل وأن نكتشف فيها، شيئاً بعد شيء، وبدقة مطرّدة، أخلاقاً واحدة وقوية تفرض فكرة وجود مؤلف وحيد. ولكننا في الحالة الراهنة من معرفتنا لانكتشف شيئاً من هذا القبيل.

وإذن، لماذا يجامل رجل علم وفكر علمي متميز من طراز الأستاذ (لوازي) ويرسم صورة عن «أخلاق (يسوع)»؟ ولماذا لا يرفض الأستاذ (كينيبير) رفضاً باتاً أن يرسم أية صورة عن هذه الأخلاق وهو نفسه يمثل الروح الانتقادية مجسّدة في رجل؟

ذلك أن للقلب أسباباً لا يعرفها العقل. فد (يسوع) عزيز علينا كلنا. وليس من باب العبث أن جعلته القرون موضوع حب الناس. فإذا رفضنا وجوده بالمعنى التاريخي للكلمة، شعرنا بانطباع أننا نسيء إلى أنفسنا بأنفسنا. وإذا ذلك يحملنا حفاظنا عليه على أن نجعله إنساناً حقيقياً، وأية أخلاق ونعزوها له عندئذ سوى الأخلاق التي تفوز بإعجابنا الأعظم؟

إن ما يروقتنا هو هذه الأخلاق المضطربة ضد الظلم، أي ضد الثروة والجشع في الربح، وضد العنف، وضد السلطة السياسية، وضد ضروب التفاوت الاجتماعي، الأخلاق التي تقود، على منوال جنوني، ولكنه سام، إلى إعلان الحرب على العالم. إن ما يثير حماسنا في عصور كانت القوة فيها شرسة، وكان السيف منتصراً، هو الجملة التي تدين استعمال السيف إدانة حاسمة. وإن ما يسكرنا في زمن كانت الثروة فيه تتحدى وتسيطر دونما احتشام هو نداء: ويل للأغنياء! (Vae Divitibus!). ولأننا نرى من حولنا الغني اللانافع في قصره المسرف البذخ وابن الطفل الفقير يموت في كوخه، نشعر بسحر الحلم بإنسانية أخوة تضع الأموال كلها وضعاً مشتركاً، ونهلل لهذا المجتمع الذي ينسج على منوال الزنابق والطيور، وهو يفلت من أسر المشاغل

المتواضعة أو القذرة التي تواكب في ظهورها في نفوس العامة مطلب الوفرة والبدخ.

ينتج عن ذلك، بالاستناد إلى أن العلم والنقد البارد كليهما لا يتيحان لنا أن نغزو إلى (يسوع) أخلاقاً دون الأخلاق الأخرى، فإننا ننسب إليه الأخلاق الأجل ليحميها وينقذها.

\*\*\*

أتراني أحتاج إلى تأكيد أن مثل هذه الاعتبارات ليست غريبة عني. وقد يكون من شأنها أنها تروقني، ربما أنا كذلك، إذا ما اعتقدت أن في وسع العقل أن يسيء إلى المثل الأعلى، وأن من الجائز أن تضلّ الحقيقة.

ولكن كيف نقبل أن يستطيع العلم، والعلم طلب الحقيقة، وإذن طلب أحد أشكال الأخلاق، أن يرجع الإنسانية إلى صغار النفس؟ من الجلي أن العلم هو الذي يقول لنا بدقة صافية إن من المحال، في حال معرفتنا الراهنة، أن نتحدث بصورة جدية عن «أخلاق (يسوع)». وفي وسعنا أن نتصور أننا لانشاهد وجود هذه الأخلاق. إنها فرضية مجانية: وإن الوقائع لاتفرضها ولاتوحي بها.

ولكن لنمض إلى مدى أبعد: ولنفرض أننا قبلناها. فأى واقع تغيره؟ وأية مشكلة تحلها؟

علينا أن نذكر أن الأمر هو أمر تفسير التناقضات الأخلاقية التي يذخر بها الإنجيل. يقال: لقد بشر (يسوع) بأخلاق زهد نقي مطلق، وأن تلاميذه دعوا شيئاً بعد شيء إلى أخلاق أخرى. إذن لم يبق ثمة لغز - وعلى العكس، إنني أجد لغزاً آخر، وهو يمتنع على الحل. كيف نفسر أن الذين فتنهم مذهب (يسوع) سرعان ما أخذوا يجعلونه بصورة قاسية يقول عكس ما كان قد قال.

تقولون: لقد بشر بأخلاق سامية، أخلاق مجنونة إذا شئنا النظر إليها من الزاوية العملية، ولكنها «منطقية من حيث مثالياتها». ومن شأن هذه السمة المنطقية أن تجعل هذه الأخلاق تشكل «كلاً» وأن تجعلها أعظم مقاومة. فيما يبدو - لمحاولات تشويهها. وإن إتسامها بالسمو ليجعلها تثير في القلب والخيال

أعمق التأثير: تصوروا الأثر الذي لايزال الإنجيل يطبعه في نفوسنا لو أن مذهب الزهد كان وحده هو الذي يُذكر فيه، وفي حال النقاء! وفي الواقع، هناك من يقول إن تأثير هذه الأخلاق المضطربة، والسيدة، والمطلقة، هو الذي جعل التلاميذ متحدين إبان أسوأ مصائب المصير. وما أن مضى على موت (المعلم) خمسون عاماً حتى تنكروا لهذا كله!

أقول بدقة: تنكروا. فالأمر ليس أمر نسيان: إن الجمل المتألقة عن الزهد والتقشف لا تزال ماثلة، إن لم يكن في إنجيل (مرقس)، فعلى الأقل في ال (لوجيا). ولا بد من قول إن المسيحيين كانوا يقرأونها سلفاً وعلى وجوههم بسمة التسامح والإرتياب! ومن الواجب قول إنهم حين لم يكتفوا بتخفيف حدة المذهب قلبوه رأساً على عقب، وجعلوا (يسوع)، بصفاقة، يقول، عكس ما كان قد قال، عكس ما يعلمون أنه قد قال!

كان (المعلم) يصيح: بيعوا كل ما تملكون، وكونوا فقراء. وإذا بهم يظهرونه وهو يتحدث عن المصارف والفوائد! كان يقول: لاتستلوا سيفاً! وإذا بهم يجعلونه يقول: اشترُوا سيفاً! كان يقول: لاتتزوجوا، اتركوا زوجاتكم ووالديكم وأطفالكم. وإذا بهم يجعلونه يقول: الزواج أمر يريده الله، لاتكونوا إلا جسداً واحداً مع زوجتكم، أحبوا أبناءكم! كان يقول: لاتدينوا! وإذا بهم يجعلونه يقيم محاكم. كان يقول: لارئيس بينكم! وإذا بهم يظهرون أنه يؤيد سلطة (بطرس) المطلقة!

كيف نفشر مثل هذا التنكر؟ أنقول إن رجالاً شعروا بجاذبية ضئيلة نحو مذهب الزهد وحاولوا مكافحته؟ لاشيء طبيعي أكثر من ذلك! ولكن ماهي المعجزة التي جعلت أعداء الزهد يعتنقون ديانة إنسان لم يدع، كما يقال، إلا إلى الزهد؟

ولايجدي فتيلاً أن ندعي أن التقاليد، كل تقاليد، كانت تشوّه في تلك الأزمنة الغابرة ما تحتفظ به.

أولاً: من شأن التقاليد أن تضخم بصورة جد مألوفة السمة البارزة بدل تخفيفها. إنها تغلو في زهد (فيثاغورس)، ولكنها لاتجعل

(فيثاغورس) أستاذ الضحك والحياة المرححة. وهي تعزو إلى (أبولونيوس التيانى) (٢٩٢) Apollonios de Tyane علماً لم يكن هو نفسه بلا ريب يدّعيه أبداً: ولكنها لا تجعل (أبولونيوس) مُنظر الجهل. ولو أن (يسوع) كان، كما يزعمون، داعية الزهد المطلق لأمكننا أن نفهم مبالغة التقاليد في نسكه شيئاً بعد شيء: ونحن أقلّ فهماً لِم جعلته التقاليد إنساناً يتحدث عن الأسرة، والثروة، والمصارف، والدراهم، والسيوف، والمحاكم؟

ولكنني أكرر أن الأمر لا يمكن أن يكون هنا أمر نسيان. فالجمل التي تدعو للزهد لم تفقد. وهي موجودة في الـ (لوجيا) كما لانزال نقرؤها إلى اليوم. وهي تتألق وضوحاً. ولها صوتها العالي. ويريد مريدون أن يلهو التلاميذ وهم يعرفون أنها من صنع (المعلم)، يلهون بمناقضتها دونما اكتراث. وهم يزعمون أن أمام أعينهم صيغ (يسوع)، وإذا بهم يضعون حيال هذه الصيغ على نحو منهجي صيغاً أخرى لققوها بأنفسهم وهي تقول تماماً العكس: وهم مسيحيون، مسيحيون بحرية! فمن الذي يملك مفتاح هذا اللغز؟

ولو أن نصاً غير معروف ظهر على نحو غير متوقع وهو يؤكد أن (يسوع) قد وُجد بالمعنى الذائع والإنساني لكلمة وجود، لاضطرنا فحص الأناجيل إلى القول إن (يسوع) لم يقدم أية فكرة محدّدة تماماً من الناحية الأخلاقية: وإذا ذلك يجب لتفسير الاختلافات المباشرة بين تلاميذه القول إنه لم يقدم لهم سوى بضعة جمل غير ذات لون وهي تقبل تفسيرين متعارضين في جميع نقاطها. وبكلمة واحدة، يجب لدى اعترافنا بأن (يسوع) قد عاش أن نرفض أي تأثير أحدثه في تشكل الأخلاق المسيحية؟

ولكن الزعم، في الحال الراهنة للمسألة، أنه قد وُجد، وأنه قد علّم أخلاقاً، وأن هذه الأخلاق كانت أخلاق زهد، وهي أخلاق مضطربة ومنطقية، إنما يعدل مباينة النصوص دون حلّ أية صعوبة: بل، على العكس، إن ذلك يعني طرح صعاب. وما فرضية (يسوع - إنسان) يعلم أحد المذهبين الأخلاقيين الإنجيليين بفرضية مجانية وحسب: بل إنها فرضية نافلة.

# الفصل الثالث عشر

## التفسير السوسولوجي

لنأخذ الفرضية التالية، فيتضح كل شيء.

كيف ينظر العلم إلى فكرة أخلاقية، إلى أمر، إلى صيغة مثل أعلى؟ إنها حادث اجتماعي، أي حادث مرتبط بوجود جماعة.

لنفرض أن جماعة جديدة ظهرت ضمن مجتمع. ولنفرض أن أشخاصاً منبثقين عن جماعات متباينة، بله متعارضة من بعض أوجه الاعتبار، شرع بعضهم يلتقي بعضاً: فماذا نجد في ملتقاهم؟ أخلاقاً مختلفة، إن لم نقل متعارضة.

وهذه هي الظاهرة، وهي جد بسيطة، وسوية، وقد حدثت في الكنائس الأولى: وإنما عملت الأناجيل التي ولدت في هذه الكنائس على تسجيلها.

ففي القرن الأول من التاريخ الميلادي، في آسية واليونان وإيطالية، وفي أمكنة أخرى أيضاً، بدأ رجال بالتكتل يجمع بينهم إيمان وأمل: إيمان بإله اسمه (يسوع) (وقد تصوره من جهة أخرى على أنحاء جد متباينة) وأمل في خلاص (وقد تصوره كذلك في أشكال ليست أقل تبايناً).

اجتمعوا. ولكن كل واحد منهم جلب وإياه بالضرورة الأفكار والعواطف والأعراف، وبكلمة واحدة جلب أخلاق الجماعة الاجتماعية التي

كان يعيش فيها قبلئذ. ومن شأن المعطيات الأخلاقية المجلوبة أنها تأكدت داخل الكنيسة، وضُبت في قصص، وسُبكت في صيغ.

غير أنها، وقد صدرت عن أوساط متباينة غاية التباين، بل ومتعارضة، متناقضة، بمثل تناقض الخواطر والوصايا والأمثال: ولما احتوت الأناجيل كل ذلك، فقد باتت ملأى بالتناقضات.

## - ١ -

تنوع الأوساط الاجتماعية ممثلة في الكنيسة زمن كتابة الأناجيل: ١ - تاريخ التحرير. ٢ - اليهود، اليهود - الاغريق، الأمميون. ٣ - فوارق من النوع العقلي، والديني، والاقتصادي، داخل كل جماعة.

كُتب إنجيل (مرقس) بعد السنة (٧٠) بقليل. وفي الوقت نفسه انتشرت سلفاً مجموعة (لوجيا)، أي «أقوال» (يسوع) محرّرة باللغة الإغريقية.

وقد ظهر إنجيلا (متى) و(لوقا) بين سنتي (٧٥) و(٩٠). وقد أفادا من إنجيل (مرقس) وال (لوجيا).

وفي النصف الأول من القرن الثاني، خضعت أناجيل (مرقس) و(متى) و(لوقا)، بلا ريب، لتنقيحات يعسر، مع الأسف، تمييزها وتحديد تأريخها.

إن إنجيل (يوحنا)، في شكله الأول، يستوحي نظريات (مرقيون) وقد كتبت حوالي فترة سنة ١٣٥ - ١٤٠.

وبعد إدانة (مرقيون)، أي بعد عام (١٤٤) خضع لتنقيحات مهمة غرضها إسباغ حلة أرثوذكسية عليه<sup>(\*)</sup>.

---

(\*) التواريخ المذكورة مقبولة كلها بوجه عام فيما يتصل بالأناجيل المتقاربة. أما بالنسبة لإنجيل (يوحنا) فأنا أعتنق نظرية الأستاذ (دولافوس).



ينتج عن ذلك أن تأليف الأناجيل المتقاربة قد جرى بوجه الاجمال بين سنتي (٧٠) و(٩٠). وأما إنجيل (يوحنا) فقد كُتب ثم «صُحح» قبل عام (١٤٤) وبعده.

فما هي الأوساط الاجتماعية المثلة في تلك الحقبة داخل الكنائس المسيحية<sup>(٢٠)</sup>؟

\*\*\*

إننا نعلم أن هناك يهوداً، ويهوداً تتقفوا باليونانية، وأميين. ومن الجلي أن كل فئة من هذه الفئات لاتضم عناصر متجانسة. بل إن كل فئة تضم أوساطاً تتمايز تمايزاً دقيقاً ببعض سمات فكرية ودينية وسياسية واقتصادية. لننظر من الزاوية الفكرية.

هناك لدى يهود فلسطين جماعتان، ويذهب الأستاذ (كينبر) إلى تمييز «شعبين» لدى اليهود يختلفان من الناحية الفكرية. فمن جهة أولى، أولئك الذين بسائق الزواج المختلط يفتحون الباب لتلقي التأثيرات الصادرة عن الشعوب المجاورة؛ ومن جهة أخرى المترمتون الذين يريدون (وإن لم يستطيعوا الافلات من أسر الفكر الهليني) أن تنطوي اسرائيل على ذاتها وهم يقفون امكانات فكرهم على دراسة (الشريعة). وأخيراً، توجد خارج الجماعات اليهودية فرق منشقة أشهرها فرقة (الاسينيين)<sup>(٢١)</sup>.

ومن الطبيعي أن يكون تأثير الفكر الإغريقي أقوى لدى يهود الشتات. فقد كان من المحتوم أن يعتنقوا، جزئياً، طرائق تفكير الإغريق لشدة ما عاشوا بينهم. وقد حاول الذين تفلسفوا منهم أن يوفقوا طوعاً أفكارهم الوطنية مع الحكمة القديمة، وكان من الطبيعي أن توجد ثمة ألف طريقة لمحاولة هذا التوفيق. أضف إلى ذلك أنه كان لـ (فيلون)<sup>(٢٢)</sup> Philon الشهير عشرين طريقة أخرى غامضة.

---

(\*) ليتفضل القارئ باعتبار أن مايلي ليس سوى بدء برهان اعترم الرجوع إليه بالتفصيل في مكان آخر.

ففي العالم الإغريقي وُجدت المدارس الفلسفية اللانهائية التنوع. وقد طغت الأبيقورية<sup>(٢٣٢)</sup> والرواقية<sup>(٢٣٣)</sup> والفيثاغورية والأفلاطونية<sup>(٢٣٤)</sup>.

وأخيراً، يوجد لدى الإغريق، كما يوجد لدى اليهود، خلف نخبة المفكرين الذين يثيرون المشكلات الفلسفية، كتلة أكثر عدداً بما لا يحصى من الأميين أو أشباه الأميين. وقد كان هؤلاء الأشخاص غير المتعلمين كثيرين جداً في صفوف الطوائف الأولى.

لننظر من الناحية الدينية

إن من اليهود من يحرصون على الحفاظ على الديانة القومية القديمة بحذافيرها وهم يلتزمون بالطقوس التزامهم بالعقائد ويرهفون النظر في التعاليم الموسوية. ولكن في فلسطين ذاتها جماعات ذات نفوذ تحتج على الموقف الشرعي المسرف الضيق. أما يهود الشتات فإن بينهم «الورعين» الشهيرين الذين لا يأخذون إلا بجزء من تعاليم (الشريعة). بل أن هناك أخيراً ضرباً من التفاعل التلفيقي تمثله جماعات من طراز الـ (هيبستييان) Hypsistiens والـ (سابازيان) Sabaziens و(الناصرين)<sup>(٢٣٥)</sup> Nazoreens.

وكذلك نجد تنوعاً أعظم لدى الإغريق: فالعبادات الرسمية القديمة كانت ماتزال تحدّد بعض الحركات. ولكن الريبين كانوا كثيرة. وكثيرون أيضاً أتباع الديانة الفلسفية في الأوساط المثقفة. وأخيراً، كانت الحركة الدينية الكبرى الوحيدة التي تأسر النفوس حقاً وتجمع شمل الناس بقوة هي تلك التي كانت تذيب كل هذه الأسرار وكل هذه الديانات القائلة بالخلاص والتي يكتشف البحث العلمي الحالي كل يوم مزيداً من تأثيرها الضخم. ونظراً لسيادة هذه الأسرار في العالم القديم بدا من الثابت أن الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية إنما تركوا، على نحو أقل جداً من أجل (المسيح)، تركوا (تروس)<sup>(٢٣٦)</sup> Zeus و(أفروديت)<sup>(٢٣٧)</sup> Aphrodite أو (بالاس)<sup>(٢٣٨)</sup> Pallas من تركهم (ديونيزوس)<sup>(٢٣٩)</sup> Dionysos و(آتيس)<sup>(٢٤٠)</sup> Attis و(ايزيس)<sup>(٢٤١)</sup> Isis أو (ميثرا)<sup>(٢٤٢)</sup> Mithra.

أضف إلى ذلك ما كان يترسب تحت قاع الديانات بالمعنى الصحيح من آلاف العقائد والممارسات الخرافية ذات الطابع السحري، وكلها تنشط في الجماهير الشعبية، إن لم نقل فوقها.

لننظر من الزاوية السياسية

بين يهود فلسطين أناس قوميون شرسون يصابون السيطرة الرومانية ألد العدا وهم متأهبون على الدوام لحمل السلاح بغية طرد العدو خارج (أورشليم). ولكن ثمة أيضاً فريق أكثر تساهلاً وهو يحاول أن يجني من العدو ثمار تعايش مقبول. وكذلك حال يهود الشتات. ويتضح لمن يتتبع تاريخ اليهود في الإمبراطورية الرومانية أن دعاة الاتحاد مع رومه هم الأرجح كفة بوجه عام. والجهد كل الجهد يرمي إلى نوال وضع محتمل أو مفيد. بيد أن من الحق أن نذكر من ناحية أخرى اندلاع ثورات محلية عنيفة بين الفينة والفينة، وقد كان العالم اليهودي كله تقريباً في حال ثورة عارمة في عهد (أدريان) (٢٤٤) Hadrien.

وعلى العكس من ذلك كانت حال الاغريق الذين قبلوا بوجه العموم السيطرة الرومانية. ولاريب في أن تطلعاً إلى الاستقلال ظل ماثلاً في بعض الأوساط حتى أن (نيرون) (٢٤٥) Neron اضطر إلى منح الحرية إلى (اشاي) (٢٤٦) Achaie ولكن الاغريق لم يعمدوا للثورة حين أُلغيت هذه الحرية بعد فترة وجيزة. ولم تخلف احتجاجات (ابولينوس اليتاني) سوى أصدقاء ضئيلة. والحق أن اليونان تكيفوا مع النظام الامبريالي بوجه الاجمال. وقد كان إخلاصهم قليل الحماسة فيما يبدو لأنهم لم ينصرفوا إلى السياسة إلا لماماً. لننظر أخيراً من الناحية الاقتصادية.

إننا نجد بالطبع أغنياء وفقراء بين اليهود، واليهود المتأثرين بالإغريقية، كما نجد لدى اليونان. ويرى (هرتزرغ) Hertzberg أننا نشاهد هوة تزداد عمقاً بإطراد بين الطبقة المالكة والطبقة البروليتارية في (اشاي). وقد تكدست الملكية العقارية والأرسمال بين أيدي عدد صغير من الأسر التي كانت تزدهر ببذخ مسرف. بينما نزح الفقراء الذين انتهبهم أصحاب مصارف (بتر) Patrae

و(كورنثوس) و(اثينة)، وقد امتص هؤلاء دماءهم حقاً، نزحوا إلى المدن وعاشوا فيها عيش الرعاع<sup>(١٢)</sup>. ولنذكر أخيراً أن دون هذا البروليتاري البائس يوجد من هو أشد منه بؤساً، يوجد عالم العبيد، وهو عالم وسيع.

يهود متمتون، يهود أكثر تساهلاً، يهود متأثرون بالإغريقية، يهود تلفيقيون، وثنيون متخلفون، مريدون، متحمسون، ريبيون، فلاسفة وأنصاف فلاسفة من جميع المدارس، موظفون مستقيمون، وربما متمردون، أغنياء وفقراء، سادة وعبيد: ذاكم هو هذا العدد من الأوساط المختلفة، وهذا العدد من التطلعات، ومن القواعد السلوكية والعادات، وبكلمة واحدة، هذا العدد من المذاهب الأخلاقية المختلفة.

وهذه المذاهب الأخلاقية هي التي تصب في الكنيسة الناشئة في عصر نضج فيه الأدب الإنجيلي.

لنعرض هذه النظريات المتناقضة كلها واحدة تلو أخرى، ولنعرض كل هذه القواعد المتنافية التي ألمعنا إليها في هذا الأدب: وسنرى أنها كلها تصدر عن أحد هذه الأوساط الاجتماعية أو بعضها، ومنها متحت المسيحية أول أتباعها، من إحدى الجماعات أو من بعضها، وقد جاءت لتتحد وتتصادم بأن واحد في الكنائس الأولى.

## — ٢ —

النظريات المتناقضة والأوساط الاجتماعية: ١ - النظريات المتصلة بعلاقات الأخلاق والطقوس. ٢ - بعلاقات الأخلاق والإيمان. ٣ - بمشكلة الحرية. ٤ - بمشكلة الجزاء.

هناك ثلاثة مذاهب متعارضة في الإنجيل، وهي تتصل بعلاقات الأخلاق بالطقوس: الأول يحتفظ (بالشريعة) الموسوية. والثاني يعلن سدى الطقوس. والثالث يقيم طقوساً جديدة.

ومن السهل تحديد مواقع هذه المذاهب الثلاثة.

المذهب الأول يصدر عن اليهود المتزمتين والذين لم يتأثروا بالإغريقية إلا قليلاً. وهذا المذهب ينطلق في الأساس من كنيسة (أورشليم) الشهيرة التي تناضل ضد (بولس) في مسألة التمسك باليهودية. «فالورعون» أو أكثرهم تزمناً على الأقل، يريدون الحفاظ على (الشريعة) بأسرها. وإذن فإنهم يجعلون (يسوع) يقول: لم آت لإلغاء (الشريعة) بل لإكمالها. ويقول أيضاً: إن حرفاً واحداً لن يسقط من (الناموس).

المذهب الثاني ينطلق من جزء أساسي من الفكر الاغريقي. فمن البديهي أن أتباع (أبيقور) و(زينون) يرون أن من الخطأ طلب الخير الأسمى في ممارسة طقوس مادية. وقد أصاب الأستاذ (برهيه) <sup>(٤٧)</sup> Brehier في ملاحظة أن خارج العالم الفلسفي بالمعنى الدقيق، وفي الأدب ولدى الشعراء توجد حركة نقد ديني تؤدي إلى اتخاذ الاستعداد الباطني للإنسان المتدين العنصر الأساس في العبادة». فهناك «إرجاع العبادة إلى التخلق» <sup>(١٣)</sup>. وهذه الفكرة ذاتها نجدها لدى بعض المدارس الحاخامية. يقول الحاخام (هيلل) <sup>(٤٨)</sup> Hillel: «ملا تحب لنفسك لاتصنعه لغيرك، وهذا هو مطلب (الشريعة) بأسرها، وما بقي ليس سوى شرح». ويقول الأستاذ (كينيبير) بعد أن يستشهد بهذه الجملة: إن «الشخص الذي جاء بها كان متحرراً سلفاً من الشكلية». ولذا فإن بعض تلاميذ (هيلل) سيجعلون (يسوع) يقول: «افعلوا للناس بأنفسكم كل ماتحبون أن يفعل الناس لكم، لأن ذلك هو (الشريعة) والأنبياء». ويمضي كاتب إنجيل (مرقس) وهو متأثر بالإغريقية على نحو أكبر فيرفض (الشريعة) كلها: أتت ساعة عبادة (الآب) بالروح والحق.

وأخيراً فإن المذهب الثالث الذي يطالب بطقوس جديدة يرتكز إلى نقاط استناد قوية أيضاً في بعض الأوساط الاجتماعية. فالعماد موجود في فرقة (يوحنا)، وسط العالم اليهودي. ولكنه يضطلع بدور مهم في مجتمعات المريدين بوصفه طقساً للتطهر لازماً للخلاص. كان المريدون يعمدون ويغسلون

من أدراهم بالغطس في مياه البحر في عبادة (الاييلوزيين)<sup>(٢٤٩)</sup> Elusiniens وكان عماد أتيقاء (سيبل)<sup>(٢٥٠)</sup> Cybele و(ايتس) بالدم بتضحية ثور أو كبش. وكان جندي (ميثرا) يطهر من أدراهم بغطسه في الماء، وقد أضيفت إلى هذا الطقس المعدادني إشارة على الجبين تومئ إلى نذر المؤمن لإلهه. ومن تطلع إلى أن يصبح مريداً لـ (ايزيس) غطس في الماء وغسله الكاهن الأعظم وهو يدعو الآلهة. وجميع هذه الأنواع من العماد طقوس خلاص. وهي تجدد المريد، وتهبه حياة جديدة. وقد لاحظ الباحثون منذ زمن بعيد أن للعماد هذا المعنى ذاته، والقيمة ذاتها في مذهب (بولس). وسيجعل اذن المسيحيون القادمون من عالم الأسرار<sup>(٢٥٠)</sup> (يسوع) يقول إن العماد يهب الحياة: فإذا لم يولد المرء من «الماء» فلن يدخل ملكوت الله.

وما يصح بصدد العماد ليس بأقل صحة في مجال الأوخارستيا. إنها طقس «الأسرار» بالمعنى المتميز. فإذا لم نتكلم عن تناول اللحم النيئ الديونيزي فإننا نعرف أن مريدي (ايتس) يحتفلون بعشاء صوفي قوامه طعام صلب وشراب. وأن مريدي (أوزيريس)<sup>(٢٥١)</sup> «يأكلون لحم»<sup>(٢٤)</sup> الله. وأخيراً فإن الأوخارستيا (الميثرية) هي عشاء يأكل فيه المريد جوهر (ميثرا)<sup>(٢٥)</sup> ذاته في

---

(\*) لوزاي: الأسرار ص ٢٧٤ - ٢٧٥ إن مسألة علاقات الأسرار الوثنية بالمسيحية من حيث هي ديانة خلاص قد أثارت مناقشات حادة لما تدن من نهايتها. وكلما توغلت الدراسات الحديثة المتعمقة في إظهار المشابهات الغريبة بين عقائد الميردين وطقوسهم وبين عقائد وطقوس المسيحيين الذين يرون أن (يسوع) مخلص، بذل العلماء الكاثوليك قصاري جهدهم لحجب هذه المشابهات ومحو السمات المشتركة. ومن أبرز الجهود التي أنفقت في هذا الاتجاه محاولة الأستاذ (بولانجه) Boulanger في كتابه «الأورفية» (باريز - ريدر ١٩٢٥). وأما كتاب الأستاذ (لوزاي) بعنوان: «الأسرار الوثنية والسر المسيحي» فإنه دراسة أكثر حياداً بكثير. ومن الطبيعي أن ليس في وسعي الإسهام هنا في هذا الخلاف. ولذا فإنني أقتصر على ذكر الوقائع التي يعرفها الجميع والتي هي، إن صح القول، خارج المناقشة. وليس في مكنتي إلا أن أرشد القارئ المستزيد من المعرفة إلى الكتب «المدرسية» التي وضعها (سالون ريناخ) Salomon Reinach و(كومون) Cumont و(كرايو) Graillot و(موريه) Moret وغيرهم مكنتياً بذكر البحوث الفرنسية.

إهاب خبز وشراب مقدسين. وقد ترتب على الديانة الجديدة أن تقدم معادلاً لجميع هذه الاستحالات السرية. ولما كان (يسوع) مطواعاً في نظرهم فقد أعلن: من سىأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية. إن الخبز الذي أقدمه لكم هو جسدي.

\* \* \*

ومن الجائز تحديد موقع النظريات المتصلة بعلاقات الأخلاق بالإيمان ببسر مماثل.

هل يتيح الإيمان الإسرائيلي العتيق أن يصنع الإنسان خلاصه؟ هل الخلاص يستلزم إيماناً مسيحياً بالمعنى الصحيح؟ لقد أجاب الإنجيل هذين السؤالين المتناقضين. الجواب الأول هو الذي لا يطلب سوى الإيمان بـ (الآب)، ويصدر بالطبع عن الأوساط اليهودية المتمسكة بفكرة الوحدة الإلهية: ويرى أولئك الذين يعيشون في هذه الأوساط أن (يسوع) لم يأت بديانة، بل بإيمان جديد. ولكن المريدين الوثنيين كافة يرون، على العكس، أن (يسوع) الهه الخلاص، شأنه شأن (اتيس) أو (ايزيس) أو (ميثرا): ولذا فإن من لا يؤمن لا يخلص. بل إن المرید القديم الذي نشأ على الوثنية يميل إلى إبراز (يسوع) ليشغل منزلة الصدارة في عقيدته، ويدعو إلى حبه حياً مباشراً على نحو أعظم، حياً صميمياً على نحو أعظم. ولذا نجد الجماعة اليهودية تجعل (يسوع) يقول: أطع ما يأمر به (الآب)، فتحيا. والجماعة الأخرى تجعله يقول: إن اليهود لا يعرفون (الآب). ومن لا يؤمن بـ (الابن) لا يستطيع أن يؤمن بـ (الآب).

وليس هذا كل مافي الأمر. ففي الأوساط الاغريقية الخالصة يوجد لاساميون. ومن المؤلف في الغالب اندلاع أحقاد قوية ضد التكتلات اليهودية القائمة وسط العالم الوثني: ولا يقتصر الواقع على الإكتثار من الهزء الرخيص بطقس السبت والختان، بل يُعامل اليهود معاملة عبید أشقياء فارين من مصر، معاملة أعداء النوع البشري، وأن إلههم هو إله برأس حمار، وأن رئيسهم (موسى) ساحر حقير<sup>(١٦)</sup>. وما أن تمايزت الطائفة المسيحية بوضوح عن الطائفة

اليهودية حتى استيقظت هذه اللاسامية القديمة بالضرورة لدى بعض الجماعات المسيحية. وقد ازدادت هذه اللاسامية بازدياد أهمية الأميين. ولذا كان من المحتوم أن يأتي يوم يطلب فيه الاغريق إلى (يسوع) إنكار صلاته بالإيمان اليهودي السابق. ونحن نشاهد (يسوع) - الأميين، يطبعهم، يدين إذن جميع عظماء «العهد القديم»، دون أن يستنثي (موسى) نفسه: «جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص».

أما فيما يتصل برجحان الأخلاق على الإيمان، فإن هذا الرجحان يستند إلى أولئك الذين عرفوا الفلسفة المسماة هلنستية. وهذه الفلسفة، كما يقول الأستاذ (روبان)<sup>(٢٥٢)</sup> Robin تتسم «بروح ذرائعية خالصة». أجل، إنها لاتزال تنطوي على منطق، وعلى علم طبيعة، أو على لاهوت ولكن «شيئاً من هذا كله لاشأن له إلا بالإضافة إلى تنظيم السلوك». فكأن هناك ما يشبه أن يكون «استقطاباً أخلاقياً للتأمل الفلسفي»<sup>(١٧)</sup>. فمن الأوساط الاغريقية أو المتأثرة بالاغريقية تخرج إذن، بصورة سوية، (وبتصريحات من طراز تصريحات هيلل) الصيغ الإنجيلية التي ترقى بالأخلاق إلى المنزلة الأولى: عامل الآخريين كما تحب أن يعاملوك، هذه هي (الشرعية) والأنبياء. ولكن جمهرة اليهود، على العكس، تتخذ إيمانها منذ قرون العنصر الأساس لأصالتها. ويرى المريدون الوثنيون أن عقائدهم هي الشرط الأول للخلاص. وأخيراً، فإن امتلاك الحقيقة هو الخير الأعظم في نظر المدارس المنبثقة عن الحركات الفيثاغورية أو الأفلاطونية. ومن هنا جاءت الصيغ المتعارضة: من يؤمن له حياة أبدية؛ ومن لا يؤمن مُدان سلفاً. ثم إن الأفكار المتصلة بالحرية وبالقدر المسبق ذات إتصال، هي كذلك، بمختلف الجماعات الاجتماعية.

يحسب اليهود، منذ الأصل، أنهم شعب الله المختار. وإذن فإن من البسيط جداً أنهم يحتفظون وسط الكنائس الأولى بهذه الفكرة الملأى بالغزاء والإنتفاج. فالخلاص، أي خلاص، وقف عليهم: إذن يقول (يسوع) إنه جاء من أجل خرافة في إسرائيل. وإن اليهود أطفال أما الأميون فإنهم «كلاب».



وبالمقابل، إن فكرة مثل هذه لا يمكن قبولها في الطوائف التي يكثر فيها الأميون. وإن مجرد وجود إغريق آتين من الوثنية يبرهن وجودهم في الكنيسة برهاناً كافياً على أن (يسوع) يخاطب الجميع وأن الجميع أحرار في الاستجابة لندائه. ومن ناحية أخرى، إن الذين صقلتهم الرواقية ليميلون للجهر عالياً بقدرة الإنسان على صنع خلاصه بإرادته الصراع وبحرية اختياره. وإذن فإن (يسوع) يعلن: «إنني سأجتذب الناس كافة» وأيضاً: «اقرعوا يفتح لكم».

ولكن من الحق أن الاغريق ليسوا كلهم أنصار الحرية. وعلى الرغم من احتياطات (أفلاطون) المتعلقة بحرية الاختيار فإنه يقرر أن أحداً لا يكون شريراً عن عمد، وأن الشرير سيعاقب. ومن جهة أخرى، أخذ اللاساميون يقولون كلما زاد افتراق اسرائيل عن (المسيح) دقة ووضوحاً غدا الشعب المختار الشهير هالكاً ملعوناً في الواقع: إن أحداً من المدعويين لن يذوق العشاء الرباني، وإن القدر المسبق يعود للظهور، ولكنه يعمل في الاتجاه المعاكس.

وأخيراً، هنا أيضاً، توجد (أسرار). ففي نظر (الأورفية)<sup>(٢٠٣)</sup> القديمة يحمل كل إنسان وزر الخطيئة الأصلية ومآله مبدئياً إلى الشر. ولذا فإن في وسع الديانة، بوجه الدقة، أن تمنحه وسيلة غسل هذا الرجس. ولكن (السن) لا يعرض في وضوح النهار أسباب العلاج التي يقترحها وإنما يصر إلى إدراك هذه الأسباب فيما بعد وهي مغلفة بالظلال. وفي قصة (أبوله)<sup>(٢٠٤)</sup> Apule الشهيرة أن (ايزيس) نفسها هي التي تنادي المختار الذي اصطفته وهي تنذر، في الحلم، (لوسيوس) Lucius كما تنذر على النحو ذاته الكاهن الذي سيعلمه ويطلعه. وهي التي تحدّد يوم الإطلاع على الأسرار ويتم ذلك في «هياة موت إرادي وخلاص يتحقق بالنعمة». فهي التي تمسك بيدها بمفاتيح الجحيم، وهي التي تدعو أتباعها «بعنايتها» إلى حياة جديدة<sup>(١٨)</sup>.

ويلاحظ الأستاذ (لوازي) أن في وسع (لوسيوس) أن يقول كما يقول القديس (بولس): «عندما راق للتي اختارتني سلفاً لخدمتها أن تتجلى لي فقد كشفت لي اسمها وأنا أقاوم نداءها»<sup>(١٩)</sup>.

وحيثما كانت تسود مثل هذه القيم وجب بالضرورة توافر (يسوع) يصطفي بنفسه مختاربه ويناديهم. ولذا فإن (يسوع) يعلن: لستم أنتم الذين اخترتموني، بل أنا الذي اخترتكم.

وعندما يخاطب (يسوع) الجموع بأمثولات لكي لاتفهم، وهو يخص بالشرح بعض تلاميذه الذين يحبهم نجد المحدثين لايقدرّون على فهم مثل هذا الموقف. ولكن اللغة التي يتكلمها (المخلص) هي مما يوحي إليه بها بلا ريب المريدون الذين أصبحوا مسيحيين. ذلك أن عملية الإطلاع في الأسرار تجري بالتدريج. ومن النادر أن نلقى، حتى بين المؤمنين الذين باحت لهم (ايزيس) بأسرارها الدينية الكبرى، أن نلقى صمت الديانة العظيم<sup>(٢٠)</sup>. وبعد أن ألح (لوسوس) بكلام معتمى إلى هذه الحقائق السامية الخفية خاطب القارئ بقوله: «إن ما حكيتك لك، فإنك، على الرغم من سماعك، ستظل له جاهلاً». وما أشبه الذين سمعوا (يسوع) بقراء (ابوله): إن لهم أذاناً ولكنهم لايفهمون شيئاً<sup>(٢١)</sup>.

\* \* \*

لننتقل أخيراً إلى مشكلة الجزء: إن تحديد الموقع الاجتماعي للنظريات المطروحة يتميز بدقة أعظم.

ترى نظرية (يوحنا) وعد الإنسان البرّ بمكافأة وحيدة هي امتلاك الحقيقة. فالبعث، وهو روحي كله، إنما هو انتقال من الخطأ إلى الحقيقة. و«الحياة الأبدية» هي أن يعرفوك أنت، الرب الحقيقي الوحيد، ومن أرسلك، وهو (يسوع - المسيح). ومن الجلي أن مثل هذه النظرية تصدر مباشرة عن أسمى ما تنطوي عليه الأفلاطونية: جاء في المأدبة: إذا وجب أن يخلد امرؤ أفلا تراه ذاك الذي نعم بتأمل الجمال الإلهي في نقائه؟<sup>(٢٢)</sup>.

ولكن هذا المذهب الرهيف لم يؤيده في الكنيسة تأييداً حقيقياً إلا نفر جد قليل من الفلاسفة الخالص. وعلى العكس، نجد فكرة خلود الروح، والدينونة، والجنة والنار، من الأفكار التي تمتد جذورها المتشعبة في الروح

الإغريقية. وهي مألوفة كذلك في بعض المدارس الفلسفية ولدى جميع المريدين، بما في ذلك أقلهم إطلاعاً، أولئك الذين يقفون في أدنى الدرجات.

إننا جميعاً نعرف الصفحة الشهيرة من «فيدون»: إن الأموات، بقيادة مارد، يصلون إلى مكان الدينونة. والذين ليسوا مذنبين تماماً وليسوا بأبرياء تماماً ينقلون إلى بحيرة (اشيروزياس) ويألمون بعض الوقت من عقوبات تتناسب وخطيئاتهم. والذين جعلتهم آثامهم يستعصون على البرء يلقون إلى الأبد في الجحيم Tartare. أما الذين عاشوا عيشة القداسة فإنهم يستقبلون في مساكن رائعة. ولا يغفل (أفلاطون) الإشارة إلى أن على الإنسان العاقل ألا يقبل هذا الوصف على علته<sup>(٢٣)</sup>. ولكن من البيّن أن المريدين لا يأبهون باتباع هذه الوصية الحذرة. وعندهم أن الدينونة والسماء والمظهر والجحيم كل ذلك ليس عرضاً يجمل بالمرء نشدانه والفرح به. فالـ (أورفية) تعلم بدقة كل ما لا نجد عنه في (فيدون) سوى لمحة أسطورية. وهي تصف للمريدين مقام القديس، أي القسم الأعلى من السماء، أو في مرج (برسيفون)<sup>(٢٥)</sup> المقدس. وهي تصف بدقة أيضاً في «النزول إلى الجحيم» العذاب الذي يلقاه الأشرار<sup>(٢٤)</sup> ومثل هذه المعاملة تفترض بالبدهة وجود عدد كبير من الناس الذين يحتمل أنهم يؤمنون بسائق الحيلة من الدينونة الممكنة ومن عذاب الجحيم. وكل إنسان ينطوي على أفكار ماثلة، سواء أكان إغريقياً أم يهودياً، لا بد أن يعده (مسيا) بدينونة وأن يبشّر الملعونين بالعقاب مثلما يبشّر المختارين بالثواب: وإذن فإن (يسوع) يعلن أن (ابن الإنسان) سيفترق النعاج عن التيوس، وأن الأبرار سيدخلون (الملكوت)، وأن الآخرين سيقدفون في الظلمة الخارجية ويلقون عذاباً شديداً.

ومن الجلي أن (أفلاطون) والمتقفين المستنيرين لا يؤمنون ببعث الأجساد: إنما الأرواح وحدها هي التي ستثاب أو تعاقب. ولكن الأستاذ (لوازي) يلاحظ أن ذلك لا يمنع مريدين كثيرين من تصور أن المختارين يسهمون في مائدة<sup>(٢٥)</sup>. وذلك لا يمنع حاجة الموت إلى نقع غلته<sup>(٢٦)</sup>، ولا يمنع أن يكون عذاب الجحيم مهياً على نحو إيلام الجسد<sup>(٢٧)</sup>. وقد كان من المحتوم أن تأتي فكرة بقاء الجسد

وتضاف في نظر البسطاء إلى فكرة خلود الروح، وأن «أسرار (ميثرا)» تعلم أن الجسد سيبعث<sup>(٢٨)</sup>. وحيثما تسود هذه الفكرة يراد من (يسوع) تأييدها. و(يسوع) في الواقع يتحدث عن المختارين وهم يشاركون في وليمة، ويشربون الخمر، في حين أن المدانين يألمون في جسدهم ويطلبون عبثاً نقطة من الماء.

مفهوم إنجيلي أخير: المكافأة ستكون سيادة اسرائيل على هذه الأرض، مملكة عدل وسعادة. أما أن تكون لهذه الفكرة نقطة استناد لدى الجماعات اليهودية الخالصة فذاك مما لا يحتاج إلى دليل. ولكن لنلاحظ جيداً أن هذه الفكرة ذاتها، إذا سلخنا عنها ماهو يهودي بالمعنى الدقيق، قد تسحر عدداً من الوثنيين. فجميع الذين يعانون من صنوف الجور الاجتماعي، وقد كانت جد قاسية في القرن الأول، ينجذبون ببسر عظيم لتخيل ثأر العدالة في هذه الحياة الدنيا ذاتها، وتخيل قرن من السلام العادل.

وقد أعلن (فرجيل)<sup>(٢٥٦)</sup> Virgile قبل أربعين سنة من التاريخ الميلادي مجيء زمن تنبأت به العرّاقة (سبيل)<sup>(٢٥٧)</sup> Sibyle: عهد جديد هو في سبيله للظهور، طفل يهبط من السماء، ابن الاله الأعلى. وبه ستمحي آثار الخطيئة الأصلية، وستسود به العدالة. ومرة أخيرة ستحدث حروب؛ ثم ستليها الوفرة والسلام. وسيحتل العرق الذهبي الأرض المتجددة وسيحكم ملك الآلهة العالم المطمئن.

وبالفضيلة يحكم المسالم الأرض<sup>(٢٩)</sup>.

إذن ليس بين جميع النظريات الأخلاقية الماثلة في الانجيل أية نظرية من النظريات التي ذكرناها إلا وهي مرتبطة بجماعة، بوسط اجتماعي. ولئن تناقض بعضها وبعض فمردّد ذلك أن هذه الجماعات التي جاءت لتتحد بجامع الإيمان بـ (يسوع) جلبت معها أخلاقاً ناشئة في تلك الأرضين وفي مناخات اجتماعية متفاوتة.

مذهب الأخلاق العملية والأوساط الاجتماعية: ١ - إن للأخلاق التي تنادي بالفرع من العالم نقاط استناد في بعض المدارس الفلسفية وبعض جماعات المريدين والطبقة الفقيرة ٢ - الأخلاق التي تدعو لإحترام العالم تستند إلى جماعات فلسفية أخرى ومريدين وإلى الطبقة الغنية ٣ - تطبيق هذه الفرضية على بعض القواعد الخاصة.

إذا انتقلنا من مجال التصورات النظرية إلى حقل الأخلاق العملية وجدنا التفسير ذاته وهو يزداد قوة ومتانة.

هناك مبدآن يتصارعان: إحترام العالم، والفرع من العالم. ومن البين أن هذين المبدئين يرتبطان كلاهما بأوساط اجتماعية.

ففي أوساط الأفلاطونية - الحديثة، ينتهي الآخذون بـ «فيدون» بالضرورة إلى الذعر حتى من الحياة. وفي الواقع، ما الجسد ذاته إن لم يكن سجن الروح؟ والفيلسوف يزدري متع الشراب ومتع الحب، وبوجه عام كل اللذات المتصلة بالجسد. وهو لا يكثرث بالثياب ولا بالأحذية. وكل جهده ينبغي ألا ينصّب على الزهو بأمور الشهوة وما يتصل بها: وإن كل ما ينشده هو أن يموت، لأن الموت وحده هو الذي يفتح باب الحياة الحقيقية.

وعلى الرغم من انطلاق الرواقيين من أفكار مغايرة إلى حد كبير، فإنهم يدعون، هم أيضاً إلى احتقار الجسد، ومن ثم، إلى الاستخفاف بالحياة. يقول (سينيكا)<sup>(٢٥٨)</sup> Senque: «ليس جسدي سوى سلسلة تقيد حرיתי ويقول (ابيكثيت)<sup>(٢٥٩)</sup>: «إذا عُنيت بجسدي اتخذني عبداً»: وكذلك: «إن جسدي ليس لدي شيئاً»<sup>(٣٠)</sup>.

وهذا الرأي ذاته نجده لدى المريدين. يقول الأستاذ (بولانجه): «إننا نجد في

أصل (الأورفية) «رأياً متشامماً عن الحياة»، لأن على الروح، وهي من أصل سماوي، «أن تفلت من عبودية الجسد»<sup>(٣١)</sup>. فعلى المريد، شأنه شأن قارئ (فيدون) أن «يزدري» إذن جسده، أن «يفرّ» من جسده. ومن دون هذا الإزدراء لا يوجد خلاص. وهذا ما جعل (يسوع) يقول: مَنْ أراد حياته ففقدّها. وَمَنْ لا يبغض حياته لا يقدر أن يكون لي تلميذاً.

الفلاسفة والمريديون يبغضون هذا العالم بغضاً نهائياً ماداموا يبغضون الحياة ذاتها. ولكن خلف هذا الفرع الفلسفي، الديني، يوجد فرع آخر، هو الفرع الناشئ عن رؤية المظالم التي يحفل بها العالم: جاء في «سفر الجامعة»: «فكرهت الحياة لأنه رديء عندي العمل الذي عُمل تحت الشمس... ورأيت كل المظالم التي تجري تحت الشمس فهو ذا دموع المظلومين»<sup>(٣٢)</sup>. ولأريب في أن فقراء الشعب الذين يألمون ويؤمنون بأن ليس لآلامهم دواء في هذا العالم بما هو عليه إنما يفرعون بالضرورة فرعاً حاداً وموصولاً. إن العامل الوضع، العبد، وكل أولئك الذين تزخر بهم المدن الاغريقية، يرون بألم العين الموسرين وهم يعرضون بذخهم فلا يقدرّون إلا على تمني الكارثة، أية كارثة، التي ستضع حداً للنظام الجائر. وذلك، بالمقابل، سيمنح المنزلة الأولى لجميع الذين يضطهدهم العالم، للبؤساء، للودعاء. وها هو ذا (يسوع) قائلاً: طوبى لكم أيها الفقراء لأن ملكوت الله لكم! طوبى لكم أيها الجياع، طوبى لكم أنتم الذين تذرّفون الدموع الآن! إن عالماً جديداً سيحل محل العالم القديم: الودعاء سيملكون الأرض.

بيد أن (أفلاطون) ذاته، وإن كان يدعو في «فيدون» إلى إحتقار الحياة احتقاراً مطلقاً، فإنه لم يحجم عن كتابة «الجمهورية» و«القوانين» وهو لا يمتحن تنظيم المجتمع، أي تنظيم العالم. وإن جلّ الفلاسفة الإغريق أولوا هذه المشكلة العملية اهتمامهم. بل إن (الأسرار) ذاتها لم تتخل عن شؤون الدنيا: إن (سيبيل) هي سيدة الحصاد، وحامية المدن، والأسر، والإمبراطوريات. وإن ديانة (ميثرا) تقدم للبشر أخلاق عمل جاد، عمل عسكري، ضمن أشياء هذا العالم، حيث يتصارع الخير والشر. ومن الطبيعي أن نجد الأغنياء لا يتعجلون دنو نهاية

العالم، وهم أقل اضطراباً من الفقراء. فالذين يمارسون وظيفة عامة يُعنون بالحياة وبمستقبل المجتمع. والذين يديرون تجارة كبرى يبذلون في سبيلها شيئاً من نفوسهم. وأولئك الذين يديرون خيرات المجتمع أو يسهرون على قيام نظام فيه يتذوقون بالتدرّج معنى شؤون هذا العالم ويهتمون بها. والأمر الأساس في نظرهم هو ترجيح جانب الحل الذي يعدونه منصفاً أو مناسباً في حال كل ملتقى. ومن شأن اضطرابهم النظر إلى الواقع بعين التقدير أنهم يتعلمون احترامه: ويتفق (يسوع) معهم حين يطالب بأسر متحدة، ويرؤساء يحكمون ويعمال يعملون، وبعبيد يخدمون، وبكلمة واحدة بعالم يبقى هو هو في خطوته الكبرى.

\* \* \*

وإليكم مسألة الحياة الإنسانية.

يقول الانجيل: الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون. وإن ما تنطوي عليه مثل هذه الجمل هو ألف فكرة، وألف عاطفة منتشرة في آثار المفكرين الوثنيين. يقول (يوريبيد)<sup>(٢٦٠)</sup>: «ويل للمجنون الذي يغزو المدن: إنه سيهلك بدوره»<sup>(٢٦١)</sup>. يقول (أفلاطون): إنه الجسد بأهوائه<sup>(٢٦٢)</sup>. والحرب في نظر جميع كتاب الإمبراطورية تقريباً «ماهي إلا لص متمرس يتحلى بأبهة عظمى»<sup>(٢٦٣)</sup>. ويرى (سينيكا) أن ذاك (جرم). ويعلن (بلوتارك)<sup>(٢٦٤)</sup> Plutarque: «لا تندلع حرب بين الناس إلا وهي نتيجة رذيلة من الرذائل». ويمضي إلى أبعد من ذلك فيمنع كل قتل، حتى ذبح حيوان، لأن من واجب الإنسان ألا يقضي على «كائن حي»<sup>(٢٦٥)</sup>.

ويظهر انجيل (يوحنا) (يسوع) وهو يخاطب اليهود: إن أباكم ابليس. وقد كان منذ البدء قاتل البشر. ولكن، كما تعتبر (الأورفية) أن البشر من نسل (الطيطان)<sup>(٢٦٦)</sup> فإن (الطيطان) يقتلون الناس منذ البدء ماداموا قد قتلوا

(\*) الطرواديات: ص ٩٥ وما بعد. انظر: المتوسلات ص ٩٤٩ وما بعد: ويل لكم أيها الفانون، لماذا تعدّون أسلحة ويذبح بعضكم بعضاً؟ الخ.

(زاغروس) Zagreus. فالقتل إذن هو الجريمة الكبرى التي تثقل كاهل النوع البشري.

أترى من المجازفة أن نفرض أن هذه الصيغ كلها، وجميع هذه العقائد المضادة للقتل وللحرب تثير صدى قوياً في نفس عامة الشعب وهم ضحية أبدية، في جميع الأنظمة، للمعارك الحربية، وهم بالضرورة متعطشون إلى أن يملك الودعاء الأرض؟

إن للمذهب القائل باللاعنف إرتباطه أيضاً ببعض الأوساط الفلسفية والطبقة الشعبية.

إن الضرورة الأليمة هي التي تجعل العبيد يجدون أنفسهم، وكذلك الفقراء المرغمون على حياة شبه عبودية، مضطرون للرضوخ ولقبول النير والامتناع عن طلب العدل. وإذا ما دعوناهم للصبر كان ذلك تكراراً بصيغ جميلة لما لا يكفون هم أنفسهم عن ترداده همساً في نفوسهم. إنما ذلك إعلان في وضوح النهار عما هو بالضرورة أخلاقهم المهنية.

وهذه الأخلاق، وهي وضیعة، ولكنها على الدوام قوية باطراد لأن مؤسسة الرق ظلت ناشطة، ولأن تكدس الثروات يضاعف عدد الفقراء، إن هذه الأخلاق السامية تتجلى في الفلسفة الوثنية. وإن صيغ (ايبكيتيت) تعلم الحكيم أن يعتنق الموقف ذاته الذي يدعو الانجيل المؤمن إلى اتخاذه.

يقول (يسوع): لاتقاوم الشرير. دعه يأخذ رداءك. ويقول (ايبكيتيت): «انتزعوا مني أرضي. إنها شيء آخر أرجعته. ولكن من انتزعها مني هو شرير. ما يعينك إن كان من أعطاك الأرض قد أعاد طلبها منك؟» «لاتهتم بردائك ولن تغضب على السارق»<sup>(٣٦)</sup>.

يقول (يسوع): دع الشرير يقتلك. لاتخش من يقتل الجسد ولكنه لا يقدر على قتل الروح. ويقول (ايبكيتيت): أي فارق في أن نفارق الدنيا بنتيجة طغيان طاغية أو سقوط حجر؟ قدّم عنقك للجلاد كما فعل (لاتيرانوس) Lateranus. ولكن إذا ما فاجأني امرؤ وحيداً وقتلني؟ أيها الغبي، إنه ليس أنت ما قتل بل جسدك<sup>(٣٧)</sup>.



يقول (يسوع): لاتقابل الشر بالشر. ويقول (ابيكيتيت): «وماذا؟ ألا أقابل من ضربني بالضرب؟ كلا. إن أضررته كنتُ ظالماً: ذلك أنني أضرت نفسي»<sup>(٣٨)</sup>.

يقول (يسوع): قابل الشر بالخير. صلّ لمن اضطهدك. ويقول (أبيكيتيت): «أضربك جارك أم جرحك؟ اربّ له. فقد أضاع الحنان والولاء. وله ينبغي أن تأسى. أما الحكيم إذا ضرب «فإنه يحب الذين يضربونه لأنه أبو الناس جميعاً أو أخوهم»<sup>(٣٩)</sup>.

قال (يسوع) أمام المرأة الزانية: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بالحجر الأول. وقال (ابيكيتيت): «ماذا؟ ألا ينبغي أن يهلك هذا اللص، هذا الزاني؟» «لاتكلم هكذا، بل ارحمهما بالحري.. أترك أصبحت أنت حكيماً في يوم واحد؟ ها أنت شديد القسوة»<sup>(٤٠)</sup>.

وفي مكنتي أن أكثر من ذكر الأمثلة كثيرة غير محدودة. ومن الممكن أن أضيف إلى نصوص (ابيكيتيت) أقوالاً لعشرة من الفلاسفة الآخرين. أليست من الأفكار العزيزة على (سينيكا) فكرة واجب مقابلة الشر بالخير، وأن السلاح الواجب استعماله ضد الشرير هو الطيبة الملحاح Pertinax bonitas<sup>(٤١)</sup> ألا نجد الفكرة ذاتها لدى (بلوتارك)؟ أليست فكرة شائعة؟ يقول الانجيل: «إذا أحببت من يحبونكم، فأى فضل لكم؟». ولكن أديباً وثياً يقول كذلك: «من ذا يمدحنا إن لم نخدم سوى صديقنا؟ يا لها من قضية! إن الفضيلة الجديرة بالإجلال، والقاعدة الأخلاقية القمينة بالاتباع، هي قهر غيظنا وأن نذكر حتى لدى الخصومات أن العدو إنسان: Meminisse Hominis»<sup>(٤٢)</sup>.

ولم تخل جعبة الفلاسفة حتى من إقرار روح التضحية والشهادة. ويرى (ابيكيتيت) أن الحكيم الحقيقي «يسلم بنفسه جسده لمن شاء ليصنع به ما أراد»<sup>(٤٣)</sup>. وذهب (ابولينوس التيانى) بنفسه للقاء (نيرون) وهو يحسب أنه سيعدمه<sup>(٤٤)</sup>.

ولكن بإزاء الفلاسفة الذين يرون أن الحياة محنة، قربان، والذين يبدوون استعدادهم لمغادرتها دون أسى، يوجد جميع الذين يهتمون بتنظيم المجتمع

الأرضي ويقبلون الدفاع المشروع عن النفس، الدفاع الفردي والاجتماعي، في جميع أشكاله. وكذلك إلى جانب العبيد وسواد الشعب الذين يرون أن الصبر ضرورة، توجد الطبقات الحاكمة التي تعتمد صنوف العقاب الجسدي بمختلف صورها لإدارة دفة الحكم. وإن الذين يحيون بيسر يعتمون العزم كله على مواصلة العيش: تراهم ابتغاء ضمان أمنهم وغبطتهم في حياتهم الخاصة لا يترددون، عند الاقتضاء، أو عندما يكون الأمر موائماً، في العدوان على حياة الآخرين. وهم يدعمون مشاعرهم بواقع كبير هو المائل في القانون الرماني. وبما أن لهم حق الطبقة، فإن لهم أخلاقاً طبقية. ولذا فقد نجم عن دخولهم حظيرة (الكنيسة) أن جلبوا إليها معهم أفكاراً تضاد كل التضاد الأفكار التي ذكرناها من قبل. إنهم يحتاجون إلى محاربين يحاربون، ويحتاجون إلى جلاّدين يعاقبون ويقتلون. وبما أن هذا كله مشروع في مذهبهم فقد استجاب (يسوع) لرغبتهم وقال: مَنْ ليس عنده سيف فليشتري سيفاً. وَمَنْ اقترب جرمًا فليقتل.

\* \* \*

والأمر عينه فيما يتصل بالثروة. إن كره الثروة نتيجة منطقية للمذاهب الفلسفية التي تدعو إلى احتقار الجسد. وهو، من ناحية أخرى، شعور طبيعي وحتمي لدى الجماهير البائسة التي ترمق بذخ الطبقات المترفة. وقد فضح (عاموس) بعنف، دون سائر الأنبياء، الأغنياء الذين يتكئون على أسرة من العاج، ويأكلون خراف الغنم، ويبيدون بائسي الأرض، ويغشون في الوزن، ويشترون المملق بنعلين<sup>(٤٥)</sup>. وفي اليونان، يحارب فلاسفة ينتمون إلى جميع المدارس طلب الترف ويمجدون الفقر.

أما (ابولينيوس التياني)، وهو معتدل دوماً، فإنه يجيز لمن ليس بحكيم أن يكون غنياً. ولا يطلب من التاجر إلا أن يكون شريفاً. ولكنه يريد أن يكون الفيلسوف فقيراً<sup>(٤٦)</sup>. ويتغنى بالفقر (ابيكثيت)، في حماسة أعظم: إنني بلا بيت ولا مال ولا عبد. وأنا أفترش الأرض. ليس لي سوى السماء والأرض ورداء. ماذا يعوزني؟ وأي امرئ، إذ يراني، لا يحسب أنه يرى ملكه وسيدَه؟<sup>(٤٧)</sup>.

إن الاهتمام بالثروة لا يحوّل الإنسان عن غايته الحقيقية وحسب، بل إنه يزيد في قسوة قلبه. وفي حديث يتحلى بتأثير أشبه بتأثير الأمثلة الانجيلية، يظهر الرب لنا الغني الذي يطرد الفقير ولا يعطيه حتى رداء العبد، بينما يلقي الفقير أخاه ويوقد من أجله نار القرى، ويهديه ثوب ابنته، وهو كل ما يحتوي عليه منزله<sup>(٤٨)</sup>. ويحتاج إلى صفحات كثيرة من يود أن يكثر الجمل التي جاءت في الفلسفة ضد قسوة الأغنياء.

ورب قائل يرى أن هذا كله بعيد جداً عن الشيوعية الانجيلية. خطأ. (فالاسينيون) عند اليهود لا يقبلون أية ملكية فردية ويشترون في كل ما يملكون<sup>(٤٩)</sup> وبعد أن أسف (أبولينوس التياني) من الإغريق على الزمن الذي لم تكن فيه الثروة مبعّلة، وحيث كانت تسود المساواة، يقترح على (الافسوسيين)<sup>(٦٣)</sup> أن يقتدوا بالطيور الشيوعية: إن العصفور الدوري يرى حبات القمح التي تسقط من جعبة طفل ولكنه لا يهتبل الفرصة السعيدة وحده بل يذهب ويحضر رفاقه كي يشاركوا في الوليمة جميعاً. ويقول المثل: انظروا كم تفرح الطيور من «شيوعية الخيرات». ويريد (أبولينوس) أن يمارس الناس هذا النظام الشيوعي وأن يغدّي بعضهم بعضاً وأن يغتذي بعضهم من بعض<sup>(٥٠)</sup>.

أترى من يعترض قائلاً إن (الإغريقي) لم يدعُ البتة إلى هذا التجرد السامي، التجرد فوق الإنساني، وهو يأمرنا حتى بالأنا نقلق على الغد، وأن نتكل على الله وحده لتأمين حياتنا وتلبية جميع حاجاتنا؟ لنقرأ (ابيكيت): «لماذا لا يقول الحكيم: أنا ابن الله؟». ولماذا لا يخشى شيئاً مما يحدث بين الناس؟ «إن قرابة (قيصر) أو أي واحد من أولي النفوذ في رومه تكفيننا لنعيش بطمأنينة، ولتحميننا من الاحتقار، ولتحررنا من كل قلق وكل خوف!». أجل، إن (ابيكيت) لا يخلص إلى القول: اجلسوا وابقوا عاطلين. وهو يوصينا باللجوء إلى أنفسنا، ولكنه يعدنا بأننا «أبناء الله» وأن علينا ألا نخشى الإملاق: لأن الحيوانات ذاتها لا يعوزها الطعام<sup>(٥١)</sup>.

بغض الثروة، شيوعية، لامبالاة: ليس بصوت الفلاسفة وحده تتأكد

الثنائية الفيثاغورية، والأفلاطونية، والرواقية، وحسب، بل إن ذلك هو أيضاً المثل الأعلى للجماهير المعوزة التي تزخر بها المدن الإغريقية.

ولكن، هنا أيضاً، أترى من الواجب أن نذكر بأن الفلسفة الإغريقية تؤيد بوجه عام، عندما تعالج تنظيم المجتمع، تمييز الطبقة الغنية عن الطبقة الفقيرة؟ أترانا نحتاج إلى التذكير بالاقتصاد الاجتماعي الذي يقرّه (أرسطو) و(أفلاطون) نفسه؟ أترانا نحتاج إلى التذكير بأن القانون الإمبراطوري يؤيد، في كل صفحة تقريباً، امتيازات المواطنين الموسرين وسقوط حقوق الوضعاء؟ وعلى هذا النحو نجد أخلاقاً أخرى تدخل إلى الكنيسة بدخول الأغنياء. وبينما جعل فريق (يسوع) يقول: ويل للأغنياء! بيعوا كل ماتمكون! لاتقلقوا على الغد! جاء فريق آخر وجعله يقول: اعملوا! ضعوا مالكم لدى أصحاب المصارف، ابحثوا عن الدرهم الضائع. ومن هنا يصدر جاه هذه الأخلاق، أخلاق الأغنياء، التي يجسر أشخاص على عرضها أمام أعين الفقراء في مدخل الكنيسة على أنها عمل صالح: أجل، إن من سينتمي إلى الجماعة ستكون له حياة أبدية. ولكنه سينال كذلك لقاء البيت الذي يتركه مائة بيت، هنا في هذا العالم؛ وبعبارة أخرى، إن ربحاً كبيراً ينتظره من الناحية المادية بسائق انتمائه إلى جماعة تضم بين صفوفها بعض المسيحيين الموسرين والكرماء.

\*\*\*

وعلى المنوال ذاته نجد أن للأخلاق المعادية للزواج والأسرة جذوراً في المجتمع اليهودي وفي المجتمع الإغريقي.

(الاسينيون) يحتقرون الزواج<sup>(٥٢)</sup>. ويرى أتباع (ميشرا) أن «العفاف المطلق» محمود<sup>(٥٣)</sup>. ويعتبر مريدو (اتيس) أن الخصاء هو حال «القداسة الممتازة»<sup>(٥٤)</sup>. ويمكننا القول عن (غال)<sup>(٥٤)</sup> Galle أنه خصى نفسه بالفعل من أجل ملكوت (سيبيل). ومن جهة أخرى يعتر فلاسفة فيثاغوريون بأنهم لم يلمسوا امرأة. وقد ذكر (فيلوسترات)<sup>(٥٥)</sup> Philostrate أن (فيثاغورس) استحق المدح لقوله إن على الإنسان ألا يتصل إلا بامرأته.

ويقبل (ايبكتيت) أن يكون للحكيم زوج وأولاد، ولكن عليه أن يكون متأهلاً على الدوام لتركهم حتى دون نظرة وداع: «إذا أُعطيَتْ زوجاً وطفلاً بدل النبات والقواقع فلا شيء يمنعك من قبولهما. ولكن إذا دعاك الربان فاركض إلى السفينة تاركاً هذه الأشياء كلها، بل لا تلتفت إلى الوراء»<sup>(٥٥)</sup>. ويردف (ايبكتيت) قائلاً: «إن الكلبى الحقيقى ينبغى ألا يتزوج. فالزواج يقتل قدسية نفسه. وأنى له أن ينهض بدوره الاجتماعى من حيث أنه رسول الآلهة إذا كان عليه أن يُعنى بزوجه وأطفاله؟ إن للكلبى الحقيقى أسرة هي الإنسانية: الرجال أبناءه، والنساء بناته. وهو ليس أباهم وحسب، بل هو أخوهم. إنه لديهم رسول الله»<sup>(٥٦)</sup>. وسيعكس (يسوع) صدق هذه العواطف ويقول: اترك زوجتك، وارك أبناءك، والأسرة الحقيقية ليست أسرة الجسد. وينبغى أن نضيف أن هذه الجملة التي تبدو لنا قاسية لدى (ايبكتيت) وفي الانجيل على قدر سواء، لاثير عين المشاعر لدى الجماهير المسترقة التي تحوّل قسوة أسيادها بوجه عام بينها وبين تذوق الحياة العائلية.

ولكن الأسرة في المجتمع الإغريقي شأنها في المجتمع اليهودى، تظل، على الرغم من ذلك، هي الجهاز الأساسى خارج دنيا العبيد. زد على ذلك أن الأسرة في العصر الإمبراطورى كانت، على ما يبدو، تريح ما يخسره المجتمع. فهي لم تحتفظ بمنزلتها في الدولة وحسب، بل إنها احتلت في القلوب منزلة أعلى. وعلى هذا النحو فقد دخلت إلى الكنيسة الأخلاق شبه - العامة التي كانت تربط في طبقة الأحرار الزوج بزوجه، والوالدين بالأبناء. وإن (يسوع) ليمجد الزواج واحترام الأبناء ولديهم ويظهر أباً يذبح العجل المسنن بمناسبة عودة ابنه الضال.

\*\*\*

بقي المجتمع.

إن الفكرة القائلة إن ممالك العالم شيطانية، وإن السلطة السياسية سيئة بالتعريف، هي فكرة سائدة في الجماعات اليهودية وفي الجماعات الوثنية سواء بسواء. فأبناء اسرائيل يرون ألا توجد أية سلطة شرعية إلا السلطة التي تحكم

باسم الله وحده. وإن سلطة الرومان شيء مقيت في نظرهم. ومثلها كذلك سلطة ملوك الشرق الذين يجعلون رعيتهم تعبدهم عبادة آلهة. ومن هنا جاء حادث التجربة والغواية عندما أظهر (ابليس) لـ (يسوع) ممالك العالم ومجدها على أنها شيء يحوزه.

والفكرة ذاتها، خارج العالم اليهودي، تستند إلى بعض المذاهب الفلسفية التي تذهب في حل مشكلة الشر القديمة إلى وجود إلهين، أحدهما شرير، والآخر خير، وأن الإله الشرير هو الذي خلق العالم. وقد أذاع (مريقيون) هذه النظرية في الكنيسة (وهذا لايعني أنها لم تكن قد نفذت إليها قبل مريقيون): ولذا نجد إنجيل (يوحنا) يظهر لنا (بيلاطس) على أنه مجرد عميل لأمر هذا العالم، أي لـ (إبليس).

إن سيطرة الرومان لم تحدث لدى الإغريق الفرع ذاته الذي أحدثته في العالم اليهودي. فقد قبلها الإغريق. ولكن من البديهي أنها لم تلق حماسة مثل حماسة النظم التي سادت زمن الاستقلال. ولم يعن الإغريق الخاضعون للرومان بالسياسة إلا قليلاً. وقد سخر فلاسفة من طراز (ابيكيتيت) سخرية حادة من الذين ينشدون الوظائف العامة، من الذين يهتمون بوطنهم: «من أي بلد أنت؟ لا تجب قائلاً: إنني من (أثينة) أو من (كورنثوس)، بل قل كما يقول (سقراط): أنا من العالم»<sup>(٥٧)</sup>. «ألقوا عنياً وجوزاً، فيلتقطها الأطفال على عجل ويتقاتلون في سبيلها. أما الرجال فلا يفعلون ذلك: لأنها أمور جد تافهة لديهم. أجل. عند توزيع مناصب القضاة: على الأطفال أن يهتموا بها... وإذا وزعت مناصب القادة والقناصل: فلينبهها الأطفال». بل إن المحاكم ذاتها لاتنفيد الحكيم. وإذا ما أُسيء إليه فهو لن يصيح: لنذهب إلى الحاكم المطاع! ماهو القيصر. ماهو في نظر الكلبي إن لم يكن ذاك الذي أرسله؟ إنه لايلجأ إلا إلى الله»<sup>(٥٨)</sup>.

أما الامتيازات الاجتماعية فإن الفيلسوف لا يكثرث بها. ومهمته هي أن يحتقره عبد، ويهزأ منه أولئك الذين يلقونه، ويكون الأخير في كل مكان، وفي الاحتفالات، والمناصب، والمحاكم، وفي أتفه الأعمال<sup>(٥٩)</sup>.

ومن المعلوم أن الإكثار من ذكر مثل هذه الأمثلة أمر جد يسير. ولكن ما

سبق منها كافٍ لإظهار أن الصيغ الانجيلية: لاتدين أحداً، لاتلجأ إلى المحاكم، إذا أردت أن تكون عظيماً فكن الأخير بعد الجميع، هي صدى العالم الإغريقي. ولكن من الجلي أن المدارس الفلسفية ليست وحدها هي التي تصلح نقاط إستناد للمذاهب التي تنادي بواجب الفرع من السلطات السياسية. إن الوسط الذي يختمر فيه هذا الكره الشديد إنما هو بالضرورة العالم الذي لا يكتب، بل ينهض أحياناً بسائق الوقائع الحتمية بالدور الأساسي، إنه هؤلاء الآلاف والآلاف من العبيد والعامّة الذين يلقي بهم النظام الإمبراطوري وهم عزل في مهب نزوات الأغنياء، ويعرضهم لجميع أهواء ذوي النفوذ. إنهم يطيعون لأنهم عزل، لأن الوزر الرهيب للسلطة الرومانية تستعبد من كان أكثرهم عزماً. ولكن ألا يكون من الجنون افتراض أنهم وهم ضحايا نظام بشع يقرونه في أعماق نفوسهم ويرون أنه شرعي؟ أليس من البديهي أنهم، وهم بشر يألمون، يخلطون السيد بالحاكم بالنظام الاجتماعي والنظام السياسي؟ والجماهير الوضيعة تنتظر الأمسية العظيمة التي ستتهار فيها السلطات الملعونة والتي ستنجز ثأر الصغار، والضعفاء، والبؤساء، وهي ستتيح أخيراً قول القائل: طوبى لكم أيها الباكون، ها أنتم أولاء تنالون العزاء، طوبى لكم أيها الجياع، ها أنتم أولاء تشبعون!

بيد أنه، بإزاء كل هذه الجماعات التي تنظر إلى السلطات العامة، منهم من ينتظر بازدياد، ومنهم من ينظر بحقد طاع، توجد كتلة الراضين بقسوة أقل، وهذا أمر طبيعي، عن السلطة التي تحافظ على النظام. هناك التقليد اليوناني القديم الذي ينصح بطلب الوظائف العامة. وهناك دنيا القضاء والحكام والموظفين الذين لا يستطيعون كرهها دون أن يكرهوا أنفسهم ماداموا يعملون في السلك الإمبراطوري. وهناك أخيراً جميع الذين لا يتحمسون بلا ريب البتة للسياسة الرومانية، ولكنهم يعرفون أن كل مقاومة ستكون سدى، والذين يعون أن ضمان مجرى الحياة الاجتماعية يوماً في إثر يوم يوجب توافر حكومة، أية حكومة، فذاك أفضل من الفوضى. ولذا نجد الانجيل يعلن، بعد أن أظهر (قيصر) عميلاً لـ (ابليس) قائلاً: أعطوا ما لقيصر لقيصر.

إنني أوقف هنا هذا البرهان. ولتفضل القارئ بالألا يجد ثمة سوى

محاولة أولى. وإذا أردنا أن نذكر بشيء من التفصيل كيف ترتبط كل التناقضات الموجودة في الأناجيل بنقطة إستناد أو أكثر في الجماعات التي نشأت فيها هذه الأناجيل لاحتجنا إلى مجلد كبير. وإنما أردت أن أبين أن تفسيراً من الطراز السوسولوجي يتمتع وحده بفرصة أن يكون خصيباً يوضح الوقائع الأساسية.

بقي أن نبين كيف جاءت المذاهب الأخلاقية ودخلت الكنيسة عن طريق شتى الجماعات وتراصفت في الأناجيل دون أن يعنى أحد بتغطية تناقضاتها.

#### — ٤ —

تأثير الجماعات الاجتماعية في كتابة الأناجيل: ١ - إن الجماعات المختلفة تعمل منذ الأصل على أنحاء متعارضة ٢ - كتابة الـ (لوجيا) ٣ - كتابة الأناجيل.

إن هذه الجماعات الاجتماعية المثقلة بضروب من الأخلاق المتناقضة تعمل، منذ البدء، في منحنى مخالف.

وكثير من المؤرخين لايعترفون بذلك. فإذا أخذنا برأيهم قلنا إن وحدة جلية جداً توجد منذ البدء: المسيحيون ليسوا سوى أناس فقراء، جهال، بسطاء، كانوا ينتظرون بثقة متحمسة (رجعة المسيح). وهم أعداء العالم لأنهم يألمون وهم مستعدون لبذل أفسى صنوف التضحية لأنهم يؤمنون بقرب الحل، وهم يجمعون على ترجيح أخلاق الزهد المطلق: ذلك أن الاحتقار التام للأسرة، والثروة، والمجتمع، يرتبط منطقياً بفكرة أن العالم يدنو من نهايته. ثم مرت الأيام يتلو بعضها بعضاً ولما يأت (الرب). وتضائل الأمل بدنو حل قريب. وظهرت الشكوك. ودخل أغنياء إلى الكنيسة، وحكماء، وذوو نفوذ. وإذ ذاك، ولكن إذ ذاك وحسب، أخذت أخلاق الزهد بالإنحسار وصارت الأخلاق الأخرى، على العكس، تزداد جرأة يوماً بعد يوم.

إن هذه النظرية تنطوي على قسط كبير من الحقيقة إذا طبقناها



على تطور الأخلاق المسيحية في القرن الرابع. فالكنيسة بعد (قسطنطين)<sup>(٦٦)</sup> Costantin قد اندمجت في الإمبراطورية، وحكمتها نخبة مصطفاة، وسرعان ما رُفض الحلم العتيق بـ (رجعة المسيح) فدعت الكنيسة إلى احترام العالم<sup>(٦١)</sup>. ولئن اتخذت الكنيسة هذا الموقف، وحملت جملة أتباعها على قبوله دون صدامات كبرى، فمردّد ذلك بوجه الدقة يرجع إلى أن ثمة نوعين من الأخلاق، لانوعاً واحداً، بين المسيحيين في ذاك العصر، يرجع إلى أن هذين المذهبين الأخلاقيين قد ذاعا منذ الأصل في الطوائف المسيحية.

قد يقال لنا: إن المؤمنين كافة كانوا في البدء يأخذون بأخلاق الزهد لأنهم كلهم كانوا ينتظرون (رجعة المسيح). ولكن، بادئ ذي بدء، من المحتمل قليلاً أن يكونوا كلهم ينتظرون (الرجعة)؛ وثانياً، من الثابت تقريباً، أن أولئك الذين كانوا ينتظرون (الرجعة) أنفسهم لم يعتقدوا كلهم أخلاق الزهد.

وفي الواقع، كيف نصدّق أن أوائل اليهود الذين جاؤوا إلى (يسوع) كانوا كلهم، حصراً، يهوداً ينتظرون (مسيا) على الطريقة القديمة؟ كيف نصدق، عندما كانت الثقافة الإغريقية تؤثر من قبل تأثيراً كبيراً على فكر إسرائيل، أن واحداً من هؤلاء لا يرى أن (يسوع) سيد حياة أبدية يكفل لأتباعه خلوداً سعيداً؟ إننا مهما عدنا إلى الوراء نحو أقدم عهد الطائفة فإننا نجد «مسيحيي الختان» والآخرين: وقد كان (بطرس) ذاته يختصم وهؤلاء الأولين. فليس من التهور أن نفترض أن أنصار «الختان» ينتظرون بفارغ الصبر (الرجعة)، ولكن الآخرين، وهم أكثر تأثراً بالثقافة الإغريقية، يكتفون بأن يطلبوا من (يسوع) إنقاذهم من الموت الأبدي وبيتسمون عندما يسمعون الحديث عن مجيء (ابن الإنسان) مجيئاً محتملاً قريباً.

أضف إلى ذلك أن انتظار (الرجعة) لاينتج بالضرورة أخلاق الزهد. وكل شيء يتبع الروح التي تصحب هذا الإنتظار، يتبع الشكل الأخلاقي الذي يتوقع أن يظهر فيه (المسيح).

أوجب على (الرب)، حين يرجع، أن يبطل الثروة والمجتمع والأسرة وحتى

تمييز الجنسين بوصفها أموراً سيئة؟ إن كان الجواب بالإيجاب، كان من الطبيعي أن يحتقر الناس ويبغضوا هذه الوقائع الكريهة والآيلة إلى خراب قريب، من الطبيعي تعليم زهد مطلق.

ولكن إذا ترتب على (الرب)، على العكس، أن يعيد، بيد قوية، مجد إسرائيل، شعبه، وينقذه، بياس أعدائه، ويهين لأتباعه عروشاً من ذهب ويجعلهم يحكمون الأرض؟ إذ ذاك يترتب على المؤمن أن يتمنطق، وأن يبيع رداءه ليشتري سيفاً بدل تخليه وتواضعه وزهده في كل شيء، يترتب عليه التهيؤ لحكم العالم، بدل كرهه وبغضه.

إن تعارض الأغنياء والفقراء، البسطاء والحكماء، إنما هو تعارض قديم بلا ريب. وقد تسحرنا فكرة الطوائف الصغيرة الأولية التي قد لاتضم بين جناحيها سوى معوزين وجهال وهم على الرغم من ذلك يتهيأون لحركات كبرى تززع أركان العالم. غير أن هذه الصورة الفاتنة تشوّه الواقع. وفي وسع المؤمن، إن شاء، أن يتخيل أن جميع المؤمنين الأوائل كانوا مملقين وأنهم عاشوا، إن عاشوا، بفضل من الله الذي يتولى الزنابق وطيور السماء. أما المؤرخ فإنه يلاحظ، بوصفه مؤرخاً، أن أقدم الجماعات المعروفة، جماعة أورشليم، كانت تعيش ببسر، كما جاء في «أعمال الرسل»، على الرغم من أنها كانت تحفل بالفقراء. ويخلص المؤرخ إلى أن فيها أغنياء، إن لم نقل عدداً غفيراً من الميسورين. يقول الكاتب: «والأملاك والمقتنيات»<sup>(٦١)</sup> كانوا يبيعونها. وهذا يعني أنهم كانوا يمتلكونها. وإذا صح، كما يقول في مكان آخر، «إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً»<sup>(٦٢)</sup> فمرّد ذلك أن مالكي البيوت أو الأرضين كثر أو موسرون. ولما كانوا يكفلون حياة الطائفة فقد كان من حقهم أن يجأروا، ولئن كانوا يتجردون من أموالهم فقد كانوا يتجردون ببسر أقل من أخلاقهم. وإن الذين يديرون الصندوق المشترك يجهرن، هم أيضاً، بصوت الحكمة العملية؛ لأن صاحب الخزينة هو الذي يعيد أكثر الناس اندفاعاً وحماسة إلى أرض الواقع، وذلك في أكثر الجماعات اضطرراً. وما يصح بشأن كنيسة أورشليم يصح كذلك في الكنائس البولسية. يقول القديس (بولس):

«ليس كثيرون (بيننا) أقوياء، ليس كثيرون شرفاء» ( ١ كورنثوس ١/ ٢٦). وإذن يوجد قلة منهم. قبضة من الأغنياء وسط جماعة من الفقراء. وهذه القبضة لها تأثيرها، ولانماص من التعامل معها.

ومثلما يوجد أغنياء، يوجد حكماء. وهنا أيضاً يستطيع المؤمن، الشاعر، أن يقول في نفسه إن جميع المسيحيين الأوائل كانوا غير متعلمين: ولئن استطاعوا، على الرغم من هذا الجهل، النجاح في اجتذاب هذا العدد من الأتباع فذلك لأن السنة من النار قد هبطت عليهم يوم عيد الفصح وجعلت هؤلاء البسطاء متعددي اللغات. أما التاريخ، وهو ربيبي، فيتخيل أن بين المؤمنين الأوائل يوجد أناس متعلمون يتقنون لغات عدة. فالخطباء الذين يتحدث عنهم سفر «أعمال الرسل» يعرفون «العهد القديم» ويستشهدون به ببراعة. ولايكاد المرء يتخيلهم وهم يخاطبون إغريقيين ويهدونهم يستعملون لغة قروي أو عامل أمي. زد على ذلك أن الخطب التي تعزى لهم ليست بالخطب البسيطة. إن خطبة (ايتيين)<sup>(٢٧)</sup> Etienne في سفر «الأعمال» درس صغير في التاريخ. وعندما يأتي (بولس) إلى أورشليم لعرض انجيله فإنه يعرضه «بالانفراد على المعترين» (غلاطيه ٢/٢). ولأريب في أنه يتحدث باعتزاز عن هؤلاء الوجهاء: «إنهم شيء مهما كانوا لافرق عندي. الله لا يأخذ بوجه إنسان». ويبقى من الصحيح أن المناقشات المطولة التي تحدد مستقبل الكنيسة قد استمرت بين بعض شخصيات مهمة وأن من العسير أن نفترض أن هؤلاء الرؤساء لا يشكلون نخبة من الناحية الفكرية.

والأمر هو عينه بالاضافة إلى الاغريق. يقول (بولس): «اليهود يسألون آية واليونانيون يطلبون حكمة» (أ. كورنثوس ١/٢٢). وقد أعطاهم (بولس) نفسه مايشتهون. ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على آثاره حتى نتبين أنه لم يعرف «العهد القديم» وحسب، بل إن براعته في المناقشة تنم عن براعة محترف. فالحكمة اليونانية أليفة لديه. أيقول امرؤ إنه الوحيد الذي يملك هذه الثقافة الواسعة؟ ولكنه نفسه إذ يقول: ليس بيننا كثيرون اقوياء، يقول كذلك: ليس كثيرون حكماء حسب الجسد. وهؤلاء الحكماء حسب الجسد هم الفلاسفة

المنبثقون عن الوثنية. إنهم ليسوا «كثيرين»، وإذن هم قلة. ويذكر سفر «الأعمال» (ابلوس) Apollos على أنه «اسكندري الجنس، رجل فصيح مقتدر في الكتب» (أعمال ١٨/٢٤). وثمة غيره ممن ظلوا مجهولين. ولكن بعض الحكماء، مهما قلّ عددهم أحدثوا بلا ريب تأثيراً ضخماً على البسطاء الذين يحيطون بهم.

يتضح إذن أن الجماعات الاجتماعية التي ترتبط بها نظريات متنافرة وأخلاق متناقضة كانت تتلاقى منذ الأصل وتتصارع داخل الكنائس. فكيف تمّ تأثيرها في الأدب الانجيلي؟

\* \* \*

إن من أكثر النظريات رواجاً اليوم بين المفسرين تلك التي ترى أن الـ «لوجيا»، أي مجموعات «أقوال» (يسوع) «تدور منذ وقت مبكر بين المسيحيين».

فإذا قبلنا وجود (يسوع)، بالمعنى العادي والمعنى الإنساني للكلمة، اضطربنا لافتراض أن أوائل مؤلفي الـ «لوجيا» جهدوا لجمع جمل قالها (يسوع) بالفعل. وإذا ذلك لانفهم كيف استطاع مؤمنون أن يدسوا بعدئذ في وسط هذا التعليم مذهباً مضاداً.

ولكن لتتبع فرضيتنا. إن (يسوع) ليس شخصاً تاريخياً. إنه إبداع اجتماعي يعرب عن المثل الأخلاقي الأعلى لبعض الجماعات: فإذا كان هذا المثل الأعلى متناقضاً فإن الـ «لوجيا» متناقضة بالضرورة ولا يوجد أي نص أصلي يربط أولئك الذين يقذفون الصيغ، يجمعونها: إذن كل واحد يعرب عن الأخلاق التي يعتنقها بنسبتها إلى (يسوع).

هذا إنسان نصير الفقراء. لقد سمع إبان الاجتماعات التي يتكلم فيها (الروح)، سمع مؤمنين ملهّمين يحملون على الأغنياء. كان أحدهم يصيح: ويل لكم أيها الأغنياء! والآخري يحكي قصة شاب غني يأبى أن يبيع كل ما يملك وإذا به يخلص إلى مايلي: من الأيسر أن يمرّ جمل من ثقب إبرة من أن يدخل غني

ملكوت الله، فهذا الرجل الذي يكتب الـ «لوجيا» يحزّر الصيغة والقصة ويخضعهما لبعض التنقيح فيزيد حدة الأولى، ويبسّط الثانية. وما هماذا «قولان» من الـ «لوجيا» ثبتتهما الكتابة. هل يوجد (وحيان)؟ كيف نرتاب في ذلك. لقد كان الأخوة يتكلمون بالهام (الروح). وإن (بولس) ليقول: (يسوع) هو (الروح) (٢ كورنثوس ١٧/٣).

ولكن لنأخذ شخصاً من الطبقة المتوسطة. لقد سمع خلال اجتماع آخر غنياً يحكي بإعجاب قصة (زكا) الذي آمن وأعطى نصف مايملك. وقد رأى هذا الشخص أن ذلك جميل جداً: فلترضّ السماء بأن يصبح مثل هذا النموذج قدوة! إذ ذاك كتب القصة. وما هي ذي تسمي «قولاً» من «لوجيا» (يسوع)، وهو قول يعارض ماسبقه.

وفي ذات يوم جاء يهودي من أنصار فكر إسرائيل العتيق وأعلن بحماسة قرب مجيء (ابن الإنسان). إنه آت، وكأنه ملك حاتق وهو سيبيد الأشرار. وسيسحق أعداء اليهود وسيسود الشعب المختار. الصوت صوت قاس، والجماعة لاهثة: لقد وُلد «قول». ولكن رجلاً يونانياً أظهر (يسوع) في يوم آخر وهو يدين الناس ويدعم الأبرار: يهود أو غير يهود: إن «قولاً» جديداً قد وُلد.

البارحة ثار متمرد على (رومه) وعلى كل الحكومات، وهي بنات (ابليس). اليوم ينصح رجل وقور، مبجل بالحكمة، بأن يدفع الاخوان الضرائب المترتبة عليهم: ها هماذا «قولان» يذيعان في الكنائس.

الحكماء يتكلمون، والبسطاء، والعلماء، والجهال، واليهود، والأمميون، واليهود المتأثرون بالإغريقية، وعابد (ميثرا) سابقاً، وعابد (اتيس) قديماً، ومَن قرأ «العهد القديم»، ومَن قرأ (أفلاطون)، ومَن قرأ (الرواقيين)، ومَن يحب إسرائيل، ومَن يبغض اسرائيل، والودعاء والعنيفون، والصابرون والمتمردون، والأغنياء والفقراء، والإنسان الوقور تارة، والمجنون أخرى. ومن خضم هذا الصخب تطفو الصيغة التي تأسر، والحكاية التي تثير الابتسام، والحكاية التي تبعث الرعدة، والحكاية التي تدغدغ الحلم. وهذه هي مجموعات الـ «لوجيا» تحملها أيد تقية

وتمضي بها من كنيسة إلى أخرى. لقد تكلم (يسوع): ولكن بما أن كل إنسان يجعل (يسوع) يتكلم، فإن «أخلاق (يسوع)» يصدم بعضها بعضاً أو يناقض بعضها بعضاً.

أيقال إن على الذين وضعوا مجموعات الـ «لوجيا»، عليهم هم على الأقل، أن يفطنوا للتناقضات والتباين؟ لاشيء يفوق ذلك احتمالاً، في الواقع، إن الذين يكتبون حكماً وأمثالاً، على الرغم من إساءة الناس تقديرهم، هم فنانون واثقون كل الثقة من صناعتهم. وليس بممكن ألا يكونوا قد رأوا أن كل هذه «الأقوال» التي نحتوها تتعارض، وأحياناً تتعارض بشدة. ولكن بأي حق يحذفون بعضها دون بعض، مادام هذا التعارض بين الصيغ هو الإنعكاس الأمين لتعارض مائل بين الجماعات؟ واليوم أيضاً، ألسنا نرى في برامج الأحزاب الكبرى، في أوامرها اليومية، صيغاً متنافرة يجاور بعضها بعضاً وهي تستهدف إرضاء شتى عناصر الجماعات؟ إننا لانقيم هذا التقريب بين الأمرين من باب السهو والتغافل.

وليس في وسع مؤلفي الـ «لوجيا» أن يرهنوا شرفهم لقاء أن يظلوا انتقائيين (وبالإجمال لقد برهنوا على أمانتهم بأن سجلوا دونما إنحياز كل ما بدا في الكنائس جيداً أو ملهماً) وحسب، بل إن من الجائز جداً، فوق ذلك أن تكون مجموعاتهم قد تعرضت للتحريف، وأن يكون رأي حزب قد تجلى بحدة مسرفة وإذا بحزب آخر يهت متيقظاً ويدسّ بيد حذرة التصحيح المنقذ. وعلى هذا النحو نفسر أن الكلمة المحافظة: «لم آت لالغاء (الشريعة)» قد وُضعت في «الموعظة على الجبل» إلى جانب جمل ثورية غرضها بوجه الدقة إلغاء (الشريعة). وكذلك يمكن أن نفسر أن تكون الأمثلة الجريئة، أمثلة وكيل الظلم، ما أن ظهرت حتى جاءت يد إنسان غني أصابته الفضيحة فدست جملة ضد العبيد اللاشرفاء. وكذلك أيضاً قد نفسر أن الجمل التي تقيم عدالة (كنيسة) تمس تقريباً القول الشهير الذي يأمر بالعفو سبعين مرة سبعاً.

\*\*\*

إن فكر مؤلفي الـ «لوجيا» هو روح الانجيليين. وقد يتفق أن يكون لمؤلفي الأنجيل المتقاربة في بعض النقاط أفكار خاصة بهم وأن يدافعوا عن نظرية بالرغم من مبالغة الباحثين أحياناً في إبراز إنحيازهم. ولكن من الثابت أنهم ليسوا، في مجال الأخلاق، أناساً منهجين. وقد كان في وسع أبسط عناية بالوحدة أن تحملهم على حذف هذه التناقضات الصريحة التي تنتشر على ما يبدو في كتاباتهم أو تغليفها على الأقل. أما أنهم قد تركوها بعد أن رأوها فإن ذلك يرجع إلى أن شيئاً لا يشبه أن يكون تعليماً صحيحاً لـ (يسوع) بوصفه شخصاً تاريخياً حتى يعتمدوه أساس اختيارهم؛ وقد جمعوا، هم، كل الأقوال التي عزيت في الكنائس إلى (المعلم).

ثم قد يكون من المحتمل أيضاً أن آخرين عبثوا بالنص الذي وضعوه بعد نشره.

ولاريب في أن من الأصعب تحوير قصة متماسكة في أي مجال من تحوير مجموعة «لوجيا». ولكن تاريخ الانجيل الرابع يدلنا على أن ليس ذلك محالاً، وأن من الممكن تشويه فكر انجيل بذاته بإضافات جديدة.

لنلق نظرة إلى الطبعة التي قدمها الأستاذ (دولافوس) عن نص إنجيل (يوحنا) الشهير. الكاتب الأول قال: «هو ذا تأتي الساعة وقد أتت الآن» وحيث يعبد العابدون الحقيقيون الآب بالروح والحق». وفوق هذه الجملة الأخيرة جاء كاتب آخر وقد أفزعته مثل هذه المرأة المسرفة قدس جملة أخرى: «الخلاص هو من اليهود» (ص ١٤٥). الكاتب الأول جعل (يسوع) يقول: «الروح هي التي تعطي الحياة. أما الجسد فلا يفيد شيئاً». والكاتب الثاني الذي يرتعد فزعاً، يضيف في الإصحاح ذاته: «جسدي مأكّل حق ودمي مشرب حق». (ص ١٦٠ ، ١٥٩). والإضافات المماثلة كثيرة جداً في الإنجيل الرابع. وقد نجحت حماسة الأستاذ (دولافوس) البارعة في الكشف عنها لأن الكاتب الأول لانجيل (يوحنا) كان هو أيضاً رجلاً منهجياً، فيلسوفاً، وإن مذهبه يبلغ من الدقة ما يمكن من تمييز بعض مقاطع لا يمكن أن يكون قد كتبها بنفسه تمييزاً

دقيقاً. وأما في الأناجيل المتقاربة فإن التمييز في المجال الأخلاقي تمييز أصعب، لأن المؤلفين أنفسهم قد جمعوا الأقوال الأكثر تناقضاً: ولذا فإن الإضافة الملحقة لاتبرز على وجه هذه التناقضات. ولكننا لانستطيع أن نستنتج من هذه التبديلات التي تفوتنا أنها لما تحدث، ذلك أن ليس ثمة أي سبب للوقوف من إنجيل (متى) أو إنجيل (مرقس) موقفاً أشد إجلالاً منه حيال إنجيل (يوحنا).

هكذا تتضح التناقضات التي أشرنا إليها خلال دراستنا. فلئن وُجدت في الأناجيل، فذلك لأن هذه الكتب المقدسة لا تحتوي تعليم رجل، بل إنها تعكس حادثاً اجتماعياً كبيراً: كل الحياة الأخلاقية، الحارة والمتنوعة، للكنائس الأولية، فهذه الكنائس التي تضم رجالاً ونساءً، جاؤوا من أكثر الأوساط الاجتماعية تبايناً تدرك انتشار أكثر النظريات تنوعاً وأقل التعاليم توافقاً في أرجائها. أفكار يهود، وأفكار الإغريق، وأفكار صغار، وأفكار كبار، وأفكار بسطاء، وأفكار حكماء، وأفكار أغنياء، وأفكار فقراء: وهذه العناصر المتعارضة كلها تتصادم تصادم الجماعات التي ترتبط بها. وعن هذا الاختلاط الاجتماعي والأخلاقي يعكس الانجيل، وهو مرآة أمينة، صورتها المتमوجة.



## خاتمة

في وسعنا الآن أن ننظر، دونما دهشة، إلى الحادث الذي يبدو غريباً في ظاهره، وقد أشرت إليه في مستهل هذا الكتاب: حادث أن عدداً كبيراً من الأحزاب، عدداً كبيراً من المدارس ومن المفكرين المتنوعين غاية التنوع يدعون الانتماء إلى الإنجيل بحماسة متساوية.

ولكن زعم بروتستانتيون وكاثوليك، محافظون وثوريون، رأسماليون واشتراكيون، زعموا جميعاً أن الأخلاق التي يدعون إليها مستمدة من هذه الكتب الشهيرة، فذلك أن نصوصاً دقيقة تتيح لهم كلهم ذلك الادعاء، ولأن مذاهبهم، مهما بلغ تنوعها، ماثلة كلها سلفاً في الإنجيل.

عندما شاءت الكنيسة في القرن الرابع الارتباط بالعالم الروماني، وعندما حاول اليسوعيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر الارتباط بالعالم الحديث، أخذهم اللائمون بالتنكر للتقليد الإنجيلي. ولكن الحقيقة أقل بساطة. فمن ذا الذي يصدّق أن أناساً يتحلون بالحماسة وبالعلم يلهون عن طيب نفس بالانخلاع القاسي عن كتاب يعلنون دوماً أنهم يعدونه مقدساً؟ عبثاً ينتصر المنتصر وهو يظهر أن (يسوع) قد قال: ردّ سيفك إلى مكانه وأن الكنيسة تقرّ الحرب، وعقوبة الإعدام، واستعمال العنف ضد المبتدعة. عبثاً يذكر المذكيرون بأن (يسوع) قد قال: لاتدينوا، وإذا للكنيسة محاكمها، وأن (يسوع) قال: كونوا فقراء، وأن الكنيسة غنية، وأن (يسوع) قال: كونوا وضعاء، وأن الكرادلة يلبسون القرمز. لا ريب في أن جميع النصوص المشار إليها هي من نصوص

الانجيل: ولكن إلى جانب النصوص التي يُستشهد بها توجد نصوص لا يستشهدون بها، وهي تميز، بوجه الدقة، الحرب والإعدام والدينونة والثروة والترتب الاجتماعي. وإن الكنيسة الكاثوليكية لتستند اليوم إلى هذه النصوص الأخيرة. وهي تغفل قسماً كبيراً (هو في نظري القسم الأجل) من الكتاب المقدس. ولكنها تحتفظ بالقسم الآخر. ولذا فإنها تدّعي الانتماء إلى الإنجيل بكل نية طيبة.

وبالمقابل، حين يفخر الثوريون والاشتراكيون والشيوعيون هم أيضاً بأنهم يستأنفون أخلاق الإنجيل فإن على الكنيسة - بدورها - أن تجار بالشكوى من هذا التدنيس. خطأ! فثمة تقف في وجوههم النصوص التي تقرّ الملكية، والإرث، والتي تؤيد صنوف الترتب القديمة. ولكن نصوصاً أخرى تقف إلى جانبهم، وهي أجمل النصوص، وأكثرها سحراً وتأثيراً في «الكتاب المقدس»: إذهب، بع كل مالك وأعطه إلى الفقراء! لا تكتنوا لكم كنوزاً على الأرض! طوبى للحزاني الآن! طوبى لصانعي السلام! طوبى للجياع والعطاش إلى البر! من أين يصدر هذا التضاد؟ من أن ليس في الإنجيل أدنى أثر من (يسوع)، الشخص التاريخي، الذي يعلم مذهباً واحداً. فثمة على صعيد الأخلاق العملية (وحيان) كلاهما إبداع اجتماعي خلقته الكنائس الناشئة، وهو إبداع أعظم حيوية من أي إنسان أكثر حياة عاش على وجه الأرض.

إن أحد هذين (الإلهين) اللذين أبدعتهما جماعات متخاصمة في صورة مثل أعلى مزدوج، إنه يبغض العالم لأن العالم سيء، ولذا فإنه يرفض بوثة سامية واحدة المال، والأسرة، والمجتمع، وحتى حب الحياة. والإله الآخر يقبل العالم ويؤمن بأن من الواجب لجعله عذباً أن يصار إلى احترام الوقائع التي تجعله مستمراً. الأول (إله) الحياة الآجلة، والآخر (إله) الحياة الدنيا.

أي هذين (الوحيين) اللذين يدعوان إلى مذهبين أخلاقيين هو الأعظم؟ أحسب أن ليس بممكن التردد في هذه النقطة. إنه ذلك الذي ما زال كلامه، بعد مضي هذا العدد الكبير من القرون، يثير خفقان قلوب البشر. إنه (الوحي)

الذي قاده الحب إلى بغض العالم والذي يتميز أتباعه المتواضعون ولكنهم متحمسون، بأنهم يزدرون بشمم جميع مشاغل الدنيا الخسيسة. ومن منا لا يحلم بالمجتمعات الرائعة التي تتألق فيها الحقيقة نقية، ونقية أيضاً العدالة، وحيث تمحي حتى ذكرى المنافع المادية الدنيئة، وحيث يسود الحب بلا منازع، ويكون (الخير) صافياً؟ إن (الإله) الذي يظل اسمه مرتبطاً بوثبات النفوس السامية تلك، هو من أرفع الآلهة، وهو من أكثر ما أبدعت عبقرية الإنسان من ألق وإشراق. إنه اليوم، شأنه يوم وُلد، (نور)، وهو (حياة).

وعلى الرغم من أن كل شيء بإزاء هذا الألق يبدو باهتاً، فإن علينا ألا نظلم (الإله) الآخر في الإنجيل، أن ننصف القول بصدد (الوحي) الذي يقبل الطقوس العتيقة، و(المجمع)، والبحث عن الدراهم الضائعة، والثقة ببراعة صاحب المصرف، وسلطان (قيصر)، وألوية (بطرس). والحلم يمضي بسرعة، وإلى مدى بعيد. ولكن العقل والتجربة يظهران، على نحو قاس في بعض الأحيان، أن الإسراف في الاصغاء لـ (إله) الطيور التي لاتزرع، قد يعرض لقتل عالم من قُبل بناء عالم آخر. أترى بغض الحياة هو الذي يجعلها أكثر عذوبة للآخرين، ويجعلها للمرء ذاته أكثر رفعة ومعقولة؟ وها نحن أولاء جانحون إلى النظر إلى (الوحي) الثاني الذي هو، للأسف!، أقرب إلينا لأنه بوجه الدقة أدنى رفعة وسمواً.

إن العلم الحقيقي لا يقلل البتة من شأو ماهو عظيم. وإذا تظهر هذه الدراسة الانتقادية أن هذين (الإلهين) يختلطان في الإنجيل فإنها لاتمس مايشكل سحر «الكتاب المقدس»، بل تستخلص حياته العميقة، وتعقده الفاتن. ففيه أثارت الروح المضطربة في عالم قلق القوتين الكبيرتين اللتين تسودان وجدان الجماعات الإنسانية، وجعلتهما تصطدمان: من جهة أولى، المثل الأعلى الرفيع الذي يرقى برفة جناح فوق قبائح العالم، ويشمل بنشدان العدالة المطلقة، وبالحب الكلي. ومن جهة أخرى المثل الأعلى الأكثر تواضعاً ومرونة، وهو يتساهل ويتغاضى، إبتغاء تسهيل شؤون الحياة.

إن لكل مثل أعلى أتباعه: هنا (مريم) <sup>(٢٦٨)</sup> Marie تسمع وتحلم، وهناك (مرثا) <sup>(٢٦٩)</sup> Marthe تعمل وتنشط.

وبين (مرثا) و(مريم)، بين ال (يسوعين)، لامندوحة من إندلاع صراع، هادئ أو عنيف، وهذا الصراع يرجع إلى قرون عدة خلت، ولاريب في أنه سيستمر قروناً أخرى قادمة. وهو بلا ريب أجلى مايشغل الأخلاق في الغرب المسيحي. فليأت يوم سلام يجعل فيه جهد (مرثا) الدؤوب حقيقياً العالم الذي تحلم به (مريم)!

## هوامش المترجم

(م١) الفريد لوازي (١٨٥٧ - ١٩٤٠): قس فرنسي. سُمِّي أستاذاً للعبرية ثم للكتاب المقدس في «المعهد الكاثوليكي» بباريز ولكنه عارض الكنيسة فأقصته من حظيرتها سنة (١٩٠٨) وقد شغل منصب أستاذ تاريخ الأديان في (كوليج دي فرانس) بين سنتي (١٩٠٩ - ١٩٣٣). غني بتفسير الكتاب المقدس وتاريخ الأديان وسعي إلى استخلاص قوام جميع الديانات ونجح خاصة في تعمق فكرة القربان بدءاً من ملاحظة الوقائع مباشرة. كان سئئ الظن بالفلسفة بوصفها «علماً مجرداً ذا بناء منطقي» وقد عارضها بطريقته «النفسية والتاريخية وهي واقعية النزعة ووضعية». وعنده أن العالم قوة متطورة، وقد أمل في قيام ديانة كلية أساسها مفهوم الإنسانية. وأما في مجال أسس الدين والأخلاق فقد ربط (لوازي) الإلزام بالأخلاق، والإجلال بالدين، وعندما حلل مؤسسات الدين وتعبيراته من رموز وطقوس خلص إلى نظرية شخصية عن التطور الديني ورأى أنه يستمر في صورة إيمان بعالم خيالي يهيمن على الإنسان والأشياء (المترجم).

(م٢) جوزيف دي متر (١٧٦٣ - ١٨٢١) وُلد في (شامبري) وتأثر في صباه بالأفكار الليبرالية والماسونية، ونظر إلى المسيحية من خلال موقف المحافل الايكوسية وكانت حياته سلسلة من المحاولات التي مُنيت بالإخفاق، وقد آمن بعمز الإيرادات الإنسانية عن خلق نظام ثابت بقدرتها وحدها. وقد حكم على الثورة الفرنسية بأنها «شيطانية» ورأى ضرورة الحفاظ على العقائد الدينية. وإن وجود البابوية مرتبط عضوياً بوجود المسيحية وما الهجوم عليها إلا من عمل المادية الرامية إلى هدم الإيمان والدولة. وقد أثرت أفكاره في التيار الروحاني الفرنسي لدى أمثال (دوبونالد) وقد عُرف عنه عداؤه الشديد للديمقراطية (المترجم).

(م٣) فردريك لامنه (١٧٨٢ - ١٨٥٤). قس فرنسي ذو نشاط بارز في مجالات التفسير والفلسفة والسياسة. كتب وأخوه (جان): «أفكار عن حال الكنيسة في فرنسا في القرن ١٨ ووضعها الراهن». وأظهر أن القس لا يؤثر تأثيراً قوياً في النفوس إلا إذا غادر الكنيسة واحتك بالشعب. وقد انتصر لسلطة البابوات في وجه

الكاليكانية ووضع كتاب: «محاولة في اللامبالاة بالشؤون الدينية» ورأى، على عكس (ديكارت) أن المسيحية هي على الدوام ديانة الحس المشترك. وذهب إلى ضرورة عدم فصل الكنيسة عن الدولة وسعى إلى تقريب الكنيسة من المجتمع الحديث. وقد أسس تجمعاً نصف كنسي ونصف علماني لتجديد الكاثوليكية، والتف حول شبان مريدون غرضهم إعادة بناء علم كاثوليكي ينسجم مع هذا المذهب بالخضوع لرعاية مزدوجة: رعاية الحس المشترك وسلطة الكنيسة. وقد أثار غضب الملكية المحافظة ورجال الدين حتى أنه طرد من الكنيسة ذاتها. (المترجم).

(م٤) تنسب فرقة الجانسينية إلى كورنيلس جانسن (١٥٨٥ - ١٦٣٨) وهو لاهوتي كاثوليكي بلجيكي دّرس في جامعة (لوفان) وحاول إصلاح المسيحية بالعودة إلى تعاليم (القديس أوغسطين). وقد أثار كتابه عن «أوغسطين» الذي نشر بعد وفاته (١٦٤٠) حركة روحية تصطبغ بالترتم وتلحف بشكل متطرف على ضرورة رحمة الله وعطفه لهداية الإنسان. تميزت حركته بأثر كبير في فرنسة في القرن السابع عشر. وكان مركزها في (بور رويال) ومن أشهر أنصارها (أرنولد) و(باسكال) وقد اختصمت مع اليسوعية واستعان بها (لويس الرابع عشر) على البابا فاستنكرتها الكنيسة وانتهى الأمر بإغلاق (بور رويال) وفرار أنصار الفرقة من فرنسة في أوائل القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من الحرمان البابوي أسس قس (أوترخت) فيما بعد «كنيسة جانسينية» تعترف بسلطة البابا وإن أنكرت بعض الوقائع كالحبّل السري لـ (مريم) البتول، وعصمة الباباوات ومازالت الكنيسة تعتبرها حركة منشقة. (المترجم).

(م٥) اليسوعية أو «جماعة يسوع».

أسس هذه الجماعة الفارس الإسباني (اينياس دي ليولا) سنة ١٥٣٤ بعد جرحه في إحدى المعارك وعزمه على نذر حياته لخدمة الدين. وكان هدفها التبشير بالمسيحية ودعم الكنيسة الكاثوليكية. وقد اعترف بها البابا سنة (١٥٤٠) فكثرت عدد أنصارها المؤمنين بنذور العفة والفقر والطاعة بالإضافة إلى عنصر رابع هو السفر للتبشير في أي مكان يحدهه رئيس الجماعة والشعار المشترك هو: «لأجل مجد الله الأعظم».

نظمت هذه الجماعة صفوفها تنظيماً عسكرياً صارماً. وميزوا في تراتبهم أربع فئات: الأولى هي فئة الشيوخ Profes الذين اجتازوا جميع المراحل السابقة (وهذا يستغرق عشر سنوات على الأقل) ثم فئة المساعدين Coadjuteurs وبعضهم في الرهينة وهم يساعدون الشيوخ في عملهم الروحي وبعضهم من الأخوة الخدم Lais وهم يقومون بأعباء صغيرة ويلي هذه الفئة فئة الفقهاء Scholastiques الذين ينصرفون إلى الدراسة والتربية ثم فئة المريدين Novices الذين يخضعون لدراسة تمهيدية خلال سنتين تليها تمارين روحية وتدريب على النظام في سنتين آخرين.

اعتمد اليسوعيون التربية لتحقيق أهدافهم واقتصروا على التعليم المتقدم من مستوى الدراسة الثانوية فالجامعية ولاسيما لأبناء الطبقات العالية لأنهم يريدون إعداد القادة الذين يسيطرون على المجتمع ويتحلون بالنفوذ. وقد أسسوا معاهد علمية شتى وأحكموا إدارتها ومراقبتها واعتنوا بانتقاء المدرسين وإعدادهم فاشتهرت مدارسهم في كل أنحاء العالم، وكانوا لا يهتمون سائر العلوم والفنون بالرغم من عنايتهم الخاصة بالتربية الدينية. وقد أخذ على نهجهم تقييد روح النقد والإبداع وخنق الفكر الحر وأنه لا يثمر سوى مظاهر خادعة من الطاعة والنظام. وقد حفل تاريخ الجماعة بالاضطراب إذ أعقب انتصارهم في الفترة الأولى اضطهاد في بلدان شتى وأكثره ناجم عن الاعتقاد الشائع بتدخلهم في مؤامرات سياسية. يقدر عددهم بما لا يقل عن خمسة وعشرين ألفاً موزعين في أرجاء العالم، يحكمهم رئيس منتخب. (المترجم).

(٦٦) فولتير (فرنسوا ماري اروييت، المعروف باسم) (١٦٩٤ - ١٧٧٨) أديب وفيلسوف فرنسي. بدأ بمناقشة الأمور اللاهوتية وهو في الثانية عشرة من عمره، وسعى والده عبثاً إلى تحويل انتباهه عن الأدب. ولما هاجم (الوصي) على عرش فرنسا بعد وفاة (لويس الرابع عشر) سجن في الباستيل سنة (١٧١٧) ومن هناك اتخذ لنفسه اسم (فولتير). وعني بعد اطلاق سراحه بالمرح ووضع سنة (١٧١٨) مأساته المسماة (أوديبي) وعمد سنة (١٧٢٩) إلى ابتياع جميع أوراق اليانصيب ليحظى بأموال وفيرة. بزغ نجمه في الأوساط الأدبية واختصم مع أحد النبلاء فرج في السجن مرة أخرى ثم غادر الباستيل على شرط نفيه إلى انكلترا وتم ذلك بين سنتي (١٧٢٦ - ١٧٢٩) وقد أعجب بالديمقراطية الانكليزية وبالمفكرين والفلاسفة والعلماء، ونقل آراء (نيوتن) إلى فرنسا ودافع عنها وأحب عند رجوعه إلى فرنسا المركزية (دي شاتل) ولاذ بقصرها فصار القصر كعبة المثقفين في ذلك العصر. وقد راسله منذ (١٧٣٦) الأمير. (فردريك) قبل أن يتولى العرش، وانتخب عضواً في المجمع الفرنسي، و زاد عن (الموسوعيين) وحارب رجال الدين واختصم مع (روسو) الذي تنكر للمدنية، وهاجم الديكارتية ودعا إلى الاستعانة «بمشعل الفيزياء» و«بعضا التجربة» ورأى أن مفهوم الله نافع اجتماعياً «ولو لم يوجد الله لوجب اختراعه... ولكن الطبيعة بأسرها تهيب بنا أن الله موجود». كان حر التفكير وإن كان يخشى الثورة. وقد رفض رجال الدين دفنه بحسب الطقوس المسيحية. ولكن رفاته نقلت فيما بعد إلى مقبرة العظماء (البانتون). (المترجم).

(٦٧) روسو (جان جاك) (١٧١٢ - ١٧٧٨) أديب وفيلسوف فرنسي. ولد بجنيف وقصد باريز، واتصل بـ (ديدرو) وكتب في موسوعته الجزء الخاص بالموسيقى وذهب إلى أن تقدّم العلوم والفنون يفسد البشر لأن الإنسان خيّر بطبعه والحضارة أو المجتمع تفسده. ارتد إلى البروتستانتية بعد أن نبذها. ورافق (دافيد هيوم) في رحلة إلى

انكثرة ثم اختلف وإياه وعاد إلى فرنسا وصار موضع اضطهاد حكومي وترحاب في الأوساط الثقافية. وقد نادى بسيادة المجتمع التي لا يمكن التنازل عنها وأكد أن القوانين لا تشرع إلا برضا الجماعة كلها، مهما كانت صورة الحكومة. وإنما الإرادة المشتركة هي التي تعبر عن الصالح العام. أما الملكية الفردية فمقدسة. ولكن من الواجب توافر قدر من المساواة الاقتصادية بين الأفراد... وقد أثرت آراؤه في مجالات الأدب والفلسفة والسياسة والتربية. واستحوذ على إعجاب (كانت) نفسه. ومن أشهر آثاره «هلويز الجديد» و«العقد الاجتماعي» و«أصل التفاوت بين البشر» و«الاعترافات» و«اميل». (المترجم).

(م٨) سان سيمون (كلود هنري كونت دي) (١٧٦٠ - ١٨٢٥) فيلسوف فرنسي، رأس مدرسة سياسية واجتماعية تعرف باسمه وتنادي بأن لكل إنسان بحسب كفاءته، ولكل كفاءة بحسب أعمالها. درس بوجه خاص الثورتين الأمريكية والفرنسية ووجد أن الثورة الفرنسية إنما عُتبت أكثر ما عُتبت بالتغيير الاجتماعي السياسي وبالاستعاضة عن النظام الملكي بنظام جمهوري ولم تتعرض بعمق للتنظيم الاقتصادي، على الرغم من أن التطور الاقتصادي يفوق بأهميته التغيير الاجتماعي ومن جهة أخرى، عُتبت (سان سيمون) بدراسة الثورة الصناعية في انكثرة ووجد أن لامناص من انتشارها إلى بلاد أخرى. ويرى باحثون كثير أن المادية التاريخية عند (ماركس) مستمدة من آراء (سان سيمون)، أو انها امتداد لبعض جوانبها. وقد ذهب إلى أن من الواجب تحديد الدين ذاته ليسهم في التقدم. ورأى أن المسيحية تنكرت للجسد وحثت على الطاعة والخنوع والتضحية، وقد صار على الدين أن يسهم بسلطته كلها في نشأة الإنسان الجديد. ذلك أن للإنسانية مستقبلاً دينياً: ينبغي على حب الناس بعضهم بعضاً أن يصبح حقيقة ماثلة في الأرض، ضمن ديانة المسيحية الجديدة. (المترجم).

(م٩) رينان (أرنست) (١٨٢٣ - ١٨٩٢) مؤرخ وناقد وفيلسوف ومستشرق فرنسي. توفي أبوه البحار فُعنت به أمه وأنشأته ليصبح رجل دين. وقد اهتم بدراسة اللاهوت إلى جانب الفلسفة. وقد حثته أخته (هزييت) على العزوف عن السلك الديني والانصراف إلى العمل الجامعي. وتأثر بصديقه (مارسلان برتلو) فأمن بالعلم وبالتقدم الاجتماعي وهما محوراً كتابه «مستقبل العلم». ولما سافر إلى إيطاليا بدأ بالبحث عن عناصر كتابه «ابن رشد والرشدية». وقد نشر لدى عمله في «المكتبة الوطنية» «التاريخ العام للغات السامية». وقد اقترن على الرغم من غيرة أخته بفتاة بروتستانتية ليبرالية تدعى (كورنلي شيفر) وانتخب عضواً في «مجمع الكتابات والفنون الجميلة». ذهب في بعثة أثرية سنة ١٨٦٠ إلى بلاد الشام ووضع هناك كتابه الشهير «حياة يسوع» الذي نشر (١٨٦٣) وكانت أخته برفقته ولكنها توفيت في (بيبلوس) وقد شغل منذ



(١٨٦١) كرسي اللغة العبرية في (الكوليج دي فرانس) ووصف (يسوع) في محاضراته بأنه «إنسان لا يضاها» فأوقفه (نابليون الثالث) عن متابعة محاضراته. بيد أن الجمهورية الثالثة أكرمه واحتفت به. وقد انتخب سنة (١٨٧٨) عضواً في (المجمع الفرنسي) وحظي بالشهرة العريضة في حياته.

يذكر عن (رينان) أنه كان حائراً، مثل عصره، بين العلم والدين، بين الوضعية والرومانسية. رفض الإيمان بالخوارق وقاده نقد الكتاب المقدس إلى الابتعاد عن الكنيسة بإظهاره تناقضات هذا الكتاب. وذهب في تعريف الفلسفة ذاتها إلى أنها «الحصيلة العامة لجميع العلوم». وعنده أن الوضعية تستلزم روح الرهافة العقلية وخلص من نظرتة إلى الأصول «العفوية» وتطورها إلى ما يشبه قانون أحوال ثلاث متعاقبة لتطور الفكر البشري: الأولى «تلفيقية» بدائية «تختلط فيها الأشياء اختلاطاً مبهماً» وهي حال جنينية وليست علمية. والثانية حال «التحليل» وهي «حال علمية وليست دينية» والثالثة حال «تركيبية» وهي بأن واحد «حال دينية وعلمية».

إن تطور الشعور، على هذا المنوال، يدخل في مجال العلم والفلسفة ولكنه في نظر (رينان) يدخل كذلك في مجال «الدين الحقيقي» حين يكون الشعور عنده مرادف معنى الإله. فالله هو بأن واحد هو هذا التقدم وغايته، مثله الأعلى، بأن واحد. ولذا يقول: «إن الله كائن وسيكون». والدين هو محبة الله ومعرفته وهو يمتزج بالعلم الذي «سينفرد وحده بعد الآن بصنع الرموز».

تميز أسلوب (رينان) بجمال فني ممزوج بسخرية رقيقة وكان من أوائل المستشرقين وقد اعتنق العرقية الآرية ورأى أن العرق السامي، وهو منبع أفكار التوحيد الديني يتصف بالبساطة والوحدة وبفقدان الشعور بالفويرقات والامتصاص باللاتسامح. وهو أدنى من العرق الهندي - الأوروبي. وقد أنكر على المسلمين فلسفتهم زاعماً أنها فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية.

حسب (رينان) في كتابه عن «حياة يسوع» أنه ينقذ عبادته من الوثنية فأراد أن يُنظر إليه بوصفه إنساناً أي شخصاً تمكن دراسته من الزاوية التاريخية بالتنقيب عن بيئته وتربيته وما روي عنه. وقد حذا في ذلك حذو المؤرخ الألماني (شترابوس) Strauss الذي نشر كتاباً بعنوان «حياة يسوع» (١٨٣٥) واعتنق المبدأ القائل: «كل شيء في التاريخ يحظى بتفسير إنساني، ولو استغلق هذا التفسير في وقت معين لنقص الوثائق الكافية». وقد سلخ (رينان) عن (يسوع) صبغته الكهنوتية، القدسية، فبدا في كتابه إنساناً يكره الدولة، والثروة، والحرب، وقد انحدر من رتبة الألوهية إلى منزلة الوجود في التاريخ. يقول: «لقد استلزمت نشأة الدين الجديد ما لا يقل عن ثلاثمائة عام. ولكن أصل هذه الثورة حادث وقع في عهد (أوغسطس) و(تيسر). إذ ذاك كان يعيش إنسان متفوق استطاع بمبادهته الجرئية وبقدرته على حيازة محبة مَنْ حوله، أن يخلق

الموضوع ويرسي منطلق الإيمان القادم، إيمان الإنسانية». (المترجم).

(١٠) فرقة غنوصية تنسب إلى مؤسسها كاربوقراط Carpocrate الذي ولد وعاش في الاسكندرية. وقد انتشرت في القرن الثاني بعد الميلاد. وكان مؤسسها يؤمن بالتناسخ وبوجود الأرواح قبل الولادة. وإنما تستطيع الروح السامية وحدها تذكر حياتها السابقة ويسعى المتدين إلى هدفه الأقصى المائل في الاتحاد بالآلهة، على غرار (فيثاغورس) و(أفلاطون) و(أرسطو) و(يسوع) الذين حققوا هذا الاتحاد. ومن هنا يصدر ازدراء الجسد والشؤون المادية والتطلع إلى ما وراء الخير والشر يتجاوزهما. وكان أتباع هذه الفرقة يقبلون على الزواج. وقد تلاشت حوالي القرن السادس. (المترجم).

(١١) (الانكارطية) Encartisme فرقة غنوصية أسسها (تاسيان) Tatien وهي تدين الاتصال الجنسي حتى في الزواج وتعدّه دنساً عظيماً. (المترجم)

(١٢) مرقيون (حوالي ١٠٠ - حوالي ١٦٥م): غنوصي مسيحي أسس في رومه (حوالي سنة ١٤٤) جماعة من الزهاد وهو يؤمن بلاهوت ثنائي ويميز الإله المجهول، وكله صلاح، وهو بعيد عن العالم وغريب عنه، عن الإله الخالق الشبيه بيهوه عند اليهود، وهو صانع العالم وذو منزلة أدنى ولا يخضع إلا لقانون العدل. وقد أرسل الإله المجهول ابنه (يسوع - المسيح) لخلاص البشر من الإدانة العمياء التي صدرت عن الإله الصانع وذلك لأن المادة بجوهرها شر. ولذا فإنه لم يتجسد البتة وما جسده إلا شيء ظاهر. وقد رفض (مرقيون) «العهد القديم» ورفض «العهد الجديد» كله باستثناء «إنجيل لوقا» والرسائل البولسية العشر. وأوجب على مرديه تقشفاً صارماً حتى لا يسهم أحدهم في زيادة سيطرة الإله الصانع وهي سيطرة تنمو بأعمال الجسد. وبقي أتباعه في حياة كنيسة منظمة إلى أن انتهوا بالاتحاد مع (المانوية). (المترجم)

(١٣) ترتوليان (١٦٠ - ٢٢٠ أو ٢٤٥) لاهوتي مسيحي. ولد في قرطاجنة لأب ضابط روماني وتنصر حوالي سنة ١٩٠ ويعتبر من كبار الذائدين عن الدين ضد الوثنية والمبتدعة. وكان يدعو إلى الصرامة الأخلاقية وحرّم الزواج للمرة الثانية وحضور الحفلات وامتهان الخدمة في السلاح... الخ واشتهر بنظريته القائلة بمادية الروح. وقد لُقّب «أبا الكهنوت اللاتيني». ومن أقواله المأثورة «دماء الشهداء بذور الكنيسة» وقوله: «إنه يقيني، لأنه محال». وقد عُزّي إليه بعض انحراف عن الكاثوليكية. (المترجم)

(١٤) أوريجين (١٨٥ - ١٨٥) لاهوتي مسيحي من آباء الكنيسة ولد في الاسكندرية من أبوين مسيحيين ودرس الكتب المقدسة وأثار الفلسفة الوثنية. وقد تقشّف وروي عنه أنه خصى نفسه ليستطيع تعليم النساء دون أن يقع في الغواية. نشر الإنجيل في ست صور مختلفة عبرية ويونانية لمقابلة بعضها ببعض. وقد علّم في الاسكندرية

عشرين عاماً ثم رحل إلى فلسطين وأسس مدرسة في (قيصرية) واشتهر بتفسير التوراة. زاد عن الدين باستخدام الطريقة التأويلية وغلا في ذلك حتى عُدَّ مذهبه بدعة. وقد حرص على تبيان إتفاق العقيدة المسيحية مع الفلسفة اليونانية، وكان بذلك واضع الأساس لفلسفة العصور الوسطى. أحدث أثراً كبيراً في الكنيسة الشرقية خاصة. ومن أشهر آرائه قوله بالخلاص النهائي لجميع الأرواح، وهي نظرية تعرف في الغالب باسم «البدعة المنظمة». توفي في (صور). (المترجم)

(١٥م) الدوناتيس: فرقة مسيحية ظهرت في (قرطاجة) سنة (٣١١) ونسبت إلى أحد مؤسسيها وهو (دوناتوس) Donatus. وهذه الفرقة تطلب للمسيحيين الذين «ضعفوا» أمام اضطهاد (ديوكليتوس) وسَمَّوا نسحهم الخاصة من الكتاب المقدس أن يعاقبوا بقسوة لم توافق عليها الكنيسة الكاثوليكية. وقد استمر تزمهم سنوات عدة حتى خضعوا، هم و(الأرثوذكس) في القرن التالي لسيطرة (الفاندالين). (المترجم)

(١٦م) البريسيانيس: بدعة إسبانية انتشرت في القرنين الرابع والخامس وهي تنسب إلى (بريسيليان) Priscillien القس الإسباني الذي كان أول من أعدم من المبتدعة (سنة ٣٨٥). وهذه الفرقة تعتنق تقشفاً شديداً وتمتنع عن الزواج وعن تناول اللحوم. ويبدو أن لاهوتها كان مزيجاً من أفكار غنوصية ومانوية. وقد اضمحلت حوالي سنة (٤٥٠م). (المترجم)

(١٧م) الفريسيون: إحدى طائفتين دينيتين مهمتين لليهود في عصر المسيح. وقد ظهروا بعد فوز أسرة المكابيين بتخليص الشعب اليهودي من طغيان السلوقيين واسم هذه الطائفة يعني «المعتزلة» بسبب حرص اتباعها على جعل الديانة اليهودية بمعزل عن كل عدوى وثنية. كانوا، على عكس خصومهم (الصدوقيين)، يؤمنون بحياة أخرى وبمكان لمعاقبة الأشرار. وكانوا يتحمسون لفكرة المهدي ولكنهم بالرغم من ذلك رفضوا الاعتراف برسالة المسيح بل كانوا من ألد أعدائه. وكان (جوزيف) من اتباعهم. وقد أثاروا نشاطاً فكرياً وساعدوا على تطور اليهودية واستمر نشاطهم إلى حوالي سنة ١٣٥. (المترجم).

(١٨م) القديس (يوحنا المعمدان) يعتبر أحد أنبياء بني إسرائيل أو آخرهم. وقد بشرَ بيسوع وكان ابن (زكريا) و(اليصابات) وهو ابن عم (السيدة العذراء). عاش جلَّ حياته في البرية متقشفاً، يلبس ثياباً من الجلد، ويأكل الجراد والعسل. وربما كان من فرقة (الأيسين). وقد لام (هيروودوس) على زواجه من (هيروديا) أخت امرأته فنقمت عليه وحثت ابنتها (سالومي) على طلب رأسه وحصلت على ذلك. كان يعمّد بالماء ليرمز إلى التجربة وغفران الخطيئة. وعندما تقدم (يسوع) منه ليعمده حثاه على أنه المسيح المنتظر وأنه يبشر بوصوله بعده مباشرة. (المترجم)

(١٩م) يوحنا (القديس) أو(الرسول): أحد الرسل الاثني عشر، وإليه ينسب تأليف

الإنجيل الرابع وثلاث رسائل وكتاب «الرؤيا». كان أحد المبشرين في الجليل وهو ابن زبدي وأخ يعقوب بن زبدي. وقد لحق بالمسيح منذ أوائل دعوته ويعدّ «تلميذه المفضّل الذي انحنى على صدره عند الأوخارستيا. وقد أوصاه المسيح عندما كان مصلوباً أن يتكفل بوالدته (مريم). وكان مع (بطرس) حين جاء في أول أحد الفصح ووجدوا قبر المسيح فارغاً. ويروى أنه عاش إلى عصر (تراجان) ونشر إنجيله عندما أقام في (افسس) ويذكر (ترتوليان) أنه بعد أن نجا بمعجزة من عذاب الماء المغلي نُفي إلى جزيرة (باتموس). - وقد ظل الإنجيل الرابع ينسب دون تردد إلى القديس (يوحنا) حتى القرن (١٨). ثم ظهر الارتباب وكثرت المناقشات ولاحظ الباحثون أو الأناجيل المتقاربة الثلاثة الأولى تتسم بالإيجاز وبالسمة الأخلاقية في حين أن الإنجيل الرابع أكثر تفصيلاً وأعظم عناية بملكوت الله بأقل من عنايته بشخص المسيح وبأهدافه. ويبدو المسيح في الإصحاح الأول على أنه الكلمة وهو يذكر بأفكار (فيلون) والأفلاطونية الجديدة. (المترجم).

(٢٠م) الأوخارستيا أو القربان المقدس: من أكثر أسرار العبادة المسيحية قبولاً. وهو مبدأ القداس. وقد نشأ عن عشاء (يسوع) نفسه مع حواريه في (أورشليم) ليلة تسليمه (متى ٢٤) (مرقس ١٤) (لوقا ٢٢). ويسمى «سرّ القربان المقدس» وما يزال متبعاً في جميع الكنائس المسيحية تقريباً باستثناء الكويكرز. وهو عبارة عن خبز وخمر يقدم في القداس عند الكاثوليك والأرثوذكس. تصنع الكنيسة الخبز من دقيق صاف على شكل أقراص، ويذهب المسيحيون إلى أن السيد المسيح موجود في الأوخارستيا بلاهوته وناسوته تحت أعراض الخبز والخمر وجوداً «معجزاً». (المترجم).

(٢١م) الصدوقيون Sadduceens: أحد الحزبين اليهوديين الأساسيين، إلى جانب الحزب الآخر وهو الفريسيون، في عصر (المسيح) وقبله بقرن تقريباً. ينسبون إلى حاخام يسمى (صيدوق) Zadok أو إلى أسرة كهنوتية في أورشليم. وكانوا يضمون إلى صفوفهم أسراً أرستقراطية، وكانت سياستهم انتهازية يحاولون التفاهم مع الأمم الأخرى، ولاسيما (رومه). وكانوا بالرغم من ذلك محافظين يؤمنون بالشرعية الموسوية بحماسة ويعارضون أي تغيير يحدثه الكتبة. وكانت نزعتهم الهيولية تضاد منزع الفريسيين خصومهم الألداء. وكانوا ينكرون وجود حياة آخرة وينكرون الملائكة والأرواح وينكرون المهديّة أو ظهور (المسيح). (المترجم).

(٢٢م) اسكولاب: اله الطب في الميثولوجيا اليونانية. وهو ابن «ابولون» و«كورونيس» وكان في وسعه القضاء على امبراطورية (هاديس) ولذلك صعقة (تروس). وقد أصبحت عبارة «فن اسكولاب» تعني الطب (المترجم).

(٢٣م) امبراطور روماني (٣٣١ - ٣٦٣). أطلق عليه لقب (المارق) لارتداده عن الديانة

المسيحية التي نشأ في أحضانها ورجوعه إلى الوثنية فعرفت من جديد ازدهاراً واسعاً في عصره. وهو ابن أخ (قسطنطين) وقد سعى إلى حرمان الكنيسة من الوضع المتميز الذي حظيت به في عهد عمه. وقد أعاد بناء المعابد الوثنية، ومارس شعائر الديانة الرومانية القديمة واعتنق الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ولما جرح في إحدى المعارك مع الفرس زعم أعداؤه (وهو زعم باطل في الأرجح) أنه تمت وهو يحتضر: «ستنتصر أيها الجليلي» (المترجم).

(٢٤م) القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) أحد كبار آباء الكنيسة اللاتينية أو الرومانية. ولد في نيميديا (الجزائر حالياً) من أب روماني ظل وثنياً ومن أم مسيحية تقية وخضع في شبابه لنزوات ندم عليها فيما بعد ومنها أنه أنجب ابناً من خليلته وهو لما يبلغ الثامنة عشرة من عمره. وقد بدأ الدراسة في (قرطاجة) ثم سافر إلى (ميلانو) والتقى (بالقديس امبرواز) الذي عمده هو وابنه في ٣٨٧/٤/٢٥ وتأثر بالأفلاطونية ورجع إلى افريقية ورقى في المناصب الدينية وانصرف إلى حرب المبتدعة ولاسيما من البيلاجيين وتميز مذهبه اللاهوتي بنزعة أفلاطونية وباعتناق مبدأ الاختيار الإلهي المسبق للمؤمنين. واشتهر كتابه «اعترافات» بأنه سيرة حياة روحية حميمية صادقة ولما ذهب قائلون إلى أن سبب انحطاط الإمبراطورية الرومانية في عصره يرجع إلى إهمال الرومان الآلهة الوثنية هب (أوغسطين) يدعو إلى مايسميه «مدينة الله» التي ستنتهض على أنقاض العالم القديم. (المترجم).

(٢٥م) القديس توما الاكويني (١٢٢٦ - ١٢٧٤) لاهوتي مسيحي يُعدّ أعظم الكلاميين في العصر الوسيط. ولد في (اكينو) قرب (نابولي) وانتسب إلى رهبنة (الدومينيكان) على الرغم من معارضة ذويه. ودرس في (كولون) ثم أرسل إلى باريز حيث درس أولاً ثم غدا أستاذاً وعاد أخيراً إلى إيطاليا لإنشاء معهد عال جديد. وأختار (نابولي) مقراً له وقد استدعاه البابا (غريغوار) العاشر وكلفه السفر إلى (ليون) لحضور المجمع الذي يعقد لتهدئة الخلافات المحتدمة بين الكنائس اللاتينية والاعريقية. وقد سافر على الرغم من مرضه ولكنه توفي في الطريق. وقد ناضل (توما الاكويني) ضد الرشدية اللاتينية. ومن أشهر مؤلفاته مجموعتان: ١ - الخلاصة اللاهوتية وهي عرض شامل للعقيدة المسيحية تبين أن للمعرفة مصدرين: الوحي أي الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة ثم العقل وتمثله المذاهب الفلسفية الوثنية ولاسيما (أرسطو). ولكن هذين الأصلين يصدران كلاهما عن الله ولذا لايمتنع التوفيق بينهما. وقد جعل لكتابه الشهير ثلاثة أقسام: الأول يبحث طبيعة الله وصفاته والثاني يبحث موضوع الإنسان والثالث يدرس شخص (المسيح) ورسالته. ٢ - الخلاصة ضد الأمم وهي دفاع عن المسيحية بالاستناد إلى العهد القديم ضد اليهود وإلى العقل السليم، ضد المسلمين. ومازالت التومائية إلى اليوم أهم تيارات الفكر الكاثوليكي الرسمي! ومن أشهر ممثليه

المعاصرين في فرنسة (ايتين جلسون) و(جاك مارتان). (المترجم).

(٢٦م) جاك بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) واعظ فرنسي وكاتب. اشتهر بأنه أعظم لاهوتيي فرنسي في عصر لويس الرابع عشر. ناضل ضد البروتستانت مثلما ناضل ضد الأفكار الهدامة وهاجم (فيلون) وأتباعه القائلين بالاستسلام في الحياة الروحية. سمي معلماً لابن (لويس الرابع عشر) (١٦٧٠ - ١٦٨١) واسقفاً لمدينة (مو) وكتب مقالة في التاريخ العام وهي دراسة للتوجيه الإلهي لتاريخ البشر. وتأثر في الفلسفة بالقدّيس (أوغسطين) وبالقدّيس (توما) وبـ (ديكارت) وتميز أسلوبه بالبساطة والقوة والفصاحة. (المترجم).

(٢٧م) فرقة دينية يونانية قديمة. ولد مؤسسها (فيثاغورس) حوالي سنة ٥٨٨ ق.م في جزيرة (ساموس) الإيونية وجاب العالم القديم ويروى أنه أخذ عن الهند نظرية التناسخ. والثابت أنه نزل في ثغر (أقروطن) في جنوب إيطاليا حوالي سنة (٥٤٠ ق.م) وأسس فرقة دينية علمية تشبه النحلة «الأورفية». وكان يرى أن العدد جوهر الأشياء وفيه سرّ المشابهات الكثيرة بين الأشياء والأعداد في الفلك والموسيقا.. وقياس السطوح والأشكال... كانت فرقة تضم الرجال والنساء، وهم يعيشون معاً في ظل نظام واحد يشبه نوعاً من الماسونية. وإلى جانب تعاليمه كالامتناع عن أكل الفول وتناول ما يسقط على الأرض يرى أن الروح خالدة وأن الأرواح تعود للولادة من جديد في أجساد شتى. وكان يعظ الحيوانات ذاتها ويعدها شبيهة بالإنسان ويدعو إلى حياة نباتية، ويرى أن أسمى ما ينبغي التطلع إليه هو المعرفة المجردة. تألب عليه الأعيان والمعارضون وهاجموا الدار التي كانت تضم اجتماع زعماء الفرقة فأحرقوها. وربما اضطر هو إلى الاعتزال في (مينابونت) حيث توفي سنة ٤٥٠ ق.م (المترجم).

(٢٨م) مسيا = المسيح أو المنقذ Mushiiah أو Messie لقب يطلقه النصارى على (يسوع - المسيح) بوصفه المنقذ. وترجع هذه العقيدة إلى الاعتقاد اليهودي القائل إن (مسيا) شخصياً من سلالة الملك (داود) وهو الذي يحزّر إسرائيل من السيطرة الأجنبية ويرجع اليهود إلى فلسطين في الوقت الذي يحدّده الله وإذ ذلك تتحقق مملكة مثالية يتجلى فيها أتمّودج النقاء الديني والعدالة الاجتماعية. وقد زعم عدد كبير من اليهود، في حقب متفاوتة، أن أحدهم هو (مسيا) المنتظر ومن أشهرهم (بن كوشبا) Ben Cocheba (الذي ثار ضد الرومان سنة ١٣٥م) و(دافيد الروي) D. Alroy (في القرن الثاني عشر) و(ساباتي) Sabbatti (في القرن السابع عشر). ولكن اليهود الاصلاحيين والليبراليين رفضوا هذه العقيدة. ومما يذكر أن جميع الأديان القديمة والحديثة تحفل بمن يدّعي أنه مرسل لإنقاذ قومه وقد عرفت انكثرة العقيدة (المسيوية) في فرق صغيرة ومن الأديان فيها: (نايلور) Naylor و(سوثكوت) Southcott و(بروزر) Brothers و(توم) Tom

و(هـ. ج. برانس) H. J. Prince (ج. هـ. سميث بيكوت) J. H. Piccott Smyth  
وهذا التطلع يذكر بمفهوم المهديّة في الإسلام. (المترجم)

(٢٢٩م) لوجيا (= بالآغريقية كلمات): اسم يطلق على مجموعة من الأقوال المعزوة إلى  
(يسوع) وقد أدمج مجلّها في إنجيلي (متى) و(لوقا) كما يطلق هذا الاسم على طائفة  
من أقوال (المسيح) التي اكتشفت سنة ١٨٩٧ في (أوكزيرنكوس) في مصر في ورقة  
بردي يرجع تاريخها إلى ما بين القرنين الثاني أو الثالث للميلاد (المترجم).

(٣٠م) أبولونيوس التيانّي: أحد فلاسفة الأفلاطونية الجديدة. عاش في نهاية  
القرن الميلادي الأول. وقد سافر إلى الهند وعُدَّ ساحراً. وقد كتب  
(فيلوسترات) Philostrate في القرن الثاني (حياة أبولونيوس التيانّي) وبالغ في  
امتداحه حتى رقي به إلى مصاف الأساطير. وعُدَّت الوثنية (أبولونيوس) بطلها  
وقديسها الذي يعارض صورة (المسيح). (المترجم).

(٣١م) فرقة أو رابطة يهودية ظهرت في فلسطين في عصر المسيح. ويذهب أتباعها إلى  
أن اللذة شر، والتكشف والسيطرة على الأهواء فضيلة. وكانوا يعيشون عيشاً مشتركاً  
في المدن أو الريف، ويحيون في بعض الأحيان حياة بدواة. التقوى والصلاة وقراءة  
التوراة شغلهم الشاغل. وقد كانوا يتنسكون ويستحمون بالماء البارد ويمتنعون عن  
الاتصال الجنسي ويتمسكون بالست ويرفضون حمل السلاح ويتميزون بدأب على  
العمل. ويترتب على من يريد الإنتماء إلى جماعتهم أن يرضخ لاختبارات قاسية.  
وكانوا يؤمنون بخلود الروح، وبعقاب الأشرار الأبدي، وكانوا يؤمنون (بالمسيحية)  
ويبدو أن نصوص البحر الميت من آثارهم. وقد فرض باحثون أن (يوحنا المعمدان)  
كان من أتباعهم). (المترجم)

(٣٢م) عاش (فيلون) بين حوالي سنة (٢٠ - ١٠ ق.م) - (٥٠م) وهو فيلسوف يهودي  
ولد في الاسكندرية ولقي تعليماً رفيعاً في العلوم الإغريقية واليهودية. زار (رومه)  
ليصرف الإمبراطور (كاليكولا) عن عزمه على إرغام اليهود على منح البركة  
الإلهية. وعلى الرغم من معرفته العميقة بالفلسفة اليونانية فقد ظل يهودياً، وظل كثير  
من آثاره تهدف إلى تفسير اليهودية للقارئ اليوناني. يعتقد (فيلون) أن الفلاسفة  
الإغريق أخذوا عن (موسى) بعض أفكارهم الأساسية. وقد فسّر «العهد القديم»  
تفسيراً مجازياً. وعنده أن الله روح محضة، وأن ثمة قوى إلهية متعددة، ويرى أن  
الشياطين أو الملائكة تنقذ أوامره. أما أرفع هذه القوى فهو اللوغوس، أو العقل  
الإلهي، الابن المولود الأول لله، والملاك الأول لكل وحي، والكلمة المبدعة. وقد خلق  
الله باللوغوس، أو العقل الإلهي، الابن المولود الأول لله، والملاك الأول لكل وحي،  
والكلمة المبدعة. وقد خلق الله باللوغوس وبسائر القوى الإلهية، خلق عالم المادة

الجامدة. وللإنسان أصل مزدوج: فمن جهة أولى، الروح المحضة، وهي تتطلع إلى الأعلى، نحو الله. ومن جهة أخرى الجسد، وهو سجن، لحد، قبر الروح التي تريد الإفلات منه. إن هدف الإنسان الفاضل هو الخلاص من روابط الجسد حتى يتحد بالله. ويرى باحثون أن الموت يحقق تلك السعادة، ولكن جلّ الناس ينبغي أن يعيشوا تجارب أخرى في سلسلة من العودة إلى التجسد. وقد آمن (فيلون)، متأثراً بالفيثاغوريين، بتناسخ الأرواح. وأكثر ما وصلنا من آثاره شرح للكتب الخمسة الأولى من «العهد القديم». (المترجم)

(٣٣٣م) عاش (أبيقور) Epicure، مؤسس الأبيقورية بين سنتي (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م). وكان أبوه معلماً في أثينة وأمه ساحرة تعزّم في المنازل مدعية التطهير والتطبيب. وكان (أبيقور) يرافقها في صغره وربما كانت سبب نفوره من السحر والكهانة وثورته على الديانات والاعتقادات الخرافية. درس الفلسفة في سن مبكرة وافتتح سنة (٣٠٦ ق.م) في أثينة مدرسة ظل يعلم فيها حتى وفاته. وكان تلاميذه ومريدوه يرعونه حتى وفاته وقد احتمل آلاماً شديدة بشجاعة نادرة. فاعتبروه «إلهاً» جاء العالم بوحى جديد. وكانوا يكرمون ذكره تكريماً دينياً، ويعيشون فيما بينهم عيشاً جاداً تربطهم أواصر صداقة قوية وإخلاص مفرط جعل «حديقة أبيقور» مضرب المثل. (المترجم).

(٣٣٤م) على عكس الأبيقورية، لم تكن الرواقية، من صنع رجل واحد. وقد أسسها في أثينة الفيلسوف (زينون) وخلفه (كليانت)، و(كريزيب) ولما انتقل نشاطها إلى رومه بزغ نجم (شيشرون) و(سنيكا) و(ابيكنتيت) وحتى الإمبراطور (مارك أوريل). ويمتاز الرواقيون بإيمانهم بالله جسماني قوامه النار الإلهية التي تولف وحدة الكون العميقة وهذا الكون ذاته ينقسم داخل الكائنات الجزئية انقساماً لانهائياً. والرواقيون يؤمنون بنظرية العود الأبدي وأن الفضيلة هي الخير الوحيد وهم يدعون إلى أخوة الناس كافة وبعضهم يؤمن بحياة آخرة. (المترجم)

(٣٣٥م) عاش (أفلاطون)، الفيلسوف المعروف بين سنتي (٤٣٧ - ٣٤٨ ق.م). وقد ولد في أثينة من أسرة عريقة في المجد والنسب، وكان يرقى بنسبه الأرستقراطي إلى الإله (بوزيدون) وقد لقبه أتباعه بـ «أفلاطون الالهي» وقال بعضهم أنه ابن (ابولون). وكانت ثقافته رفيعة ولعله خدم في جيش أثينة في أواخر حرب (بيلوبينز) درس على (سقراط) من (٤٠٧ - ٣٥٩ ق.م) وأصبح من العسير فصل ما وردنا من آرائه عن آراء معلمه. ولما أعدم (سقراط) سافر إلى (ميغاري) و(قورينا) و(مصر) وآسية الصغرى وعبثاً حاول تحقيق أفكاره السياسية المثالية في جزيرة (صقلية)، وكاد مرة أن يُقتل ثم انقطع للتدريس في أكاديميته حتى توفي عن عمر يناهز الثمانين عاماً. لم يصلنا من تعليم (أفلاطون) الخاص بتلاميذه، وهو تعليم مكتوم عن غيرهم، إلا



ما ذكره (ارسطو). وجلّ ما لدينا من أفكاره كان تعليماً عاماً وعلنياً. وهو لم يعرض مذهبه عرضاً منهجياً. وأساس فلسفته نظرية «التوليد»، أي البحث عن الحقيقة بسلسلة من الأسئلة والأجوبة. وقد ردّ على المغالطين وطلب أن تتفلسف بكل نفوسنا وجاء بنظرية المثل الشهيرة القائلة إن الحقائق الخالدة موجودة من حيث هي في النفس، ومتصورة بالعقل الصرف لا يدركها إلا الفيلسوف المؤيد بصفاء النفس وبالإلهام ويتجاوز المحسوس المتبدل إلى مقاله الخالد وفي طليعة هذه المثل نجد مثل الحق والجمال والخير، والخير يشغل المنزلة الرفيعة الأولى، وهو الله. وفضيلة الإنسان هي التشبه به. ويرى (افلاطون) أن الأشياء كلها تصدر عن الله، ولكن الله لم يخلق العالم الحسي مباشرة، بل إن الها أدنى هو (الصانع) أو (المدير) Demiurge هو الذي نظم الكون إنطلاقاً من مادة لاشكل لها وهي موجودة من قبل والصانع يشكّلها بحسب أنموذج قديم متعالٍ في وسعه أن يستشفه في (الروح الالهية). وهذا الصانع اله أدنى محدود والشر هو مقاومة المادة لفعله (المترجم).

(٣٦م) الناصريون أو النصارى (نسبة إلى الناصرة) اسم فرقة يهودية - مسيحية نشأت في بلاد الشام في القرن الرابع الميلادي ويعترف أتباعها بالهوية (المسيح) ولكنهم يتقيدون بالشرعية الموسوية. ويطلق اليهود والمسلمون على المسيحيين اسم النصارى أو النصرانيين نسبة إلى (يسوع) الذي هو من الناصرة (ناصرى). (المترجم)

(٣٧م) تزوس: الإله الأعلى في اليونان القديمة. وهو (أب) البشر و(المخلص) وينعت أحياناً بأنه (أولمبي) لأن اليونان يتصورنه حياً وسط سائر الآلهة ووسط الغيوم التي تكفل ذرورة جبل الأولمب. وتروي الأساطير أنه ابن (كرونوس) و(ريها). وكان (كرونوس) يلتهم أبناءه ولكن (ريها) أخفت ابنها (تزوس) في (كريت) حيث غذته ماعزة ثم لما كبر خلع أباه عن عرشه وعلى الرغم من زواجه بـ (هيرا) فقد اتصل بمغامرات أخرى مع آلهة ونسوة من البشر. إن (تزوس) هو واهب النصر وهو يحدّد الخير والشر وهو المشرّع الأسمى والذائد عن الأسرة والدولة وحامي الملكية وحارس الحرية. ولاتحدّ قدرته سوى قرارات (القدر). ويمثل النحاتون في صورة رجل ذي لحية وهو يحمل الصاعقة ومجنناً من جلد الماعز. والرومان يوحدون شخصه بـ (جوبيتر). (المترجم)

(٣٨م) أفروديت الهة الحب والجمال والإخصاب عند اليونان. والرومان يوحدونها مع (فينوس) وهي تشبه (عشتار) آلهة الحب السورية. ويحكى (هومير) أنها ولدت من زيد البحر وهي ابنة (تزوس) من (ديونا) وزوجة إله الحدادة (هيفاستوس) وأم (ايروس) أو (كوبيدون) الذي يجسد الحب الذكري. وقد عبدها الاغريق في صورتين: صورة (افروديت اوراني) أو «الهة السماء» وهي تنجب الخصب من زواج السماء بالأرض. وصورة (افروديت بانوموسى) أو «الهة جميع البشر» وهي ترعى

الزواج وحياة الأسرة. وكانت الاحتفالات بعيدها تزدهر في الربيع ويمثلها الفنانون في صورة امرأة بارعة الجمال والجاذبية، وهي تثير شهوة الرجال والنساء، وكانت أتمودج الجمال النسائي ومن تماثيلها الشهيرة (فينوس ميلو). (المترجم).

(م٣٩) - بالاسي: أحد أسماء اثينة، وهو تمثال أثينة المسمى (باللاويوم) وكان الإغريق يعتقدون أن من الممتنع إخضاع طرودة المحاصرة مادام هذا التمثال فيها. (المترجم). (م٤٠) ديونيزوس: اله الخمر والاختصاب عند اليونان. وإليه تنسب نشأة أغاني الجوقة والمسرح على اختلاف أنواعها. وهو ابن (تروس) من (سينيله) كان ضحية غيرة (هيرا) وهو الإله الوحيد الذي لم يولد من أبوين إلهيين. وُلد (ديونيزوس) أو (باخوس) من النار مثل الحرارة الشديدة التي تنضج الكرمه وترعرع في ظل الماء الذي يحفظ النبات من الموت. وهو الذي علّم البشر صناعة الخمر وأسرار ديانته. (المترجم).

(م٤١) اتيس: اله سكان فريجيا القدامى في آسية الصغرى. وهو ابن (نانا) البنت العذراء لاله الأنهر. وقد حملت به حين أدخلت في أحشائها لوزة ناضحة وقد نشأ (أتيس) راعياً فأحبته (سيبل) ويقال إن خنزيراً برياً قد قتله، شأنه شأن (أدونيس). وتروي حكاية أخرى أنه جرح نفسه ونزف حتى الموت فتحول إلى شجرة صنوبر، ولما دخلت عبادته إلى الغرب مع عبادة (سيبل) عُرف عن أتباعه أنهم كانوا يخصون أنفسهم كما كانوا يُعمدون بدم ثور. وقد أدخل الإمبراطور (كلود) إلى الديانة الرسمية عبادة الصنوبر المقدسة مصحوبة بحفلات داعرة. (المترجم)

(م٤٢) إيزيس: أشهر معبودات المصريين القدامى. كان وطنها الأصلي في الدلتا ولكن ديانتها عمت مصر القديمة كلها وكانت هي أخت (أوزيريس) وزوجته المخلصة والدة (حوروس)، وهؤلاء الثلاثة يشكلون الثالوث الأساسي المعبود في مصر. ثم أصبحت أسرارها ديانة من أكثر الديانات الشعبية شهرة في العالم الروماني. إن (إيزيس) هي ربة السماء التي تلد ابنتها (حوروس) اله الشمس كل صباح. وعلى مرّ الأيام أصبحت (إيزيس) رمز (الأم) و(الزوجة) و(المرأة الكاملة). ولعل السمات الرئيسية التي توصف بها (السيدة) مستمدة منها. ويرى (فرايزر) Frazer أن بين ديانة (إيزيس) والكاثوليكية شبهاً كبيراً من حيث الظاهر على الأقل. من ذلك أبهة الطقوس، وحلاقة رأس الكهان وذقونهم، والموسيقى، ورشّ الماء المبارك، والعماد والمواكب وصور «الأم الإلهة»، مع فارق أن ديانة (إيزيس) باطنية والكاثوليكية ديانة علنية. (المترجم)

(م٤٣) ميثرا: اله الإيرانيين والهنود قبل ظهور الزرداشتية. ومعنى الكلمة هو النور، والضياء، والحب، والعهد، والميثاق. وتذكر الأسطورة أنه نحر ثوراً مقدساً في غار. ويبدو (ميثرا) في (الفيدا) على أنه نور السماء، وفي الـ (افستا) على أنه اله الحرب

الذي يساعد (هرمز) في صراعه الأبدي للدفاع عن النور. وعندما هُزمت الإمبراطورية الفارسية انتشرت عبادة (ميثرا) في بلاد البحر الأبيض المتوسط ولاسيما في الإمبراطورية الرومانية حيث كانت أوسع انتشاراً من المسيحية في القرن الثاني للميلاد. وتروي الأسطورة أن (ميثرا) ولد في صورة إنسانية من صخرة (أو في كهف) وكان أول من عبده هم الرعاة. وقد أحدث معجزات شتى وأخصب، بدم الثور الذي نحره الأرض ثم صعد إلى السماء في آخر المطاف حيث يقطن مع الخالدين. ولكنه، على الرغم من ذلك، فإنه متأهب لنجدة من يثقون به ولمكافأتهم. كان أتباعه يحتفلون بعبادته في كهوف طبيعية أو صناعية. وكان على المريد أن ينجح في سبع اختبارات لكل منها اسم رمزي: الغراب، المكتوم، الخندي، الأسد، الفرس، رسول الشمس، الأب. وكان تناول الخبز والماء (وربما الخمر) يجري جماعةً. وكا المنتمي الجديد يعمد بدم حَمَل أو ثور لدى ذبحه بحيث ينسكب الدم على جسده العاري. ويؤمن اتباع (ميثرا) بأن الحياة الدنيا باب الحياة الآخرة حيث الغبطة الأبدية. وفي القيامة يبعث الأموات كافة من قبورهم لدى نداء (ميثرا). فالذين أحسنوا صنماً في الحياة يرقون إلى السماء، والأشرار يُقذفون في الظلمات. وكان يوم الأحد هو اليوم المقدس كما أصبح لدى المسيحيين ويوم الخامس والعشرين من كانون الأول هو يوم ولادة (ميثرا). ويذهب باحثون إلى استشفاف شبه شديد بين الميثرية والمسيحية (المترجم)

(٤٤٤م) ادریان: امبراطور روماني عاش بين سنتي (٧٦ - ١٣٨) وحكم من (١١١) إلى (١٣٨) وقد ولي بعد (تراجان) وذاذ عن حدود الامبراطورية في وجه البرابرة وقد ولد في اسبانية وتوفي أبوه في حدائه ورعاه (تراجان) في قصره برومه. وقد اتبع سياسة سلمية دفاعية في أرجاء الامبراطورية باستثناء فلسطين حيث بنى معبداً لـ (جوبيتر) في بيت المقدس على أنقاض معبدها المهتمد وأطلق على المدينة اسم (إيليا كابيتولينا) فثارت ثائرة اليهود (١٣٢ - ١٣٥) فأخضعهم بقسوة وأصبحت بلادهم تعرف منذئذٍ باسم سورية الفلسطينية. وقد اشتهر بأنه نشر «المرسوم الدائم» وهو أول مجموعة قانونية يمكن تطبيقها في جميع أرجاء الامبراطورية. (المترجم)

(٤٥٤م) نيرون (كلاوديوس قيصر): عاش بين سنتي (٣٧ - ٦٨) وحكم بين (٥٤ - ٦٨) تبناه (كلاوديوس) ولما خشى أن يستولي (بريتانيكوس) على العرش عندما يكبر فعمل على دس السم له وهو صبي. وبعد أن اعتلى العرش اتخذ (بربايا ساينا) خليلاً وكانت زوجة أحد أصدقائه. وقد اتسمت تصرفاته بالوحشية التي أصبحت مضرب المثل إذ قتل أمه، ثم زوجته (أوكتافيا) وأرغم (سينيكا) الفيلسوف على الانتحار وينسب مؤرخون إليه تبعة حريق رومه الكبير (سنة ٦٤) ولكنه وجه التهمة للمسيحيين وشرع باضطهادهم وأعاد بناء المدينة على نمط فخم جميل. وكان يعتبر

نفسه فناً مبدعاً، وقد وقعت ضده ثورات عدة. (المترجم)

(٤٦م) منطقة اغريقية تقع في شمال شبه جزيرة (بيلوبينز) (المترجم)

(٤٧م) اميل برهيه (١٨٧٦ - ١٩٥٢) مؤرخ الفلسفة وفيلسوف فرنسي. نشأ في أسرة من الجامعيين ودرس في جامعة باريس على (فيكتور بروشار) و(لوسيان ليفي - برول) وقام بتدريس الفلسفة وتاريخ الفلسفة في جامعات (رين) و(بورجو) و(باريز) حتى سنة ١٩٤٦ .

من آثاره المهمة كتاب: تاريخ الفلسفة وقد نشر في سبع مجلدات بين سنتي (١٩٢٦ - ١٩٣٢) وهو من المراجع الأساسية إذ شمل أصول مذاهب الفكر الغربي منذ القدم حتى الربع الأول من القرن العشرين وجمع بعمق بين وجهتي نظر الفلسفة وتاريخها. وعُني الأستاذ (برهيه) بوجه خاص بالفلسفة اليونانية وخاصة الرواقية والأفلاطونية - الجديدة مثلما عُني بالفلسفة الألمانية وقد عرضها عرضاً منهجياً ونشر عن (شلنغ) دراسة وافية). وعنده أن لا غنى عن تاريخ الفلسفة لمعرفة الفلسفة ذاتها وعلى هذا النحو يبدو التاريخ وهو مجال الزمنى من حيث أنه يتطلع إلى اللازمى وإن الفلسفة لتبحث في ماضيها عن حاضرها السرمدى (المترجم).

(٤٨م) هيلل: (حوالي ١١٠ ق.م - ١٠م).

حاخام شهير. ولد في بابل وسافر إلى أورشليم حيث شغل منصب رئيس (المجمع) سنة ٣٠ ق.م. وكان بطبعه شديد التسامح محباً للسلام: وكان خصمه اللدود الحاخام (شاماي) Shammai الشديد التزمته وقد كتب «القاعدة الذهبية». ويعدّ (هيلل) أحد رؤساء الفريسيين وقد أسس مدرسة الـ (تنام) أو السادة (المعلمين). (المترجم)

(٤٩م) هم سكان (ايلوزيس) Elusis وهي مدينة يونانية قديمة قرب (أثينة) اشتهرت بمعبدها المقام لعبادة الإلهة (ديمتر) وهي عبادة ذات أسرار يضمون فيها إلى الإلهة (ديمتر) ابنتها (بريسيفون). وترمز الأسرار إلى موت حبة القمح وبعثها مثلما ترمز إلى موت الروح البشرية وبعثها. وكانت معظم الطقوس تجري في غرفة مظلمة تنيرها على فواصل، أنوار ترمز إلى الأمل. (المترجم)

(٥٠م) سيبيل: الهة فريجيا القديمة ومناطق أخرى من آسيا الغربية. كانت هي (الأم الكبرى)، (أم الإلهة)، وهي آلهة (الطبيعة). وكانت عبادتها مصحوبة بحفلات داعة تعكس القدرة المنسوبة لها على الانخصاب. وتروي الأسطورة أن هذه الإلهة كانت خليلية (اتيس)، وأن لهما عبادة واحدة، وكان كهنتها يخصون أنفسهم اقتداء بـ (اتيس). وقد كانت تعبد في صورة حجر صغير أسود لها ظاهر يشبه القضيب. وقد ذاعت هذه العبادة فيما بعد في رومة سنة ٢٠٤ ق.م ونقل الحجر من (فريجيا) إليها ويزعم أن المركب الذي كان يحمل الحجر ما أن رسا في نهر (التيبر) حتى

وجهت امرأة رومانية الحجر المقدس بنطاقها في المرفأ. وقد أصبحت عبادة (سيبيل) من ديانات الأسرار الأساسية في العالم الروماني. (المترجم)

(٥١م) أوزيريس: أكبر آلهة مصر القديمة ويعرف بـ «ملك الخلود»، سيد الآلهة، سلطان الآلهة والناس، اله الآلهة، ملك الملوك، سيدالسادة، أمير الأمراء، حاكم العالم، سرمدى الوجود. كانوا يعدونه إنساناً تألم ومات ودُفن ولكنه بُعث ليدخل السماء حيث يسود إلى الأبد. وقد كان يمنح البشر الأمل الثابت والرجاء اليقيني بالبعث وبأن يحيا المرء بعد الموت بجسده الأرضي، ولذا كانت هذه العقيدة منطلق تخنيط المومياء. ويرى الكهنة المصريون أن (أوزيريس) كان يحكم دلتا النيل في فجر التاريخ، وكان يعلم شعبه فنون الزراعة وتنمية الكروم وكان يشرع القوانين وقيم الدين الحقيقي ويحكم بالخير والحكمة. وكان له أخ توأم هو (ست) وهو شرير بقدر إتصاف (أوزيريس) بأنه صالح. وقد قرر (ست) اغتيال (أوزيريس) والاستيلاء على المملكة والزواج من امرأة أخيه، وهي أختها (إيزيس). ونجح في قتل (أوزيريس) ولكن الملكة (إيزيس) اكتشفت بوسائل سحرية جثة زوجها القتيل وكان (ست) ألقاها في النيل. فدفنتها مؤقتاً في أنية وبحثت عن ابنها (حورس) وفي أثناء غيابها عثر (ست) على الجثة فقطعها أربعة عشرة قطعة وألقاها في مهب الريح. ولكن (إيزيس) اكتشفت ذلك وجمعت كل القطع باستثناء الأعضاء التناسلية (التي أكلتها الأسماك) وعملت على أن يدفنها أحد الكهنة بإجلال في أمكنة مختلفة. وبعد أن رمت (إيزيس) قطع الجثة قام (أوزيريس) من موته وأصبح ملك العالم. وتحدى (حورس) عمه (ست) وهزمه في القتال وخصي (ست) وحكم (أوزيريس) العالم وله اثنان وأربعون مساعداً. وثمة (قاعة الدينونة) التي يؤتى إليها في العالم الآخر بالأموات فيحكم عليهم في حضرة (أوزيريس) ومساعديه ومن فاز منهم ولج على الفور إلى السماء الأوزيريسية حيث يعيش السعداء في غبطة أبدية وهم يلبسون الثياب الناعمة والأحذية ويأكلون الخبز الذي لايبس أبداً ويشربون الخمر الذي لايفسد أبداً. (المترجم)

(٥٢م) ولد الأستاذ (ليون روبان) في نانت سنة ١٨٦٦ ودرّس في السوربون من (١٩١٣ - ١٩٣٦) واشتهر بدراساته في تاريخ الفلسفة القديمة وتوفي في باريز ١٩٤٧ (المترجم)

(٥٣م) عبادة سرية من اليونان القديمة تنسب إلى (أورفه) Orohee ظهرت في القرن السادس ق.م. ويحكى أن (أورفه) ابن ملك (تراقيه) أو ابن (ابولون) من أم هي ربة شعر. وقد برع بالعزف على العود حتى طربت لعزفه البهائم والسباع وحتى الأشجار والأنهار. وقد نزل إلى (هاديس) ليلقى زوجته الحبيبة (أوريدس) التي لسعتها أفعى فماتت. وقد استطاع بموسيقاه استعطاف آلهة الجحيم فسمحت له باسترجاع زوجته

شريطة أن تسير خلفه وألا ينظر إلى الوراء! ولكن (أورفه) أحب التأكد من أن زوجته تتبعه فنظر إلى الخلف فعادت زوجته ظلاً على الفور. وعلى هذا فقد رجع (أورفه) وحده إلى العالم وهو مشتمئز من الوجود وصمم على ألا يتصل بالنساء فنقمت عليه نساء (تراقيه) وقتلته. وفي الحكايات المتأخرة يمثل (أورفه) رحالة يتطلع إلى المعرفة تطلع حكيم وساحر وفلكي ورسول حضارة وتمدين. ولكن أتباعه المؤمنين به يرون أنه يتميز بسفره إلى ماوراء العالم وعودته سليماً معافى. ويرى فريق من أنصاره أن الإنسان مؤلف من نصفين الأول إنسان والآخر اله، وأن من أراد الخلاص من العنصر الأرضي في كيانه وجب عليه أن يُعنى بالعنصر الروحي حتى يتم اتحاده بالاله. ومن هنا يترتب على (الأورفيين) الزهد واجتناب أكل اللحوم والامتناع عن شرب الخمر إلا عند القداس وعليهم أن يتظاهروا بأجسادهم ولا يلبسوا سوى الثياب البيضاء لدى احتفالهم بتمثيل موت الاله وبعثه من جديد. وقد أسس (الأورفيون) جماعات تقبل الرجال والنساء على السواء ممن أتم مراحل الإطلاع. ويرى بعض المؤرخين أن هذه الجماعات نوع من طوائف رهبانية يرتبط أفرادها بإيمان صوفي بوجود حياة آخرة. وقد وضعوا كتابات في لوائح صغيرة ذهبية يذكر مضمونها بـ «كتاب الموتى» لدى المصريين القدامى. وقد انتشرت بسرعة فائقة في اليونان وإيطالية الجنوبية وصقلية وظل بعضها موجوداً حتى في العصر المسيحي وقد تكون ذات تأثير في نمو اللاهوت المسيحي. (المترجم)

(٥٥٤) عاش (أبوله) بين سنتي (١٢٥ - ١٨٠) وهو فيلسوف لاتيني أفلاطوني النزعة. وضع رواية بعنوان التناسخ أو الحمار الذهبي وصف فيها شخصاً تحول إلى حمار وهو يعرف قصصاً مسلية. ويذكر الحمار أنه دنا من مملكة الموت وعرف أن الموت والبعث الرمزيين وقف على الحفلات الدينية وهما يفسران بأسرار (إيزيس) وأن الإطلاع على هذه الأسرار يتيح للإنسان ولادة جديدة بعد الانتحار. (المترجم)

(٥٥٥) إلهة جميلة عند اليونان ترمز لتجدد الطبيعة في الربيع بعد خدرها الشتوي. وكانت أعيادها تدخل في احتفالات الأسرار. (المترجم)

(٥٥٦) (فرجيل): عاش بين سنتي (٧٠ - ١٩ ق.م) وهو أعظم شعراء الرومان. كان أبوه مزارعاً عني بتربية إبنة وتعليمه في ميلانو و نابولي ورومه كما علمه الفلاحة معه عشر سنوات وأقام في رومه سنة (٤١ ق.م) وأخذت شهرته تذيب بنظم أشعاره الرعوية وديوانه عن الزراعة، وقد تأثر فيهما بالشاعرين (تيوقريطس) و(هزiod). وأما ملحمة (الأنبياء) فهي من أروع مؤلفاته وقد قلّد فيها الألياذة والأوديسة. (المترجم).

(٥٥٧) اسم عزافات في التاريخ القديم اليوناني أو الروماني وهي تستمد الوحي من (ابولون) أو من آلهة أخرى. وأشهرها (سبيل دي كوم) التي يظن أن كهفها قد اكتشف سنة ١٩٣٢ وقد باعت آخر ملوك رومه ثلاثة كتب من التنبؤات التي تجعل

من الممكن اتخاذ السبل المؤدية إلى استرضاء الآلهة عندما يحل بالوطن خطر كبير.  
(المترجم).

(٥٨٨م) سينيكا ولد حوالي سنة ٣ ق.م وتوفي سنة ٦٥ م. فيلسوف رواقى من أصل إسباني على تربية (نيرون) الذي قربه ثم اتهمه بالتآمر وأمره بالانتحار فأطاع الأمر وقطع شرايينه. وكتب في الأخلاق والفلسفة رسائل ومسرحيات منها «أوديب» و«أغامنون» وكلها مقبسة أو مستمدة من المسرحيات اليونانية. وقد ذاعت في عصر النهضة الأوروبي وأعجب مؤلفون مسيحيون بأفكاره الأخلاقية الرفيعة. وقد قامت بينه وبين القديس (بولس) مراسلات حتى أن بعض آباء الكنيسة يذهبون إلى أنه اعتنق المسيحية. (المترجم).

(٥٩٨م) (ابيكيت): فيلسوف رواقى روماني اشتهر حوالي سنة ١٠٠م وقد وُلد في آسية الصغرى ولكنه عاش عبداً في رومه إلى أن أعتق عندما كبر. وقد جمع تلميذه (اريان) Arrien دروسه وحفظها في مجموعة تدعى «الكتاب». و«ابيكيت» يقول: هناك كلمتان لا مناص لمن أراد الإفلات من ميوله السيئة وتأمين حياة هائلة من أن يعيهما وهما: «تحمل وامتنع». (المترجم).

(٦٠٦م) يوربيد: شاعر مسرحي اغريقي. عاش بين سنتي (٤٨٠ - ٤٠٦ ق.م) واشتهر بتطويره المسرحية المأساوية بابرز التحليلات النفسية والأفكار العلمية والنفسية وعنايته بالموسيقى وبالاخراج. ومن أشهر مسرحياته (الست) و(أندر وماك) و(الكترا) الخ.  
(المترجم)

(٦١١م) بلوتارك: مؤرخ وناقد يوناني. عاش بين سنتي (٤٦ - ١٢٠) وقد زار مصر وإيطالية. أثبته ثم عاد إلى وطنه (بيوتيا) حيث أصبح كاهن معبد (دلفي) ووضع كتاب «حيوات متوازية» وتعرض في كل فصل للكلام على شخصيتين إحداهما يونانية والأخرى رومانية مع موازنة مفصلة بينهما. وقد نجح في تحليل شخصياته وكان من أعظم كتّاب السير والتراجم في العالم القديم إلى جانب اهتمامه بالأخلاق. (المترجم).

(٦٢٢م) الطيطان أو العمالقة. - نسبة إلى طيطان وهو ابن (أورانوس) و(هستيا) وأخ (كرونوس) وأب العمالقة. تنازل عن السماء لـ (كرونوس) وأنجب الطيطان أبناءه وأحفاده وعددهم اثنا عشر: ستة من الذكور، وستة من الإناث، وهم يناضلون ضد (تروس) الذي يلقي بهم على الجحيم في درك الأرض. المترجم

(٦٣٢م) نسبة إلى (أفسس) Ephese وهي مدينة يونانية في آسية الصغرى اشتهرت بمعبدتها الخاص بعبادة (ارتميس) ويعتبر من أجمل المعابد الاغريقية وهو أحد عجائب الدنيا في العالم القديم. وقد زار القديس (بولس) أفسس وأسس فيها كنيسة منذ عام ٥٤ م وفيها عُقد فيما بعد مجمع أذان النسطورية وذلك عام ٤٣١ م (المترجم).

(٢٦٤م) أحد الكهان في عبادة (اتيس). (المترجم).

(٢٦٥م) خطيب يوناني عاش بين حوالي سنة (١٧٠) حتى ٢٤٥ ميلادية وقد رحل إلى روجه وحظي بمنزلة رفيعة لدى الأمباطورة (جوليا دومنا) والدة (كاراكال). وكان سوري الأصل، يعنى بالتأملات الدينية والميتافيزية وقد وضع كتاباً عن حياة (أبولينوس التياني) كما وضع كتاباً آخر بعنوان: حياة المغالطين. (المترجم)

(٢٦٦م) قسطنطين الكبير: امباطور روماني جعل المسيحية ديانة الدولة. ولد سنة (٢٧٤) وهو ابن الامباطور (كونستانس) وقد توجه الجند بعد وفاة أبيه سنة (٣٠٦) وأصبح بعد سنتين أحد امباطورين يحكمان الامباطورية آنذاك ثم أصبح سنة (٣٢٣) وحده سيد العالم الروماني. وهو يؤكد أنه رأى في السماء، قبيل انتصاره الأخير، صليباً من نار مصحوباً بكلمات اغريقية معناها: «بهذه العلامة ستنتصر». فاتخذها رمزاً. وقد نشر رسوم التسامح مع المسيحيين ورأس مجمع (نيقيه) سنة (٣٢٥) ولكنه لم يعمد إلا قبيل موته وقد توفي سنة (٣٣٧). (المترجم)

(٢٦٧م) أول شماس مسيحي وأول الشهداء الذين قتلهم اليهود كما جاء في سفر الأعمال (٦ - ٧) (المترجم)

(٢٦٨م) بالعبرية (مريم) وباليونانية (ماريا) أو (ماريان) - وبالفرنسية (ماري): أم (يسوع - المسيح). ويطلق عليها الكاثوليك اسم البتول (ماري) أو القديسة (ماري) أو (السيدة). ولا يتحدث «العهد الجديد» عن حياتها بالتفصيل. يقول القديس (متى) إنها تزوجت من (يوسف) وحين اكتشف أنها حامل حاول خلعهما ولكن ملاك الرب أعلمه أن هذا الحمل ناجم عن الروح القدس. وقد امتنع (يوسف) عن الاتصال الجنسي بها بعد الزواج حتى ولدت ابنها الأول (يسوع). ويشرح القديس (لوقا) تفاصيل البشارة التي جاءت لـ (ماري) نزل بها الملاك (جبريل) الذي التقى بها وبابنة عمها (اليسابات) والدة القديس (يوحنا المعمدان). ويصف القديس (يوحنا) مرحلة عرس (قانا) التي حضرته (ماري). ويذكر أيضاً أنها كانت بين النسوة اللواتي وقفن على عتبة الصليب عند الصلب، وأن (يسوع)، قبل أن يلفظ نفسه الأخير، عهد بأمه إلى تلميذه الحبيب (يوحنا) ذاته. ومن العقائد الكاثوليكية القول بصعود (العذراء) إلى السماء بعد الموت والدفن والقول بنظرية الحبل السري وهي تشير إلى أنها خلقت في احشاء أمها (أن) بدون أية خطيئة. ويؤمن الكاثوليك كذلك بأنها ستبقى عذراء إلى الأبد، وأن من الواجب الامتناع عن التأويل الحرفي لوجود اخوة (يسوع).

(٢٦٩م) مرثا: اخت (الغازر) في الانجيل، وهي قديسة.



## هوامش ومراجع الكتاب

- (١) حياة يسوع - الفصل ١٣
- (٢) انظر البرهان الدماغ (وأنا لم أخصه) في «الإنجيل الرابع» ص ١٤ - ١٩
- (٣) انظر الشروح المعقدة التي جاء بها (لاكرانج) في «الرسول متى» ص ١٥٢ - ١٥٣
- (٤) معجم اللاهوت - مادة الإيمان ج ٣٩٣
- (٥) دولافوس: الإنجيل الرابع ص ٢١ .
- (٦) المصدر السابق ص ٢١ .
- (٧) (يسوع) والتقليد الإنجيلي: ص ١٣٥ - ١٤٤ وهو يطلق عبارة «الأخلاق الإنجيلية» في الفهرست على أخلاق (يسوع) الملغ إليها.
- (٨) الكتاب المتداول ص ٢١٩ - ٢٢١
- (٩) المصدر السابق ص ٢٢١ .
- (١٠) المسيحية القديمة ص ٥٠ .
- (١١) المصدر السابق
- (١٢) هرتزبرغ: تاريخ اليونان في ظل السيطرة الرومانية - ترجمة (بوشيه لوكلك) Bouche z Leclercq باريز ١٨٨٨ (ج ٢ ص ١٩٢ ، ١٨٩٠ ، ٢٠٦).
- (١٣) برهيه: الأفكار الفلسفية لـ (فيلون) الاسكندري. باريز ١٩٢٥ ص ٢٢٦ .
- (١٤) انظر ص ٣٠٢ الهامش
- (١٥) موريه: ملوك مصر وآلهتها (باريز ١٩١١) ص ١٠٦
- (١٦) لوازي: الأسرار ص ١٩٠ وما بعد
- (١٨) كينبير: الكتاب المتداول ص ١١٤ وما بعد.
- (١٩) روبان: (الفكر الاغريقي - (باريز ١٩٢٣) ص ٣٧٦ و«ابيكيتيت»: الكتاب: ٥٢
- (٢٠) نصوص مذكورة في كتاب (لوازي): الأسرار ص ١٤٨ .
- (٢١) المصدر السابق ص ١٤٦
- (٢٢) المصدر السابق ص ١٤٨ (ابوله ٢١/١١).
- (٢٣) المصدر السابق ص ١٥١ (ابوله ٢٣/١١).

- (٢٤) المأدبة ٢١٢
- (٢٥) فيدون ١١٣ ، ١١٤ (ف٦٢)
- (٢٦) انظر (بولانجه): أورفه ص ٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ - ٤٠ ، ١٢٨ ، ١٣٤
- (٢٧) بولانجه: الأورفية ص ٣٩ ، ١٣٤
- (٢٨) لوازى: الأسرار ص ٤٨
- (٢٩) المصدر السابق ص ١٣١
- (٣٠) كومون: نصوص وأثار مصورة تتصل بأسرار (ميثا) (بروكسل ١٨٩٤) ج ١ ص ٣١٠ - ٣١١
- (٣١) Eclog ١٧/٥/٤
- (٣٢) الأحاديث (٢٥ ، ٢٣) و ٣ (٢٢ ، ٢١) ترجمة (كوردافو) Courdaveaux.
- (٣٣) الأورفية ص ٢٧ .
- (٣٤) سفر الجامعة: (١٧/٢) و (١/٤).
- (٣٥) فيدون ص ٦٦ ج
- (٣٦) انظر دنيس: تاريخ النظريات والأفكار الأخلاقية في العصر القديم ج ٢ ص ١٧٥
- (٣٧) التناقضات الرواقية ص ٣٣: عادة أكل اللحم ج ٢ ص ٢
- (٣٨) الكتاب ١١ - الأحاديث ١٨/١ ، ١١
- (٣٩) الأحاديث ٢ (٦ ، ١٨) و ١ (١ ، ١٩) و ٣ (١٣ ، ١٧).
- (٤٠) المصدر السابق ٢ (١٠ ، ٢٤) وما بعد.
- (٤١) المصدر السابق ٤ (٥ ، ١٤) و ٣ (٢٢ ، ٥٤).
- (٤٢) المصدر السابق ١ (١٨٥ ، ٩ ، ١٠).
- (٤٣) في الإحسان ٧ (٣١)
- (٤٤) الخطب - طبعة لهنرت G. Lehnert (ليزيغ ١٩٠٥) (١٧/١٤).
- (٤٥) الأحاديث ٢ (٢٢ ، ١٠٠).
- (٤٦) فيلوسترات: حياة أبولو ٤ (٣٨).
- (٤٧) عاموس (٤/٦) و (٤/٨) وما بعد.
- (٤٨) فيلوسترات: ٤ (٤٠) و ٦ (٢).
- (٤٩) الأحاديث ٣ (٢٢ ، ٤٧) وما بعد
- (٥٠) نقلاً عن دنيس ٢ ص ١٨١ (٨).
- (٥١) جوزيف ٢ (٨ ، ٣).
- (٥٢) فيلوسترات ٤ (٣)
- (٥٣) ابيكتيت: الأحاديث ١ (٩٧ ، ٦ ، ٩).
- (٥٤) انظر النصوص لدى (جوستر) Juster ١ (٤٨٩).

- (٥٥) كومون: نصوص وآثار مصورة تتصل بأسرار (ميثرا) ١ (٣٠٨).
- (٥٦) كرايو Grailot: عبادة (سيبيل) في رومه وفي الإمبراطورية الرومانية (باريز ١٩١٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٤).
- (٥٧) الكتاب (٧)
- (٥٨) الأحاديث ٣ (٢٢ ، ٦٧ ، وما بعد).
- (٥٩) الأحاديث ١ (٩ ، ١)
- (٦٠) الأحاديث ٤ (٧ ، ٢٢ ، وما بعد)
- (٦١) المصدر السابق ٣ (٢٢).
- (٦٢) الكتاب ٢٩
- (٦٣) لقد درستُ هذا التحول في الأخلاق المسيحية في بحث بعنوان: الانتحار والأخلاق وأنا أسمح لنفسى بإحالة القارئ عليه (باريز ١٩٢٢ ص ٣٤٨ وما بعد).
- (٦٤) أعمال (٤٥/٢)
- (٦٥) أعمال (٣٤/٤)

## فهرست

٥	تصدير
٧	الفصل الأول: هل توجد أخلاق انجيلية
١٣	الفصل الثاني: الأخلاق والطقوس
	آ (يسوع) يلغي الطقوس القديمة ويعلن سدى الطقوس
١٨	ب) يحافظ (يسوع) على الطقوس القديمة ويعلن أن الناموس لا يُمس
٢٠	ج) (يسوع) يقيم طقوساً جديدة
٢٣	الفصل الثالث: الأخلاق والإيمان
٢٣	آ) مشكلة (الست) لدى اليهود
٢٤	ب) الخلاص والأخلاق والإيمان
٣٣	الفصل الرابع: المسؤولية والحرية
٣٤	آ) الإنسان حرّ، وهو مسؤول لأنه حرّ
٣٧	ب) الإنسان ليس حرّاً. وعلى الرغم من ذلك فهو مسؤول
٤٧	الفصل الخامس: ضروب الجزاء
٤٧	آ) ضروب الجزاء الروحي:
٥٠	ب) العقوبات الجسدية
٥٧	الفصل السادس: احترام الحياة الإنسانية
٥٧	آ) أخلاق أولى : على الإنسان أن يحترم حياة القريب ويغض حياته
	ب) المذهب الأخلاقي الثاني: في وسع الإنسان أن يقتل
٦٢	في بعض الأحوال والفوز بحياته
٦٩	الفصل السابع: الثروة
٦٩	آ) الأخلاق الشيوعية
	ب) الأخلاق المحافظة

٨٧	.....	الفصل الثامن: الأسرة
٨٧	.....	آ) مذهبها الأخلاق المتصلين بالزواج
٩٣	.....	ب) المذهبان الأخلاقيان المتصلان بالأسرة
٩٩	.....	الفصل التاسع: المجتمع والكنيسة
٩٩	.....	آ) السلطة السياسية
١٠٤	.....	ب) العدالة الإنسانية
١٠٦	.....	ج) المراتب الاجتماعية
١٠٩	.....	د) الكنيسة
١١٣	.....	الفصل العاشر: لاتوجد أخلاق انجيلية
١١٣	.....	آ) التناقضات النظرية
١١٥	.....	ب) مذهبها الأخلاق العملية
١١٩	.....	الفصل الحادي عشر: بعض محاولات إقامة الوحدة
١١٩	.....	آ) طريقة اللاهوتيين
١٢٧	.....	ب) محاولات أخرى لإقامة الوحدة
	.....	ج) محاولة تفسير أخيرة: إن التناقض يتلاشى إذا نظرنا
١٣٢	.....	إلى كل انجيل وحده
١٤٥	.....	الفصل الثاني عشر: محاولة تفسير تاريخي
١٤٦	.....	آ) أخلاق (يسوع)
	.....	ب) فرضية «أخلاق (يسوع)» فرضية يصعب البرهان عليها
١٥٠	.....	من الناحية العلمية
١٥٥	.....	الفصل الثالث عشر: التفسير السوسولوجي
	.....	آ) تنوع الأوساط الاجتماعية ممثلة في الكنيسة
١٥٦	.....	زمن كتابة الأناجيل:
١٦٠	.....	ب) النظريات المتناقضة والأوساط الاجتماعية
١٦٩	.....	ج) مذهبها الأخلاق العملية والأوساط الاجتماعية
١٨٠	.....	د - تأثير الجماعات الاجتماعية في كتابة الأناجيل
١٩٣	.....	خاتمة

## اخلاق الانجيل



إن قوانين العلم لا تجيز لأي كان، وحتى انطلاقاً من أنبل رغبة أخلاقية المساس بمعنى نص من النصوص، بحيث يسليخ عن أي جملة أدنى قدر من معناها الجلي، ليجعلها ترضخ لمذهب ميّت بإعطائها معانٍ مختلفة عن معانيها المحددة والواضحة انحيازاً لذلك المذهب، بحيث يصبح العلم أمراً هامشياً تحت وطأة المواقف السلفية التي تمتلك من وجهة نظرها يقيناً أعلى من أي يقين.

ومهما بلغت تلك المحاولات من براعة لنفي التناقضات الموجودة في نص ما، فإن تلك المحاولات وتلك الطرق لا يمكن أخذها بعين الاعتبار من وجهة النظر العلمية.

إلا ان الفكر الإنساني ما برح ناشطاً في إطار العقل والنقل، والتساؤل عن لقائهما، بل عن افتراقهما وتناهدهما.

وفي هذا المجال يندرج هذا الكتاب الجاد إذ يقرن، مثلاً، المثالية المسيحية بمثالية الحكمة الرواقية.

وقد تعمق مؤلف الأخلاق المسيحية بتحليل أخلاق الأنجيل من الزاوية السوسولوجية، أي العلمية، وهي لا تمس سحر الكتاب المقدس، بل تبرز حياته، وتفقده الفاتن .